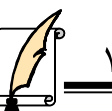
مقاصد كتاب التوحيد

تأليف
د / عيسى بن عبد الله السعدي
أستاذ العقيدة بجامعة الطائف



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آلــــــــه وصحبه أجمعيـــن وبعد :-

فلا يخفى ما لكتاب التوحيد من أهمية كبيرة ، وأثر واضح في الدعوة لعبادة الله وحده ومحاربة الشرك بجميع مظاهره ؛ ولهذا رأت أقسام العقيدة في كثير من الجامعات أن يكون من ضمن مقرراتها ، وكان من تلك الأقسام قسم العقيدة بجامعة أم القرى ، وقد شَرُفتُ بتدريس هذا الكتاب في هذا القسم المُبارك زُهاء عقد من الزمان ، وكان الوقت المُتاح آنذاك لا يكفي للدراسة التفصيلية التي درجت عليها الشروح ، فرأيتُ أن أُركِّز على توضيح مقاصد الكتاب ، وأعددتُ في ذلك مذكرة للطلاب ظلت بين أيديهم فترة من الزمن ، وبعد انتقالي إلى جامعة الطائف بفترة طويلة طلب مني بعض الفضلاء ممن درس في قسم العقيدة أصل تلك المذكرة ؛ فرأيتُ أن أعيد النظر فيه ، وأُراجع الشروح مرةً أخرى ؛ لتكون تلك المذكرة كتاباً مُيسَّراً يعمُّ نفعه بإذن الله تعالى ، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

كتبه

د . عيسى بن عبد الله السعدي

أستاذ العقيدة بجامعة الطائف

٥ / ١ / ١٤٣٥ هـــ



تمهيـــــــــد

قبل أن أبدأ في شرح هذا الكتاب النافع أود أن أمهد لذلك بأمرين :-

الأولى : في معنى التوحيد وأنواعه

التَّوحيد مصدر تدلّ مادَّته على الانفراد ؛ يقال : رأيته وحده ؛ أي منفردًا ليس معه غيره ، وتوحّد برأيه ؛ أي تفرّد به ، ويقال : جاءوا أحاد أحاد ؛ أي فرادى ، وإذا وصف اللَّهُ تعالى بالواحد كان معناه الفرد الَّذي لا نظير له ولا شريك ؛ فيقال : وحد الله ، وأحّده توحيدًا ؛ إذا اعتقده واحدًا فردًا ؛ لا نظير له في ذاته وصفاته ، ولا شريك له في خلقه وأمره ، ولا ندّ له في إلهيّته وعبادته . وهذا المعنى الكلّي ينتظم توحيد الرّبوبيّة والألوهيّة والصِّفات ؛ فتوحيد الربوبيّة يتعلّق بإفراد الله تعالى بمعاني الرّبوبيّة ؛ كالسؤدد ، والملك ، والخلق ، والتدبير . ويتعلّق توحيد الألوهيّة بإفراد الله تعالى بالعبادة ؛ وهي اسم يعمّ كلّ ما يحبّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظّاهرة . ويتعلّق توحيد الصِّفات بإفراد الله تعالى بما ثبت له من الأسماء الحسنى والصِّفات العليا ؛ لفظًا ، ومعنًى ، وحكمًا ؛ وذلك يتضمّن إثبات جميع معاني الكمال المطلق الَّتي يستحيل معها الاتّصاف بالنّقص أو وجود المثل . وهذه الأنواع يمكن ردّها إلى نوعين رئيسين :-

أحدهما : توحيد في العلم ؛ وهو إثبات حقيقة ذات الربّ تعالى ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله دون تمثيل أو تعطيل . ويعرف هذا النّوع الجامع لإثبات وجود الله تعالى وصفاته بتوحيد المعرفة والإثبات .

والثَّاني : توحيد في العمل ؛ وهو الإقرار بألوهيّة الله تعالى قولاً وعملاً ؛ أي اعتقاد أنّ الله تعالى هو المستحقّ وحده للعبادة ، والتزامها باطنًا وظاهرًا . ويعرف هذا النّوع بتوحيد الإرادات والعبادات .

ولأهميّة التَّوحيد البالغة كثرت أدلّته حتَّى فاقت الحصر ، ورأى بعض أئمّة أهل السنّة والجماعة في كلّ آيةٍ من كتاب الله تعالى دليلاً على التَّوحيد ؛ يقول ابن القيِّم : (إن كلّ آيةٍ في القرآن فهي متضمّنة للتّوحيد ، شاهدة به ، داعية إليه ؛ فإنّ القرآن إمَّا خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التَّوحيد العلميّ الخبري ، وإمَّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التَّوحيد الإرادي الطلبي ، وإمَّا أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التَّوحيد ومكمّلاته ، وإمَّا خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدّنيا وما يكرمهم به

في الآخرة فهو جزاء توحيده ، وإمَّا خبر عن أهل الشِّرك وما فعل بهم في الدّنيا من النّكال وما يحلّ بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمَّن خرج عن حكم التَّوحيد ؛ والقرآن كلّه في التَّوحيد وحقوقه ، وجزائه ، وفي شأن الشِّرك ، وأهله ، وجزائهم)[١] .

ودلالة القرآن على التَّوحيد ليست دلالةً سمعيَّة محضة ، بل دلالة سمعيّة عقليّة في الأعمّ الأغلب ؛ لأنّ أكثرها إلزامات وأمثال واعتبارات تسلتزم وجود مدلولها إلاّ إذا حال دون ذلك ظلم أو كبر أو هوى .

المقدمة الثانية : في شروح كتاب التوحيد

حظي كتاب التوحيد باهتمام العلماء منذ تأليفه وإلى اليوم ، فكثرت شروحه وتعددت وتنوعت ؛ فمنها المطول ومنها المختصر ، ولكل شرح خصائصه وفوائده وفرائده ، ومن هذه الشروح :-

١- تيسير العزيز الحميد ، لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، وهو أقدم الشروح وأولها ، وأوسعها ، وأكثرها علما ونفعا ، إلا أن مؤلفه لم يكمله ، فقد وقف على باب ما جاء في المصورين ، ووضعت تكملته من فتح المجيد .

٢- فتح المجيد ، لعبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ، وهذا الكتاب عبارة عن تهذيب وترتيب وتكميل لتيسير العزيز الحميد ، وفيه زيادات كثيرة على الأصل ، وقد حظي هذا الكتاب بشهرة واسعة ، وطبع مرات كثيرة ، وبلغ كثيرا من المسلمين في أنحاء العالم .

٣- حاشية كتاب التوحيد ، لعبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، وهي حاشية نافعة ومحررة ، ولهذا يعول عليها كثير من أهل العلم في التدريس والتأليف .

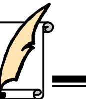
٤- القول السديد ، لعبد الرحمن بن سعدي ، وهو كتاب مختصر في قواعد وضوابط ومقاصد توحيد الألوهية ، وهو نافع جدا في هذه المطالب .

٥- القول المفيد ، لمحمد بن عثيمين ، وهو كتاب كبير ؛ حافل بالعلم والتحقيقات النافعة .

وهناك شروح أخرى لكتاب التوحيد سوى ما ذكر ؛ كقرة عيون الموحدين ، وإبطال التنديد ، والدر النضيد ، والتمهيد ، وغيرها .

---

(١) مدارج السالكين ٣ / ٤٥٠ .



أهميـــة التوحيـــد

لم يضع المؤلف رحمه الله عنوانا لأول باب في الكتاب إلا أنه يفهم من استدلاله ومسائله وشروح الكتاب أنه يدور حول بيان أهمية التوحيد ؛ وهو يعني بذلك توحيد الألوهية الذي أفرد هذا الكتاب لبيان حقيقته وأهميته وفضائله وأدلته و قوادح أصله أوكماله . وقد بين المؤلف أهمية هذا التوحيد من الأوجه التالية : -

الأول : أن توحيد الألوهية هو الحكمة الشرعية من خلق الثقلين ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الذاريات: ٥٦ ؛ أي ليفروني بالعبادة ، وإخلاص العبادة لله وحده والبراءة من الشرك وأهله هو مدلول هذا التوحيد مطابقة . وفي هذا دلالة واضحة على عظم شأن هذا التوحيد ؛ إذ الثقلان لم يخلقوا إلا لأجله ! وهذا الأصل يدل بمنطوقه ومفهومه على عدة أمور : -

١- أن حكمة خلق الثقلين الشرعية تختلف عن الحكمة القدرية المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ هود: ١١٨ - ١١٩ ؛ فالحكمة القدرية لابد من حصول مقتضاها ، وانقسام الخلق إلى فريقين ؛ فريق في الجنة وفريق في السعير بخلاف الشرعية ؛ ولهذا وقع الشرك في بني آدم ؛ وعبد غير الله معه أو من دونه .

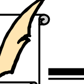
٢- أن توحيد الربوبية وإن كان أصلا أصيلا في الإسلام إلا أنه لا يكفي وحده في تحقيق التوحيد حتى يضم المكلف إليه لازمه وثمرته ؛ وهو توحيد الألوهية ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ البقرة: ٢١ - ٢٢ ؛ فاستدل بمعاني الربوبية من خلق وعناية على وجوب إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ؛ ولهذا قال علماء السلف : توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية وتوحيد الألوهية يتضمنه .

٣- أن العبادة حيث وردت فالمراد بها هذا التوحيد ؛ فمن لم يأت به فليس بعابد لله تعالى ولو كثرت صلاته وصيامه وأعماله ؛ ولهذا قال المؤلف في المسائل : (العبادة هي التوحيد ، لأن الخصومة فيه ، فمن لم يأت به لم يعبد الله ؛ ففيه معنى قوله : ولا أنتم عابدون ما أعبد)[١].

الثاني : أن الرسل إنما أرسلت ، والكتب إنما أنزلت بهذا التوحيد ولأجله ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا

---

(١) انظر : كتاب التوحيد مع القول السديد ، ص (١٤) (بتصرف يسير) .



﴿ فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦ ؛ فدلت الآية على حكمة إرسال الرسل ؛ وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده ، والبراءة من الشرك وأهله . وفي هذا الأصل دلالة على عدة أمور : -

١- أن أصل دين الأنبياء واحد وإن اختلفت الشرائع ؛ فكل نبي منذ حدث الشرك في قوم نوح عليه السلام إلى أن ختموا بمحمد ﷺ إنما بعثوا بالدعوة لهذا التوحيد ؛ قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ الأعراف: ٥٩ ؛ وهكذا قال هود وصالح وشعيب عليهم السلام ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : (الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد) ؛ رواه أبو داود وغيره بإسناد صحيح[1] ؛ فالدعوة لتوحيد العبادة جمعت الرسل وإن اختلفت المناهج ؛ كما يجتمع الإخوة لأب في أصل واحد وإن اختلفت الأمهات .

٢- أن الرسالة عمت كل أمة ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ فاطر: ٢٤ ، وقال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ الإسراء: ١٥ ؛ فلا أحد أحب إليه العذر من الله ؛ ولهذا عمت رسالاته كل أمة وإن كانت الفطرة كافية في معرفة الرب وتوحيده ؛ ولهذا كان أرجح الأقوال أن كل من مات و لم تبلغه دعوة الرسل فإنه يمتحن في عرصات القيامة ؛ ليظهر فيه مقتضى علم الله من شقاوة أو سعادة .

٣- أن التوحيد لابد فيه من نفي وإثبات ؛ نفي العبادة عما سوى الله وإثباتها لله وحده ؛ فالنفي المحض ليس بتوحيد وكذلك الإثبات ؛ وهذا من أهم أصول التوحيد ؛ ولهذا قال المؤلف: (المسألة الكبيرة ؛ أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت ، ففيه معنى : فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى)[2] .

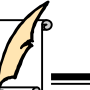
٤- الطاغوت مشتق من الطغيان ؛ وهو مجاوزة الحد ، وللسلف في معناه تفاسير لا تنافي بينها ، وكلها ترجع إلى ما قاله ابن القيم : (الطاغوت كل ماتجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع)[3] ؛ ولهذا قال المؤلف في المسائل : (الطاغوت عام في كل ماعبد من دون الله)[1] .

---

(١) انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٢١٨٢) .

(٢) انظر : كتاب التوحيد مع القول السديد ، ص (١٥) .

(٣) اعلام الموقعين ١ / ٥١ .



٥- خطورة الشرك ، وحرص الأنبياء البالغ على إبعاد الناس عنه ، ولهذا قال في الاية : (اجتنبوا الطاغوت) ؛ والاجتناب أبلغ من الترك ؛ لأنه يقتضي الترك والمباعدة ؛ وقد يكون في ذلك إشارة إلى أنه لا يكفي في تحقيق التوحيد مجرد ترك الشرك ، بل لابد من قدر زائد على ذلك ؛ وهو البـراءة من الشرك وأهـله ، كما قال تعـالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ الممتحنة: ٤

الثالث : أن توحيد الألوهيـة أعظم الواجبـات الشرعية وآكـد الأوامر الإلهيـة ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ النساء: ٣٦ ، وقال : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ الإسراء: ٢٣ ، فابتـدأ آية الحقوق العشرة في سورة النساء وكذلك جمل الشرائع في آيات الإسراء بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك ؛ فدل على أن التوحيد أوجب الواجبات ؛ إذ لا يبتـدأ إلا بالأهم فالأهـم . ويتعلق بهذا الأصل عدة أمور :

١ -عظم شأن هذه الشرائع في سورة النساء والإسراء وقد نبهنا الله على عظم شأنها بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾ الإسراء: ٣٩ ، وأعظمها شأنا ما بدئت به الآيتان ؛ وهو التوحيد .

٢- في ختم آية الإسراء بالنهي عن الشرك مزيد تأكيد على عظم شأن التوحيد ؛ لأن النهي عن الشرك يستلزم الأمر بالتوحيد ، ولعل في ذلك إشارة إلى أن التوحيد أول الأمر وآخره .

٣- أن التوحيد لا تكون حقيقته إلا بنفي وإثبات ؛ ولهذا قرن الله بينهما في قوله : (وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا) ، وقوله : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ) . وهذه حقيقة الشهادة ؛ فأولها نفي وآخرها إثبات ؛ ولهذا قال أهل العلم : إن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة ؛ فلا تصح بدونه أصلا ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ الأنعام: ٨٨ .

٤- أن القضاء الشرعي الديني كما في قوله تعالى : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ) لا يستلزم وقوع المقضي بخلاف الكوني القدري فلابد من وقوع مقتضاه ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ ﴾ سبأ: ١٤ ؛ وهذا القضاء الكوني هو الذي عناه العلماء بقولهم : كل شيء يجري بقضائه ومشيئته .

---

(١) كتاب التوحيد مع القول السديد ، ص (١٥) .



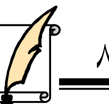
٥- أن الشرك أعظم المحرمات ؛ ولهذا كان قرين الأمر بالعبادة في آية النساء والإسراء وغيرها ؛ بل إنه كان أول آيات الوصايا العشر التي اتفقت عليها الملل ، قال تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾ الأنعام: ١٥١ - ١٥٣ ؛ فابتدأها بالنهي عن الشرك ؛ فدل على أنه أعظم المحرمات . والوصية هي الأمر المقرر المؤكد ؛ وأول هذه الوصية العظمى النهي عن الشرك مطابقة والأمر بالتوحيد التزاما ؛ وهي وصية الله تعالى ، وكذلك هي وصية رسوله ﷺ ؛ فإن رسول الله ﷺ لو أوصى لم يوص إلا بما وكما أوصى الله تعالى ؛ قال ابن مسعود رضي الله عنه : (من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى : قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا) إلى قوله : (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ... الآية)[١] .

الرابع : أن الله تعالى عظم شأن هذا التوحيد وعظم شأن أهله ؛ فجعله حقه الخالص على عباده ، وأحق لأهله على نفسه الكريمة ألا يمسهم عذابه ؛ فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : (كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال : يا معاذ ! أتدري ماحق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على العباد أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا قلت : يا رسول الله أفلا أبشر الناس ؟ قال : لا تبشرهم فيتكلوا) . أخرجاه في الصحيحين . ويتعلق بهذا الأصل عدة أمور : -

١- أن الحق بمعنى الواجب ، وليس من مجاز المشاكلة أو المقابلة ، كما يقوله من ينفي حقيقة الإيجاب ، فرارا مما ينافي اختيار الرب أو يستلزم إلجاءه إلى الانجاز ؛ وذلك لأن الله هو الذي أوجب على نفسه ما أوجب ، والإيجاب الصادر من الذات لنفسها لا ينافي الاختيار ، وإنما ينافيه إذا صدر من خارج الذات ؛ كالإيجاب العقلي الذي يثبته المعتزلة ، وهو أيضا إيجاب فضل وإنعام

---

(١) انظر : كتاب التوحيد مع القول السديد ، ص (١٣) .



لا استحقاق مقابلة وعوض ، كما يزعم المعتزلة .

٢- أن استحقاق العبد مشروط بأداء حق الرب ؛ فمن أدى حق كان له حق على الله ألا يعذبه ؛ وحق الله هو أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا ؛ وشيئا نكرة في سياق النفي فتعم قليل الشرك وكثيره وكبيره وصغيره . وحينئذ لا يعارض الحديث نصوص الوعيد المتواترة ؛ فإن المعاصي من فروع الشرك بمعناه العام ؛ لأنها صادرة عن هوى ، وهذا نوع من الشرك ، كما قال تعـــالى : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ الفرقان: ٤٣ . ومن العلماء من اعتبر نصوص الوعيد قيدا في هذه الإطلاقات ؛ لأن النصوص الشرعية بمنزلة النص الواحد ، لا يجوز التعلق ببعضها وإهمال الآخر ، وإنما ضلت المرجئة بإهمال نصوص الوعيد ، كما ضلت الوعيدية بإهمال نصوص الوعد .

٣- في الحديث دلالة على جواز كتمان العلم لمصلحة ؛ فمن كان يخشى عليه الاتكال على سعة رحمة الله تعالى جاز أن يكتم عنه ما يخشى أن يفهمه على غير وجهه من نصوص الوعد ، كما أن من كان يخشى عليه القنوط من رحمة الله تعالى جاز أن يكتم عنه ما لايحتمله من نصوص الوعيد ؛ ولهذا قال ابن مسعود ﷺ : ما أنت محدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة . وقال علي ﷺ : حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله[1] .

******

(١) أهم المراجع في أهميـــة التوحيد : قرة عيون الموحدين ، ص (١٥ – ٢٢) ، حاشية ابن قاسم ، ص (١١ – ٢٢) ، القول المفيد ١ / ١٩ – ٥٤ .

فضل التوحيد و ما يكفر من الذنوب

أراد المؤلف في هذا الباب بيان أمرين ؛ كثرة ثواب التوحيد ، وتكفيره مع ذلك للذنوب ؛ كما أشار إلى ذلك في المسائل بقوله : (فيه مسائل ؛ الأولى : سعة فضل الله . الثانية : كثرة ثواب التوحيد عند الله . والثالثة : تكفيره مع ذلك للذنوب)[١] . وقد بين المؤلف ذلك من خلال الأمور التالية : -

الأول : أن توحيد العبادة سبب الأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة ؛ قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ الأنعام: ٨٢ ؛ قال ابن كثير : (أي هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ، و لم يشركوا به شيئا هم الآمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا والآخرة)[٢] . ويتعلق بهذه الآية مسائل : -

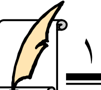
١- الظلم ثلاثة أنواع ؛ الشرك ، وظلم النفس بما دون الشرك من المعاصي ، وظلم العباد في نفس أو مال أو عرض . والمراد بالظلم في الآية الشرك الأكبر ؛ لحديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال : (لما نزلت الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، وقالوا أينا لا يظلم نفسه فقال رسول الله ﷺ : ليس هو كما تظنون ؛ إنما هو كما قال لقمان لابنه : يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) . وسمي الشرك ظلما ؛ لأنه وضع للعبادة في غير موضعها ، وصرف لغير مستحقها .

٢- من سلم من أنواع الظلم الثلاثة كان له الأمن والاهتداء المطلق ، ومن سلم من الشرك دون غيره فاته من ذلك بقدر كبيرته ، وكان له مطلق الأمن والاهتداء ؛ فيكون مآله الجنة يوما من الدهر يصيبه قبل ذلك ما أصابه . وهذا على أصول أهل السنة والجماعة ، خلافا للوعيدية من خوارج ومعتزلة وغيرهم ؛ فقد اشترطوا لحصول الأمن في يوم القيامة السلامة من أنواع الظلم الثلاثة ؛ ولهذا قطعوا بخلود صاحب الكبيرة في النار .

٣- أن الأعمال مهما كثرت فإنها لا تكون بمجردها سببا للأمن من أهوال القيامة حتى يسلم صاحبها من الظلم الأكبر ؛ قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ الفرقان : ٢٣ ،

---

(١) كتاب التوحيد ، مع القول السديد ، ص (٢٢) .
(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ١٥٢ .



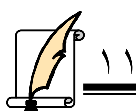
وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : (قلت يا رسول الله ! ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذاك نافعه ؟ قال : لا ينفعه ؛ إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين) .

٤- الأمن والاهتداء في الآية يتعلقان بالدنيا والآخرة ؛ فالموحد آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة ، وكذلك هو مهتد في الدنيا لشرع الله ؛ علما وعملا وثباتا ، ومهتد على الصراط المستقيم في الآخرة قال تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ الحج: ٥٤ .

الثاني : أن التوحيد يفضي بأهله إلى الجنة حتى مع التقصير في العمل ؛ روى البخاري بسنده عن عن عبادة بن الصامت ﷺ عن النبي ﷺ قال : (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل) ؛ فدل على الموحد لابد أن يدخل الجنة حتى لو قصر في العمل الصالح . وفي هذا الحديث مسائل وفوائد عظيمة ، منها :-

١- وعد الموحد بدخول الجنة لا يعارض نصوص الوعيد ؛ لأن الدخول قد يكون ابتداء أو بعد تعذيب ؛ فإن عفى الله عنه بحسنات ماحية أو شفاعة مقبولة أو مصائب مكفرة أو بمحض العفو الإلهي وإلا عذب بقدر ذنبه ثم يكون مآله الجنة ؛ روى مسلم بسنده عن أبي سعيد ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم ، أو قال بخطاياهم ، فأماتهم إماتة ، حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة ، فجيء بهم ضبائر ضبائر ، فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة ، أفيضوا عليهم فينبتون ؛ نبات الحبة تكون في حميل السيل) .

٢- أن النطق أصل في اعتبار الشهادة ؛ خلافا لمن زعم أن الإيمان القلبي كاف في تحقيق الإيمان ! وكذلك العلم واليقين والصدق ؛ لأن الشهادة لا تكون شهادة إلا بهذه القيود . وقد ورد التنصيص على هذه القيود بأعيانها في نصوص الشهادة ؛ روى مسلم بسنده عن عثمان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة) ، وروى بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله ؛ مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة) ، وروى البخاري بسنده عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ ومعاذ ﷺ رديفه على الرحل قال : يا معاذ بن جبل ! قال : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال يا معاذ ! قال : لبيك يا رسول الله وسعديك . ثلاثا . قال : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن



محمدا رسول الله ؛ صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار ! قال : يا رسول الله ، أفلا أخبر به الناس ، فيستبشروا ؟ قال : إذا يتكلوا . وأخبر بها معاذ عند موته ؛ تأثما) .

٣- الإله هو المعبود ؛ محبة وتعظيما وخوفا ورجاء ؛ وعلى هذا فكل دليل يدل على إثبات الألوهية لله وحده ونفيها عما سواه فإنه دليل على اعتبار هذه القيود في الشهادة ، والمحبة أعظم أعمال القلوب على الإطلاق ؛ لأنها أصل الأعمال كما أن التصديق أصل الأقوال . ومحبة الله يوجبها مشهدان ؛ الإنعام والإحسان ، وكمال الأسماء والصفات ؛ فالرب محبوب لإنعامه ومحبوب لكماله . وقد ورد في النصوص تقييد الشهادة بقيود أخرى يأتي تفصيلها إن شاء الله .

٤- بتحقيق هذه القيود ينجو المؤمن من طرق الضلالة ؛ فبالعلم ينجو من طريق النصارى ، وبالعمل ؛ قبولا وانقيادا ينجو من طريق اليهود ، وبالصدق واليقين ينجو من طريق المنافقين والمرتابين ، وبالإخلاص ينجو من طريق المشركين .

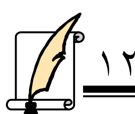
٥- أن التوحيد لابد فيه من نفي وإثبات ؛ فلا إله إلا الله نفت الإلهية عن كل ما سوى الله وإلا الله أثبتت الإلهية لله وحده . وهذان الأمران هما ركنا التوحيد ؛ ولهذا أكد الإثبات بقوله في حديث عبادة : (وحده) ، وأكد النفي بقوله : (لا شريك له) ؛ اهتماما بهذين الأصلين ، الذين لا يكون التوحيد إلا باجتماعهما .

٦- الشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة لابد فيها من نطق وعلم وصدق ويقين ؛ لأن الشهادة لا تكون شهادة إلا بهذه القيود . وهذا يقتضي طاعته ﷺ فيما أمر ، واجتناب ما نهى عنه وزجر ، وألا يعبد الله إلا بما شرع .

٧- في الشهادة لمحمد ﷺ وعيسى عليه السلام بالعبودية والرسالة رد على من أفرط فيهما أو فرط . فاليهود فرطوا في حق عيسى ؛ فكذبوه وسبوه وسعوا في قتله ونكلوا بأتباعه ، والنصارى أفرطوا في حقه حتى زعم بعضهم أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة !! وهكذا شأن سيد المرسلين ﷺ فقد كذبه اليهود والنصارى ، وأنكروا نبوته مع العلم بصدقه ؛ حسدا وبغيا ! وأفرط بعض هذه الأمة في حقه حتى زعم أنه يعلم مفاتيح الغيب الخمسة وأنه يجوز الاستغاثة به في كل ما يستغاث بالله !

٨- الإضافة في قوله ﷺ : (وروح منه) إضافة مخلوق إلى خالقه ؛ لتشريفه وبيان عظيم منزلته ، ولا حجة فيها على امتزاج اللاهوت بالناسوت كما يزعم النصارى ؛ فإن المضاف إلى الله إن كان عينا كانت الإضافة للتشريف وإن كان معنى كانت إضافة صفة إلى موصوف .

٩- الشهادة بحقية الجنة والنار تعني : الإيمان الجازم بوجودهما ، وبما في الجنة من نعيم للمؤمنين ،



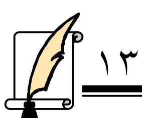
وبما في النار من عذاب للكافرين ، وبأنهما المآل الأبدي للخلق ؛ خلافا لمن أنكر حقيقة ثوابهما وزعم أنهما مجرد تخييل لاستصلاح العامة ، أو أنكر وجودهما الآن وزعم أنهما إنما يخلقان يوم القيامة ، أو أنكر أبديتهما ، وقال بفنائهما معا قطعا للتسلسل .

الثالث : أن التوحيد إذا كمل في القلب حرم صاحبه على النار ؛ ففي الصحيح من حديث عتبان ﷺ مرفوعا : (فإن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله) ؛ فالمخلص لا يدخل النار أبدا ؛ إما لأن الإخلاص إذا كان كاملا حمل صاحبه على ترك الكبائر ؛ فإنها من فروع الشرك بالمعنى العام ، والإخلاص يعني ترك الشرك بجميع صوره وأنواعه ، وإما لأن قوة إخلاصه تقابل السيئات مهما عظمت ؛ كما في قوله ﷺ : (إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا ، كل سجل مثل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيئا أظلمك كتبتي الحافظون فيقول : لا يا رب فيقول أفلك عذر فيقول لا يا رب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فيقول احضر وزنك فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فقال إنك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء) . رواه ابن ماجه وغيره بسند صحيح[1] . وفي حديث عتبان ﷺ مسائل نبه عليها المصنف وغيره من أهل العلم ، منها :-

١- إثبات صفة الوجه ، وقد اطرد إثباته في النصوص ، قال تعالى : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ الرحمن: ٢٧ ، وقال : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ الليل: ١٩ - ٢٠ ، وقال : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ الإنسان: ٩ ، وروى ابن ماجة بسند حسن[2] عن أبي وائل عن حذيفة ﷺ أنه رأى شبث بن ربعي بزق بين يديه فقال : (يا شبث لا تبزق بين يديك ؛ فإن رسول الله ﷺ كان ينهى عن ذلك ، وقال : إن الرجل إذا قام يصلي أقبل الله عليه بوجهه حتى ينقلب أو يحدث حدث سوء) ، وقد استعاذ النبي ﷺ بوجه الله تعالى في عدة مواضع ؛ روى أبو

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (١٣٥) .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (١٥٩٦) .



داود بسند صحيح[١] عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ : (كان يقول إذا دخل المسجد : أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم ، قال : فإذا قال ذلك قال الشيطان حفظ مني سائر ذلك اليوم) ؛ والاستعاذة لا تكون بمخلوق ، وفي هذا برهان على بطلان تفسير الوجه بالثواب والجزاء[٢] !!

٢- أن العمل لا ينفع صاحبه إلا إذا كان خالصا لله ، وكلما عظم الإخلاص كلما عظم نفع العمل وأثره وأجره ، ولهذا قال أهل العلم : إن الأعمال إنما تتفاضل بحقائقها لا بصورها .

٣- أن المراد بالشهادة ترك الشرك كله لا مجرد قولها باللسان ؛ كما يدل لذلك ماروا البخاري بسنده عن أنس بن مالك ﷺ قال : (ذكر لي أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل : من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة) ، وروى الترمذي بسند حسن[٣] عن أنس ﷺ مرفوعا : (قال الله تعالى : يا ابن آدم ! لو أنك أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة) ؛ ولهذا قال المؤلف : (إذا عرفت حديث أنس ﷺ عرفت أن قوله في حديث عتبان ﷺ : فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله أنه ترك الشرك ليس قولها باللسان)[٤] . وفي هذا دلالة على خطورة ما عليه كثير من المسلمين ؛ فإنهم يقولونها ثم يناقضون حقيقتها بشركيات كثيرة ؛ كشرك الدعاء والمحبة والطاعة والنية والإرادة والقصد .

الرابع : أن كلمة التوحيد أفضل الذكر ، وأفضل الدعاء ؛ فعن أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعا : (قال موسى عليه السلام : يا رب علمني شيئا أذكرك وأدعوك به ، قال : قل يا موسى لا إله إلا الله ! قال كل عبادك يقول هذا ! قال : يا موسى لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله) ؛ رواه الحاكم ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، وضعفه آخرون إسناده[٥] ، ولمعناه شواهد ؛ كحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : قال قال رسول الله ﷺ (إن نبي الله نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال

(١) صحيح الترغيب والترهيب ، ح (١٦٠٦) .
(٢) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ٣ / ٩٩٢ – ١٠٢٤ .
(٣) صحيح الجامع الصغير ، ح (٤٣٣٨) .
(٤) كتاب التوحيد مع القول السديد ، ص (٢٣) .
(٥) انظر : النهج السديد ، ص (٣١) .

لابنه : إني قاص عليك الوصية ؛ آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين ؛ آمرك بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله ! وسبحان الله وبحمده ؛ فإنها صلاة كل شيء ، وبها يرزق الخلق . وأنهاك عن الشرك والكبر قال قلت أو قيل : يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه ، فما الكبر ؟ قال : سفه الحق وغمص الناس) ، رواه البخاري في الأدب المفرد وغيره بإسناد صحيح[1] ؛ وكحديث طلحة بن عبيد : (أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له) ، رواه مالك بإسناد حسن[2] ، وحديث جابر ﷺ : (أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله) ، رواه الترمذي وغيره بسند حسن[3] ؛ ولهذا كانت كلمة التوحيد وسيلة في كثير من الأدعية ؛ كما في حديث سعد ﷺ : (دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له) ، رواه أحمد وغير بسند صحيح[4] ، وكحديث عبد الرحمن بن أبي بكرة أنه قال لأبيه : يا أبت ! إني أسمعك تدعو كل غداة : (اللهم عافني في بدني ، اللهم عافني في سمعي ، اللهم عافني في بصري ، لا إله إلا أنت ، تعيدها ثلاثاً حين تمسي ، وحين تصبح ثلاثاً ، وتقول : اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر ، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، لا إله إلا أنت . تعيدها ثلاثاً حين تمسي ، وحين تصبح ثلاثاً ؟ فقال : نعم ؛ يا بني ! سمعت رسول الله ﷺ يقول بهن . وأنا أحب أن أستن بسنته . قال: وقال رسول الله ﷺ : دعوات المكروب : اللهم رحمتك أرجو ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله ، لا إله إلا أنت) ، رواه البخاري في الأدب المفرد بإسناد حسن[5] ؛ فدل ذلك وغيرة على عظم شأن كلمة التوحيد في الذكر والدعاء ؛ وذلك لما اشتملت عليه من نفي الشرك وتوحيد الله تعالى الذي هو أفضل الأعمال وأساس الملة

---

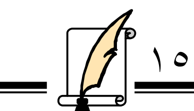
(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (١٣٤) .

(٢) صحيح الجامع الصغير ، ح (١١٠٢) .

(٣) صحيح الجامع الصغير ، ح (١١٠٤) .

(٤) صحيح الجامع الصغير ، ح (٣٣٨٣) .

(٥) صحيح الأدب المفرد ، (٥٤٢ ، ٧٠١) .



والدين . وفي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ مسائل ؛ منها :-

١- أن من سنة الله ورحمته أن ما اشتدت الحاجة إليه كان أكثر وجودا ؛ كالهواء والماء ، ولما كانت حاجة العباد لكلمة التوحيد في أعلى الدرجات كانت أكثر الأذكار وجودا ، وأيسرها حصولا ، وأعظمها أثرا ، وأفضلها أجرا !

٢- أن الذاكر بكلمة التوحيد يقولها كلها ولا يقتصر على لفظ الجلالة ، ولا على الضمير (هو) فإن ذلك بدعة ؛ لم يرد بها نص من كتاب أو سنة .

٣- في قوله : (لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري) دليل على صفة العلو ، وأن الله تعالى في السماء ، كما قال تعالى : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾ الملك: ١٦ ؛ والنصوص الدالة على العلو تزيد على الألف ؛ وهي كلها ترد على من أنكر علو الله ، وقال : إن الله لا داخل العالم و لا خارجة ، أو قال بالحلول أو وحدة الوجود ! تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا !

٤- في الحديث دلالة على إثبات صفة الكلام ؛ خلافا لمن أنكرها ، وزعم أن كلام الله من مخلوقاته لا من صفاته ، أو زعم أن اللفظ مخلوق لا يدخل في مسمى كلام الله تعالى ؛ وكلام الله تعالى مجرد المعنى ، واللفظ عبارة أو حكاية عن كلام الله !

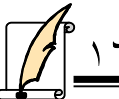
٥- أن العبرة بما في القلب من الإخلاص لا بمجرد النطق بكلمة التوحيد ؛ ولهذا تواترت الأحاديث بدخول كثير ممن يقول هذه الكلمة في النار ، وإلا فمن قالها بإخلاص تام فإنها تقابل جميع السيئات ؛ كما في حديث عتبان ﷺ وحديث البطاقة .

الخامس : أن إخلاص التوحيد يكفر الذنوب مهما كثرت ؛ فعن أنس بن مالك ﷺ قال (سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله : يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة) ؛ رواه الترمذي بسند حسن[1] . وفي الحديث مسائل : -

١- أن (شيئا) نكرة في سياق النفي فتفيد العموم ؛ فيدخل في هذا القيد الشرك بجميع أنواعه وصوره . وهذا يقتضي حرص المكلف التام على معرفة أنواع الشرك ؛ لئلا يقع في شيء منها وهو لا يعلم !

---

(١) صحيح الجامع الصغير ، ح (٤٣٣٨) .



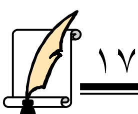
٢- في الحديث دلالة على معنى لا إله إلا الله وأنه يعني ترك الشرك لا مجرد قولها باللسان ؛ ولهذا قال المؤلف : (إذا عرفت حديث أنس ﷺ عرفت أن قوله في حديث عتبان ﷺ : فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله أنه ترك الشرك ليس قولها باللسان)[١] .

٣- في الحديث دلالة على أن الموحد إذا لقي الله على كبيرة فإن المغفرة ترجى له وبخاصة إذا كان مخلصا في توحيده ، وكلما عظم إخلاصه كلما كان أدنى إلى المغفرة من العقوبة ! وفي هذا رد على الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم في الزعم بأن من لقي الله على كبيرة فإنه يخلد في النار ولا يخرج منها بشفاعة ولا مغفرة ولا حسنات معارضه[٢] .

******

(١) كتاب التوحيد مع القول السديد ، ص (٢٣) .

(٢) أهم مراجع هذا الباب ؛ قرة عيون الموحدين ، ص (٢٢ - ٣٤) ، حاشية ابن قاسم ، ص (٢٣ - ٣٦) ، الدر النضيد ، ص (٢٢ - ٣٤) ، القول المفيد ١ / ٥٥ — ٨٥ .



من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

تمهيـــــــــــد

١- هذا الباب أخص من باب (فضل التوحيد) ؛ فالباب السابق لذكر فضائل التوحيد عموما ، وهذا الباب مختص بفضيلة واحدة لا تكون إلا لأعلى الموحدين درجة ؛ وهي دخول الجنـــة بـــلا حساب ولا عذاب .

٢- تحقيق التوحيد قدر زائد على ماهيته ؛ وهو كمال الإخلاص في الأقوال والأفعال ، وانجذاب القلب إلى الله حتى لا يبقى فيه تعلق بغير الله تعالى . وقد ذكر بعض الشراح أن المـــراد بتحقيقـــه تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والإصرار على المعصية . ويبـــدو أن هـــذا تعريـــف بمقتضاه ، أوبأهم آثاره ، والله أعلم .

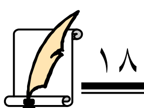
٣- جزم المؤلف بالشهادة بالجنة لمن حقق التوحيد ؛ لأنها شهادة بالوصـــف ، وأمـــا الشـــهادة بالشخص فلا تجوز إلا لمن شهد له النبي ﷺ بعينه على المشهور . وتجوز بالاستفاضة عند بعـــض أهل السنة ؛ لما رواه مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (مر بجنازة فأثني عليهـــا خـــيرا فقال نبي الله ﷺ : وجبت وجبت وجبت . ومر بجنازة فأثني عليها شرا فقال : نبي الله ﷺ وجبت وجبت وجبت . قال عمر رضي الله عنه فدى لك أبي وأمي ، مر بجنازة فأثني عليها خير فقلـــت وجبـــت وجبت وجبت ، ومر بجنازة فأثني عليها شر فقلت وجبت وجبت وجبت ؟ فقال : رسول الله ﷺ من أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة ، ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار ؛ أنتم شـــهداء الله في الأرض ، أنتم شهداء الله في الأرض ، أنتم شهداء الله في الأرض) .

الشرح التفصيـــــــلي

ذكر المؤلف في هذا الباب الصفات التي تدل على تحقيق التوحيد بثلاث طرق :-

الأولى : ذكر صفات إمام الموحدين ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ﴾النحل: ١٢٠ – ١٢١ ؛ فوصف خليله عليه السلام بخمس صفات هي الغايـــة في تحقيـــق التوحيد ؛ وهي :-

١- أنه كان أمة ؛ أي قدوة وإماما ومعلما للخير ؛ وذلك لتكميله مقام الصبر واليقين ، اللـــذين تنال بهما الإمامة في الدين ؛ قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) ﴾ السجدة: ٢٤ .



٢- القنوت ؛ أي دوام الطاعة ؛ فكان ﷺ يديم الطاعة في كل حال ، وهكذا كان النبي ﷺ مطيعا ذاكرا في كل أحيانه .

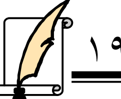
٣- أنه كان حنيفا ؛ أي مقبلا على الله معرضا عن كل ماسواه ، كما قال تعالى عن خليله ﷺ : ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ الأنعام: ٧٩ .

٤- و لم يك من المشركين ؛ أي فارقهم بالقلب واللسان والبدن ، فبرأه الله تعالى من جميع المشركين كما برأه من اليهودية والنصرانية ؛ خلافا لمن ادعاه من أهل هذه الملل ، أو افترى على الله وزعم أنه منهم ؛ قال تعالى : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ آل عمران: ٦٧ ؛ وفي هاتين الآيتين دلالة قاطعة ؛ الأولى بالنص الصريح ، والثانية بمفهوم الموافقة على براءته من المجوسية والهندوسية خلافا لما يردده بعض من يكتب في الأديان ؛ ويزعم أنه زردشت وأن كتابه الأبستاق ، أو أنه براهما وكتابه الفيدا !! ولو فكر هذا القائل في هذه الآية لوجدها صريحة في تكذيب قوله ، وإبطال زعمه ! ولو نظر فيما نقل من الفيدا والأبستاق لوجدها مناقضة لكتب الأنبياء في أصولها ومقاصدها ! مما يحيل أن تكون هذه الكتب مأثورة عن نبي من الأنبياء فضلا عن أن تكون من كتب إمام الحنفاء !

٥- شكر النعم ؛ فقد كان الخليل ﷺ شاكرا لأنعم ربه بقلبه ولسانه وعمله ؛ وهي أركان الشكر الثلاثة ؛ فقد ذكر أهل العلم أن الشكر مبني على ثلاثة أركان ؛ الاقرار بالنعمة ، وإضافتها إلى المنعم سبحانه ، وصرفها في مرضاة الله تعالى والعمل فيها بما يحبه سبحانه . وقد كافأه الله على الخمس بخمس : ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ النحل: ١٢١ - ١٢٣ ؛ وآخر الخمس أمر سيد المرسلين ﷺ باتباع ملته ؛ وأمر النبي ﷺ أمر لأمته ؛ وهو ما أمرنا الله به نصا في قوله تعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ الممتحنة: ٤ .

الثانية : ذكر صفات السابقين من المؤمنين ؛ قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ المؤمنون: ٥٧ - ٦١ ؛ فوصف المؤمنين السابقين إلى الخيرات والجنات بأربع صفات ؛ هي : -

١- إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ؛ أي خائفون وجلون من مكر الله وعذابه ؛ ولهذا



كان الخوف سيما سادات الأولياء من هذه الأمة ؛ فتميم الداري ﷺ قام ليلة حتى أصبح أو كاد يقرأ آية ويرددهـا ويبكـي ؛ ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الجاثية: ٢١ ! ولما حضرت أبا هريرة ﷺ الوفاة بكى ، فقيل له : ما يبكيك قال : بعد المفازة وقلة الزاد وعقبة كؤود المهبط منها إلى الجنة أو النار)[١] .

٢- والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ؛ أي يؤمنون بآياته الشرعية والكونية ؛ وليس المراد التصديق بوجودها فقط بل المراد التصديق بكونها دلائل وأن مدلولها حق ؛ فإن كانت آياته التنزيلية أمـرا امتثلوه ، أو نهيا اجتنبوه ، أوخبرا صدقوه . وكلما ظهرت لهم آية كونية في الأنفـس أوالآفـاق زادتهم إيمانا مع إيمانهم ؛ ولهذا عبر بالمضارع الدال على الاستمرار .

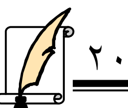
٣- والذين هم بآيات ربهم لا يشركون ؛ أي لا يشركون شركا جليا ولا خفيا ولا ظـاهرا ولا باطنا ولا أكبر ولا أصغر ؛ فأعمالهم الصالحة طبعت بطابع الإخلاص ؛ وهو السلامة من الشـرك بجميع أنواعه . وقد ذكر بعض الشراح أن المراد نفي الشرك بمعناه الأعـم ؛ فتـدخل المعاصـي والبدع ؛ لأنها صادرة عن هوى مخالف للشرع ؛ فلابد في تحقيق التوحيد من السلامة من الإصرار على المعاصي والبدع ؛ ولهذا قال العلماء إن تحقيق التوحيد يعني : تخليصه من الشـرك والبـدع والمعاصي .

٤- والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ؛ أي يتقربون إلى الله بالصـدقات والطاعات وهم خائفون ألا تقبل منهم ؛ لعلمهم بأن المرجع إلى الله ؛ وهو المجـازي والمحاسـب الذي لا يخفى عليه شيء مما خالط العمل ؛ روى ابن ماجه بسند صحيح[٢] عن عائشة رضـي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت : (سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية والذين يؤتون ما آتوا وقلـوبهم وجلة قالت عائشة أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : لا يا بنت الصـديق ، ولكنـهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ، وهم يخافون أن لا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ؛ ولهذا قال الحسن (المؤمن جمع إحسانا وخشية والمنافق جمع إسـاءة

---

(١) انظر : صفة الصفوة ١ / ٦٩٤ ، ٧٣٨ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٢٥٣٧) .



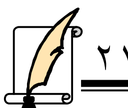
وأمنا)[١] .

الثالثة : ذكر النص الصريح في أسباب هذا الوعد المعين ؛ فعن حصين بن عبد الرحمن قال كنت عند سعيد بن جبير فقال : (أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟ قلت : أنا . ثم قلت : أما إني لم أكن في صلاة ولكني لدغت . قال : فماذا صنعت ؟ قلت : استرقيت . قال : فما حملك على ذلك ؟ قلت : حديث حدثناه الشعبي . فقال : وما حدثكم الشعبي ؟ قلت : حدثنا عن بريدة بن حصيب الأسلمي ﷺ أنه قال : لا رقية إلا من عين أو حمة . فقال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال : عرضت علي الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرهيط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي ليس معه أحد ، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أهم أمتي فقيل لي : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقيل لي : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب . ثم نهض فدخل مترله . فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ . وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام و لم يشركوا بالله . وذكروا أشياء . فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : ما الذي تخوضون فيه ؟ فأخبروه . فقال : هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى رهم يتوكلون ، فقام عكاشة بن محصن ﷺ فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . فقال : أنت منهم . ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . فقال سبقك ها عكاشة) ؛ ففي هذا الحديث المخرج في الصحيح وصف النبي ﷺ أهل الوعد بدخول الجنة بغير حساب ولا عذاب بأربع صفات : -

١- لا يسترقون : أي لا يطلبون من غيرهم أن يرقيهم توكلا على الله تعالى ؛ لأن سؤال المخلوق يؤثر على كمال التوكل ؛ ولهذا بايع النبي ﷺ بعض أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئا . واستشكل على هذا بقوله في الحديث (لا يرقون) ؛ وأجاب شيخ الإسلام بأن هذه اللفظة وهم من الراوي ، وفرق بين الراقي والمسترقي بأن الراقي محسن والمسترقي سائل ملتفت إلى غير الله بقلبه ؛ فتكون الكراهة خاصة بالمسترقي دون الراقي . واستشكل على ذلك أيضا بأن النبي ﷺ أمر

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، ص (٣٢٥) .



أن يسترقى من العين ، وحاشاه أن يأمر بمكروه أو مفضول ؛ ولهذا حمل ابن رجب وغيره الحديث على الرقى الشركية ؛ فما كان شركا أو احتمله فهو المؤثر في التوكل دون غيره[١] ؛ ويؤيده ما رواه مسلم بسنده عن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ قال : (كنا نرقي في الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله كيف ترى في ذلك ؟ فقال : اعرضوا علي رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك) .

٢- ولا يكتوون ؛ أي يتركون الكي توكلا على الله تعالى ؛ وقد ورد في كراهة الكي أحاديث كثيرة ؛ كحديث : (من اكتوى أو استرقى فقد برئ من التوكل) ، رواه أحمد وغيره بسند صحيح[٢] . والظاهر أن كراهته ليست مطلقة وإنما هي مقيدة بحالات معينة ؛ كالكي قبل البلاء ، والكي الذي يقترن به ركون القلب واعتماده على السبب ، وكالكي في الموضع المخوف ، ولهذا تركت الملائكة السلام على عمران بن حصين حين اكتوى من الباسور حتى ترك الكي . أما إذا تعين الكي طريق للشفاء ؛ وصاحبه اعتماد قلبي صادق على الله في حصول الشفاء فإنه لا يؤثر في التوكل ؛ ولهذا كوى النبي ﷺ سعد بن معاذ ، وكوى سعد بن زرارة من الشوكة ، وبعث إلى أبي بن كعب طبيبا فقطع منه عرقا ثم كواه عليه ، واكتوى ابن عمر من اللقوة ، وكوى أبو طلحة أنس بن مالك من ذات الجنب .

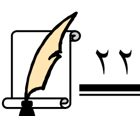
٣- ولا يتطيرون ؛ أي لا يتشاءمون بمرئي ولا مسموع ولا غيره ؛ كالأسماء والألفاظ والبقاع والأيام والشهور . والمراد بذلك الانقباض القلبي الذي يستتبع عملا بموجبه من إمضاء أو رد ، أما مجرد الانقباض القلبي فلا يدخل في حد الطيرة المنهي عنها ؛ لأنه انفعال ، ولا تكليف إلا بفعل ؛ ولهذا جاء في حديث ابن مسعود ﷺ (الطيرة شرك ، الطيرة شرك ، ومنا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل) ، رواه الترمذي وغيره بسند صحيح[٣] . وقوله : وما منا إلى آخره من كلام ابن مسعود ﷺ . وهل تحريم الطيرة عام في كل شيء أو يستثنى من ذلك أعيان معينة ؛ كالمرأة والفرس والدار ؛ في المسألة خلاف يأتي بإذن الله تفصيله في موضوع التطير .

---

(١) انظر : جامع العلوم والحكم ، ص (٤١١) ، فتح الباري ١٠ / ٢١١ ، ١١ / ٤١٠ .

(٢) صحيح الجامع الصغير ، ح (٦٠٨١) .

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ص (٤٢٩) .



٤- وعلى ربهم يتوكلون ؛ التوكل صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار ؛ (وقوة التوكل على الله تعالى من أخص الصفات الدالة على كمال تحقيق التوحيد ؛ بحيث لا يلتفت القلب إلى المخلوقين في شأن من شؤونه ، ولا يستشرف إليهم بقلبه ولا يسألهم بلسان حاله أو مقاله)[1] ؛ فالتوكل هو الحامل على ترك هذه الأسباب المكروهة ؛ وهي الاسترقاء والاكتواء والمحرمة وهي التطير . أما مباشرة الأسباب المباحة والتداوي على وجه مشروع فغير قادح في التوكل ؛ لقوله ﷺ : (ياعباد الله تداووا ؛ فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء ، غير داء واحد ؛ الهرم) ، رواه أحمد وغيره بسند صحيح[2] . اللهم إلا أن يقارن التداوي اعتماد قلبي على المخلوق في حصول الشفاء ، أو يعتقد أن الدواء سبب حتمي لحصول الشفاء ؛ كما يلمس على كثير من المرضى ، وإن لم يصرحوا بذلك . وأخيرا فإن في حديث الباب فوائد نبه على أكثرها المؤلف والشراح منها : -

١- فضيلة علم السلف ، وأن ما يرونه من انقضاض الكواكب ، ونحو ذلك ، لا يعدونه عادة ، بل آية من آيات الله .

٢- حرص السلف على الإخلاص وشدة توقيهم للرياء ؛ ولهذا نفى حصين عن نفسه توهم القيام للعبادة بقوله : أما إني لم أكن في صلاة ، ولكني لدغت .

٣- في قوله : فما حملك على ذلك ؟ دليل على طلب الحجة على صحة المذهب .

٤- في قوله : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع دلالة على حسن أدب السلف ، وتلطفهم في تبليغ العلم .

٥- في قوله : لا رقية إلا من عين أوحمة دلالة على قوة تأثير الرقية في علاج الإصابة بالعين ولدغ ذوات السموم ؛ ولهذا خصها بالذكر ؛ وإن كانت جائزة من غيرهما من الأمراض .

٦- عمق علم السلف ؛ لعلم سعيد بن جبير بأن الحديث الأول لايعارض الثاني ؛ فالأول محمول على الجواز والثاني على الأفضلية ، أو أن الأول في الرقية والثاني في الاسترقاء .

٧- في قوله ﷺ : (عرضت علي الأمم ؛ فرأيت النبي ومعه الرهيط ، والنبي ومعه الرجل

---

(١) القول السديد ، ص (٢٧) بتصرف يسير .

(٢) صحيح الجامع الصغير ، ح (٧٩٣٤) .

والرجلان والنبي ليس معه أحد) دلالة على قلة أتباع الرسل ؛ فينبغي للعاقل ألا يغتر بالكثرة ويزهد في القلة ؛ فأكثر الناس كما قال رب الناس : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ الأعراف: ١٠٢ ، وقال : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ الروم: ٤٢ .

٨- في قوله ﷺ : (عرضت علي الأمم) دلالة على فضل النبي ﷺ ، وقد كان ذلك العرض ليلة الإسراء ؛ لحديث : (لما أسري بالنبي جعل يمر بالنبي والنبيين ومعهم القوم والنبي والنبيين ومعهم الرهط والنبي والنبيين وليس معهم أحد ... الحديث) رواه الترمذي بسند صحيح .

٩- فضيلة أتباع موسى عليه السلام وكثرتهم ؛ فهم أكثر الأمم تابعا بعد أمة محمد ﷺ .

١٠- فضيلة هذه الأمة وأنهم أكثر الأمم إيمانا وعددا ؛ ولهذا قال المؤلف : (فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية)[1] ؛ أي في العدد والصفات .

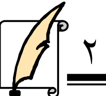
١١- كثرة من يدخل الجنة من أمة محمد ﷺ بغير حساب ولا عذاب ؛ فقد دل حديث الباب على أنهم سبعون ألفا ، وورد في رواية عند الإمام أحمد وغيره بإسناده جيد[2] (فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألفا) .

١٢- في قوله : (ادع الله أن يجعلني منهم) مشروعية طلب الدعاء من أهل الفضل والصلاح ، وذلك مختص بحياتهم أما بعد مماتهم فشرك وتنديد ؛ قال عبدالرحمن بن حسن : (فيه أن شفاعة الحي لمن سأله الدعاء إنما كانت بدعائه وبعد الموت قد تعذر ذلك فمن سأل ميتا أوغائبا فقد سأله مالا يقدر عليه ، ومن سأل أحدا مالا يقدر عليه إلا الله فقد جعله ندا لله)[3]. وفيها أيضا دلالة على أن النبي ﷺ لا يملك لأحد ضرا ولا نفعا ؛ ولهذا دعا ربه المتفرد بجلب المنافع ودفع المضار أن يجعل عكاشة رضي الله عنه منهم . فأجابه ربه كرامة له ؛ ولما علمه سبحانه من صدق هذا الصحابي ، وعلو درجتة في مقامات الإيمان .

١٣- في قوله (أنت منهم) دلالة على إجابة دعوة النبي ﷺ ، والظاهر أن هذا الخبر كان بعد

---

(١) كتاب التوحيد ، مع القول السديد ، ص (٢٧) .
(٢) انظر : تيسير العزيز الحميد ، ص (١٠٧) .
(٣) قرة عيون الموحدين ، ص (٤٢) باختصار يسير .

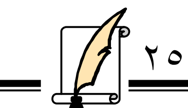


دعائه ﷺ كما في رواية البخاري : (اللهم اجعله منهم) . وفيها أيضا آية على صدق نبوتـــه ؛ فقد ظل هذا الصحابي رضي الله عنه على قوة إيمانه حتى قتل شهيدا في حروب الردة بيد طليحة الأسدي ، الذي تاب بعد ذلك ، وجاهد الفرس في القادسية وغيرها ، حتى استشهد في موقعة الجسر .

١٤- في قوله : (سبقك بها عكاشة) دلالة على مشروعية سد الذرائع ، وعلى جواز اســـتعمال المعاريض[1] .

******

(١) أهم مراجع هذا الباب : تفسير القرطبي ١٢ / ١٣٢ - ١٣٤ ، تفسير ابن كثير ٣ / ٢٤٨ ، فتح القدير ٣ / ٤٨٨ - ٤٩٢ ، فتح المجيد ، ص ٧٠ - ٨٣ ، قرة عيون الموحدين ، ص ٣٥ - ٤٣ ، حاشية ابن قاسم ، ص ٣٧ - ٤٨ ، الدر النضيد ، ص ٣٤ - ٤٣ ، القول السديد ، ص ٢٥ - ٢٩ ، القول المفيد ١ / ٨٥ - ١٠٩ ، الوعد الأخروي ٢ / ٨٣٥ - ٨٤٩ .



الخوف من الشرك

تمهيـــــــــد

١- لما ذكر المؤلف أهمية التوحيد وآثاره الحميدة وفضل تحقيقه أتبع ذلك بالتحذير من الشـــرك ؛ لأن اجتناب الشرك داخل في حقيقة التوحيد ؛ فالتوحيد لابد فيه من نفي وإثبات ؛ والنفي يعــني البراءة من الشرك وأهله .

٢- الخوف من الشرك من سنة الأنبياء والأولياء ؛ ومقتضى هذا الخوف من الناحيــة الإيمانيــة الحرص على تنمية الإخلاص في القلب ؛ لأنه يدفع الشرك بطبيعته ، وكذلك التعوذ الدائم مــن الشرك ، وسؤال العافية منه بتضرع وصدق ، وبخاصة في أو قات الإجابة .

وأما من الناحية العلمية فلا بد من الاهتمام بدراسة الشرك ، ومعرفة أنواعه ووسائله ومظــاهره ؛ لئلا يقع المرء في شيء منها ، وهو يحسب أنه يحسن صنعا !

٣- أهمل كثير من المسلمين دراسة الشرك في العبادة ، ونتج عن ذلك وقوع كثير منهم في شرك هذا الشرك وهم لايعلمون ، وزاد الأمر سوأ زعم بعض العلماء أن الشرك مخــتص بالربوبيــة ، وتوسع بعض أدعياء الولاية في دعاوى الكرامات ؛ حتى زعموا أن من الأولياء من يتصــرف في العالم ، ويدبر شئونه !

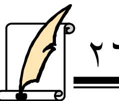
وجوب الخوف من الشرك

الخوف من الشرك من أهم الواجبات الشرعية ، التي دلت عليها النصوص الشرعية بطرق جليــة ومتنوعة ؛ فمن ذلك :-

أولا : أن من لقي الله على الشرك فلا رجاء له في المغفرة ؛ قال تعــالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾النساء: ٤٨ ؛ فخص الشرك بعدم المغفرة وعلق مادونه على المشيئة ؛ فعلم أن الآية في حق من لقي الله مشركا ؛ لأن التائب لافرق في حقه بين الشرك وغيره ؛ قال تعــــالى : ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ الزمــر: ٥٣ . ويتعلق بهذا الأصل مسائل ؛ منها :-

١- في تخصيص الشرك بعدم المغفرة دلالة على أنه أعظم الذنوب ؛ ولهذا رتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتب على ذنب سواه ؛ وهذا يقتضي شدة الخوف منه .

٢- خص الشرك بعدم المغفرة لحكم كثيرة ؛ كاشتماله على تشبيه المخلوق بالخالق في خصائص



الألوهية ، وكمنافاة الشرك لمقصود الخلق والأمر ؛ وهو معرفة الله وعبادته وحده ؛ وهو المقصد الذي لاصلاح للعالم بدونه ؛ فمتى خلا منه خرب ، وقامت القيامة ؛ روى مسلم بسنده عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله) ؛ يفسره ما وقع عند الإمام أحمد بإسناد قوي[1] : (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض لا إله إلا الله) ، أو أن المراد حتى لا يذكر اسم الله ولا يعبد[2] .

٣- في الآية رد على الوعيدية الذين قطعوا بإنفاذ وعيد كل من لقي الله على كبيرة ؛ فالآية قاطعة في أن مادون الشرك تحت المشيئة ؛ وكذلك الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ ؛ روى مسلم بسنده عن ابن مسعود ﷺ قال : (لما أسري برسول الله ﷺ انتهي به إلى سدرة المنتهى ... الحديث ؛ وفيه : فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثا ؛ أعطي الصلوات الخمس ؛ وأعطي خواتيم سورة البقرة ؛ وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئا المقحمات) .

ثانيا : أن الأنبياء خافوا الشرك ، وخوفوا منه ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ إبراهيم: ٣٥ - ٣٦ ؛ وهكذا كان النبي ﷺ على سنة الخليل عليه السلام ؛ روى الإمام أحمد وغيره بسند صحيح[3] عن شهر بن حوشب قال : (قلت لأم سلمة يا أم المؤمنين ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك ؟ قالت : كان أكثر دعائه يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك . قالت فقلت له : يا رسول الله ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ! قال : يا أم سلمة ، ما من آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل ، ما شاء أقام وما شاء أزاغ) ، وروى أيضا بسند صحيح[4] عن محمود بن لبيد ﷺ مرفوعا : (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ؛ الرياء ، يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء !) . ويتعلق بهذا الطريق مسائل ؛ منها : -

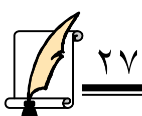
---

(١) انظر : فتح الباري ١٣ / ٨٥ .

(٢) انظر : تحفة الأحوذي ٦ / ٤٥١ .

(٣) صحيح الجامع الصغير ، ح (٤٨٠١) .

(٤) صحيح الجامع الصغير ، ح (١٥٥٥) .



١- أن من سنة الرسل عليهم السلام خوف الشرك والتخويف منه ؛ وهذا ما فهمه السلف الصالح فساروا على هذه السنة ؛ قال إبراهيم التيمي : من يأمن البلاء بعد إبراهيم ! وقال : ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبا ! وقال ابن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ، ما منهم أحد يقول : إنه على إيمان جبريل وميكائيل ! ويذكر عن الحسن : ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق[1] .

٢- خطورة الرياء ؛ فإذا كان النبي ﷺ يخافه على أصحابه الذين شاهدوا التنزيل ، وعرفوا الحق ، وهاجروا وجاهدوا فكيف لا يخاف الشرك الأصغر وما فوقه على من لا يدانيهم في علم ولا عمل !

٣- دعاء الخليل عليه السلام معلل بكثرة الافتتان بعبادة الأصنام (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ) ؛ وهذا يحقق وجوب الخوف من الشرك ؛ لكثرة من ضل في توحيد العبادة .

٤- رأى بعض أهل العلم أن في قوله تعالى : (وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) دلالة على جواز غفران الشرك ؛ وهي تعارض قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ) ؛ ولهذا تنوعت طرقهم في الجمع بين الدليلين المتعارضين ظاهرا ؛ فقيل : إن هذا كان جائزا في شرع من قبلنا خلافا لشرعنا ! وهو جواب غريب ؛ لاتفاق الشرائع على أصول العقائد . وقيل : إن العصيان مقيد بما دون الشرك ! وهو خلاف الظاهر ؛ فظاهر الآية يدل على أن المراد من تبعني على التوحيد ومن عصاني فأصر على الشرك . وقيل : إن المراد التوفيق للتوبة ، أو أن المراد عدم المعاجلة بعذاب الدنيا ، أو أن هذا قبل أن يعلمه الله بأن الشرك لا يغفر . وذكر ابن كثير وغيره أن الآية ليس فيها أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى لاتجويز وقوع ذلك ؛ كما قال عيسى عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ المائدة: ١١٨ ؛ وقد بين الله تعالى فيما أنزل من المحكمات أنه لايغفر لمن لقيه مشركا ؛ والواجب اتباع المحكم دون المتشابه[2] .

ثالثا : أن من لقي الله تعالى على الشرك فالنار مصيره الأبدي ولو عمل من الخير ماعمل ؛ روى البخاري بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ كلمة وقلت أخرى قال النبي ﷺ : (من

---

(١) انظر : فتح الباري ١ / ١٠٩ ، فتح المجيد ، ص (٨٦) .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٢ / ٥٤٠ ، فتح القدير ٣ / ١١٢ ، روح المعاني ١٣ / ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

مات وهو يدعو من دون الله ندا دخل النار . وقلت أنا : من مات وهو لا يدعو لله ندا دخل الجنة) ، وروى مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ومن لقيه يشرك به دخل النار) . ويتعلق بهذا الأصل مسائل ؛ منها : –

١– دخول المشرك في النار على عمومه ؛ لا فرق بين الكافر الأصلي والمرتد ، ولا الكتابي والوثني ؛ روى مسلم بسنده عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت و لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار) .

٢– دخول المشرك في النار أبدي ، لا خروج معه بشفاعة أو عفو ؛ قال تعالى : ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ غافر: ١٨ ، وقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ﴾ النساء: ٤٨ . وقد نص الله تعالى على خلودهم الأبدي في ثلاثة مواضع من كتابه ؛ قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ النساء: ١٦٨ - ١٦٩ ، وقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ الأحزاب: ٦٤ - ٦٥ ، وقال : ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ الجن: ٢٣ .

٣– من لقي الله مشركا فلا قيمة لعمله الصالح ولو كثر ؛ قال تعالى : ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ الفرقان: ٢٣ ، روى مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت (قلت : يا رسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافعه ؟ قال : لا ينفعه ؛ إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين) .

٤– في تعليق دخول الجنة والنجاة من النار على شرط السلامة من الشرك بيان وتفسير لقوله ﷺ : (ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار) ، وأن المراد بذلك ترك الشرك لا مجرد قولها باللسان ، كما توهم كثير من الناس .

٥– وفي هذا التعليق أيضا دليل على فضل السلامة من الشرك ؛ فمن لقي الله سالما من الشرك فمآله الجنة ولو عمل من الكبائر ماعمل ؛ روى مسلم بسنده عن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : (أتاني جبريل عليه السلام فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة . قلت وإن زنى وإن سرق ! قال : وإن زنى وإن سرق) ، قال النووي : (أما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به ، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصرا عليها دخل

الجنة أولا ، وإن كان صاحب كبيرة مات مصرا عليها فهو تحت المشيئة ، فإن عفي عنه دخل أولا وإلا عذب ، ثم أخرج من النار ، وخلد في الجنة . والله أعلم)[١] .

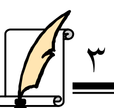
٦- أهل السنة والجماعة وإن قالوا بالعفو عن صاحب الكبيرة إلا أنهم يقطعون بأن المغفرة إنما تقع لبعض منهم دون بعض ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾النساء: ٤٨ ؛ فأخبر أن مغفرته تقع لبعض دون بعض ؛ ولقوله ﷺ : (أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم أو قال بخطاياهم فأماتهم إماتة ، حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة ، فجيء بهم ضبائر ضبائر ، فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم ، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل) رواه مسلم . وله نظائر كثيرة ، تدل على إنفاذ الوعيد في بعض أصحاب الكبائر ؛ ولهذا كان تجويز العفو عن جميع أصحاب الكبائر من أقوال المرجئة لا من أقوال السلف[٢] . والله أعلم[٣] .

****

(١) شرح صحيح مسلم ٢ / ٩٧ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ٧ / ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ١١ / ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٣) أهم مراجع الباب : تيسير العزيز الحميد ، ص (١١٤- ١٢٢) ، فتح المجيد ، ص (٨٣ - ٩١) ، حاشية ابن قاسم ، ص (٤٨ - ٥٤) .



الدعــوة إلى التوحيــد

الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك من أهم المهمات ؛ فمن كمل نفسه بالتوحيد لا بــد أن يسعى في تكميل غيره ؛ حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، ويمكن بيان الأهمية البالغــة لهذه الدعوة من عدة جهات : –

الأولى : أن الدعوة لتوحيد العبادة هي دعوة جميع المرسلين ؛ قال تعــالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾النحل: ٣٦ ، وقــال : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[1] الأعراف: ٥٩ ، وقال : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ العنكبوت: ١٦ ، وقــــال : ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ المائدة: ٧٢ . وقد كانت استجابة أممهم متفاوتة ؛ فمنهم من استجاب له الفئام من الناس ، ومنهم من استجاب له الآحاد ، ومنهم من لم يستجب له أحد ! ؛ روى مسلم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قـــــال : (عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي ليس معه أحد ، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أهم أمتي فقيل لي هذا موسى عليه السلام وقومه) .

الثانية : أن الدعــوة إلى توحيد العبــادة هي سبيل سيد المرسلين ﷺ ، وسبيل أتباعه ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ يوسف: ١٠٨ . ويتعلق بهذه الآية الكريمة أمور مهمة في دعوة التوحيد ؛ منها :–

١– في قوله تعالى : (أَدْعُو إِلَى اللَّهِ) تنبيه على شرط الإخلاص في الدعوة إلى الله ؛ وأن يكــون هدف الداعية إيصال الحق للخلق ؛ ابتغاء وجه الله تعالى .

٢– في قوله تعالى : (عَلَىٰ بَصِيرَةٍ) مدح وتحريض واشتراط للعلم في الدعوة ؛ وهو يشمل العلــم بأحكام الله ؛ ليوافق الشرع في أمره ونهيه ، ويشمل العلم بحال المدعوين ؛ ليدعو كــل واحــد منهم بما يناسبه من ترغيب أو ترهيب أو تأليف أو جدال ؛ قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ النحل: ١٢٥

(١) ذكر الله مثل ذلك عن هود وصالح وشعيب عليهم السلام ، سورة الأعراف : ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ .

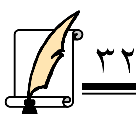
؛ فطالب الحق من المدعوين يدعى بالحكمة ، والمشتغل بالباطل يدعى بالموعظة ؛ ترغيبا وترهيبا ، والمعاند والمعارض يجادل بالتي هي أحسن إلا من ظلم وحارب فيجالد ويقاتل بما يردعه ويمنعه ؛ قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ الحديد: ٢٥ .

٣- في قوله تعالى : (وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ) دليل على أن الداعية وإن كان حريصا على إيصال الحق إلى الخلق بالسبل الشرعية المناسبة لحال من يدعو من الخلق إلا أن الهداية بيد الخالق وحده فهو أعلم بمواقع فضله ومواقع عدله﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾ البقرة: ١٠٥ .

الثالثة : أن الدعوة إلى توحيد العبادة هي أول مايبدأ به في الدعوة إلى الله تعالى ؛ روى مسلم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذا إلى اليمن قال : (إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل ، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم) . ويتعلق بهذا الحديث مسائل ؛ منها :-

١- في طرق هذا الحديث دلالة على تفسير الشهادة بتوحيد العبادة ؛ فقد وقع عند مسلم بلفظ (بعثني رسول الله ﷺ قال إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله) ، ووقع عند البخاري بلفظ (فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى) ، ووقع عند مسلم بلفظ (فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل) ؛ فعلم من مجموع هذه الروايات أن المراد بالدعوة إلى الشهادة الدعوة إلى توحيد العبادة لا إلى مجرد قولها باللسان ، ولا إلى مجرد إفراد الله تعالى بمعاني الربوبية دون أن يتبع ذلك بموجبه ولازمه من إفراد الله بالعبادة ظاهرا وباطنا .

٢- في الحديث دلالة على أن توحيد العبادة أول واجب ، وفي هذا رد على من زعم أن أول واجب هو النظر في أدلة وجود الله تعالى ، أو القصد إلى هذا النظر . يحقق هذا أن معرفة الله فطرية ، لا تحتاج إلى تكلف المتكلمين والفلاسفة وأشباههم ؛ قال تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إبراهيم: ١٠ ؛ قال ابن كثير : (هذا يحتمل شيئين ، أحدهما : أفي وجوده شك ، فإن الفطر شاهدة بوجوده ، ومجبولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب ، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى



وجوده ؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه فاطر السموات والأرض الـــذي خلقها وابتدعها على غير مثال سبق ، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليها ، فلا بد لها من صانع ، وهو الله لا إله إلا هو ، خالق كل شيء وإلهه ومليكه .

والمعنى الثاني في قولهم : أفي الله شك ؛ أي أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك ، وهو الخالق لجميع الموجودات ، ولا يستحق العبادة إلا هو ، وحده لا شريك له ؛ فإن غالـــب الأمـــــــم كانت مقرة بالصانع ، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم مـــن الله زلفى)[1] .

٣- مشروعية بعث الدعاة إلى الله تعالى ، وينبغي أن تراعى الحكمة في ذلك ، فيبعث لكل قـــوم من يناسبهم ؛ كما فعل النبي ﷺ في اختيار إمام العلماء لدعوة أهل اليمن ؛ لأنهم كانوا أهل علم وكتاب ، ليسوا أميين كسائر العرب .

٤- في بعث معاذ ﷺ إلى اليمن ؛ داعيا ومعلما دلالة على الأهمية البالغة للدعوة إلى الله تعـــالى ؛ ولهذا اتفق العلماء على وجوبها وجوبا عينيا أو كفائيا . ولكن وجوبها يختلف بحسب القـــدرة ؛ فعلى العالم من ذلك أعظم مما على غيره ، وعلى القادر ببدنه أو ماله أو جاهه أعظم ممن ليست له تلك القدرة .

٥- مشروعية التدرج في الدعوة إلى الله تعالى ؛ فيبدأ بالأهم فالأهم ، وأهم أصـــول الإســـلام التوحيد ، ثم الصلاة ، ثم سائر المباني . وقد نبه علماء السلف إلى أهمية التدرج في الدعوة ؛ روى البخاري بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : (إنما نزل أول ما نزل من القـــرآن سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحـــرام ، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبدا ، ولو نزل لا تزنوا لقالوا : لا ندع الزنا أبدا) ، وقال عبد الملك لأبيه عمر بن عبد العزيز : (ما لك لا تنفذ الأمور ، فوالله ما أبالي لو أن القدور غلت بي وبك في الحق ! قال له عمر : لا تعجل يا بني ، فـــإن الله ذم الخمـــر في القرآن مرتين ، وحرمها في الثالثة ، وإني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة ، فيدفعوه جملة ،

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٥٢٥ .

ويكون من ذا فتنة)[١] .

٦- في هذا الحديث اقتصر النبي ﷺ على الصلاة والزكاة دون غيرهما من مباني الإسلام ؛ وفي هذا دلالة على أن لهاتين الفريضتين شأنا ليس لغيرهما ؛ ولهذا ذكر الله في كتابه القتال عليهما ؛ لأنهما عبادتان ظاهرتان بخلاف الصوم فإنه مما يؤتمن عليه العبد ، وبخلاف الحج فوجوبه خاص بالمستطيع ، ولايجب في العمر إلا مرة واحدة .

٧- بعث معاذ ﷺ إلى اليمن داعيا لأصول الدين دليل قاطع على قبول خبر الواحد العدل في العقائد والأحكام . وفي هذا رد عى من زعم أن خبر الآحاد لا يستدل به في العقيدة ؛ لأنه ظني لا يبنى عليه أصل يقيني ! وهذا الزعم المخالف لهدي النبي ﷺ يخالف مفاد خبر الواحد أيضا ؛ فإنه لايفيد الظن بإطلاق ، وإنما يفيد اليقين إذا حتفت به القرائن أو تلقته الأمة بالقبول .

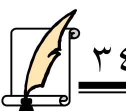
٨- في قوله ﷺ : (وتوق كرائم أموالهم) تحذير من تجاوز ماشرعه الله في الزكاة ؛ وهو أخذها من أو ساط المال ؛ لأن كل مازاد عن المشروع فلا خير فيه ؛ ولأن ذلك ظلم لصاحب المال قد يدفعه إلى الدعاء على من ظلمه ، ودعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجرا[٢] ؛ ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ ﷺ : (اتق دعوة المظلوم ؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) رواه مسلم .

الرابعة : عظم فضل الدعوة إلى توحيد العبادة ؛ روى البخاري بسنده عن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : (لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . فبات الناس يدوكون ليلتهم ؛ أيهم يعطاها . فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ ؛كلهم يرجو أن يعطاها . فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقيل : هو يا رسول الله يشتكي عينيه . فأرسلوا إليه ، فأتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ، ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية فقال علي : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، فقال : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ؛ فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم) ؛

---

(١) الموافقات ٢ / ٩٣ ، ٩٤ .

(٢) روى أحمد بإسناد حسن (دعوة المظلوم مستجابة ، وإن كان فاجرا ففجوره على نفسه) . تيسير العزيز الحميد ، ص (١٣٠) .



فاهتداء رجل واحد خير من أنفس الأموال وأكرمها ، ومن أحيا نفسا واحدة بالإيمان فكأنما أحيا الناس جميعا ، فكيف بمن اهتدى على يديه الفئام من الناس ! وقد ورد في فضل الـدعوة إلى الله نصوص كثيرة ؛ كقوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ فصلت: ٣٣ ، وقوله ﷺ : (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك مـن آثامهم شيئا) رواه مسلم . ويتعلق بحديث سهل بن سعد رضي الله عنه مسائل ؛ منها :-

١- الفضل المعين في قوله ﷺ : (فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكـون لك حمر النعم) هل يختص بالهداية إلى أصل الدين أو يعم حتى الهداية في فرع من فروعه ؟ هـذا محل نظر ؛ والأظهر الاختصاص ؛ لأن القرينة الحالية تقتضي التخصيص[1] .

٢- المراد بالإسلام في قوله ﷺ : (ثم ادعهم إلى الإسلام) الدين كله ؛ لأن الإسلام إذا أفرد شمل الأعمال الباطنة والشرائع الظاهره ، وأول مايدخل في مسماه التوحيد ؛ ولهذا كان أول مايـدعى إليه من أمور الإسلام ، ثم تأتي حقوق الإسلام ؛ كالصلاة والزكاة ؛ كما يدل لذلك قولـه ﷺ : (وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه) ؛ فكلمة التوحيد سبب للعصمة ، ويشترط لدوامها الإتيان بحقوق الإسلام ؛ روى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به ، فإذا فعلوا ذلك عصـموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) .

٣- مشروعية الدعوة إلى الإسلام قبل القتال ، لأن هدف الجهاد إنقاذ الناس من الكفر ، وإقامـة العدل في الأرض ، لا مجرد الغلبة ، أو الظفر بالغنيمة ، ولا بد مع ذلك من إخبارهم بمـا يجـب عليهم من حق الله في الإسلام ؛ ليدخلوا فيه عن اقتناع يحملهم على الثبات على الإسلام .

٤- أن الجهاد في سبيل الله من أعظم وسائل الدعوة إلى الله ؛ فقد شرع لتكون كلمـة الله هـي العليا ، وللمحافظة على الدعوة داخليا وخارجيـا ؛ قـال تعـالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ الأنفال: ٣٩ ، وقـال : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ البقرة: ١٩٠ ، وقال : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى

---

(١) انظر : القول المفيد ١ / ١٣٥ .

ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾الحجرات: ٩ .

٥- في قوله ﷺ : (يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله) إثبات صفة المحبة من الجانبين ؛ فالله تعالى يحب ويحب ، خلافا لمن أنكر حقيقة المحبة من الجانبين ؛ لأن المحبة بزعمه لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب ، ولا مناسبة بين القديم والمحدث ! وهذا كلام مجمل ؛ فإن أريد بالمناسبة الولادة أو المماثلة ونحو ذلك مما يجب تتريه الله عنه فلا نسلم أن المحبة لابد فيها من هذا اللازم ! وإن أريد بالمناسبة اتصاف المحبوب بمعنى يحب لأجله فهذا لازم المحبة ، والله متصف بكل صفة تحب ، ولايلزم من ذلك مجانسة بين المحب والمحبوب ؛ فالمؤمن يحب الملائكة ، لما فيهم من صفات الخير ، وهم من غير جنسه ، بل إنه يحب بعض الجمادات ، وهي من غير جنسه ، كما ثبت في الصحيح : (هذا أحد وهو جبل يحبنا ونحبه) .

٦- وفي قوله ﷺ : (يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله) فضيلة ظاهرة لعلي بن أبي طالب ﷺ وشهادة بإيمانه باطنا وظاهرا ، وهو من أحسن مايحتج به على النواصب ، ولكنها لا تدل على صحة مذهب الشيعة في الإمامة ؛ لأن هذا الوصف لا يختص بعلي ﷺ ؛ قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ البقرة: ١٩٥ ، وقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ البقرة: ٢٢٢ ، وقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ الحجرات: ٩ .

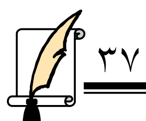
٧- في قوله : (فقيل : هو يا رسول الله يشتكي عينيه) دليل على صحة التوحيد وبطلان التعلق بالأولياء ؛ فعلي ﷺ من سادات الأولياء ، ومع ذلك لم يستطع كشف الضر عن نفسه أو تحويله ، بل جيء به يقاد إلى النبي ﷺ وهو أرمد ، فرقاه النبي ﷺ ، ودعاء ربه الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، فكشف الله ضره ، وبرأ كأن لم يكن به وجع ؛ قال تعالى :﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾يونس: ١٠٧ .

٥- في حديث سهل بن سعد ﷺ أدلة قاطعة على صدق النبي ﷺ ؛ كقوله : (لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه) ، وقد حصل ذلك طبق ما أخبر ، وكقوله : (فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ، ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع) . ولهذه الآية نظائر كثيرة ؛ كقوله ﷺ لعبد الله بن عتيك ﷺ لما انكسرت رجله : ابسط رجلك ، فبسط رجله ، فمسحها النبي ﷺ ، فكأنه لم يشتكها قط ، ولما أصيب ساق سلمة ﷺ يوم خيبر أتى النبي ﷺ فنفث فيها ثلاث نفثات ، فما اشتكاها بعد ! ولما أصيبت عين قتادة بن النعمان ﷺ يوم أحد سالت حدقته على وجنته ،

فأرادوا أن يقطعوها ، فغمز النبي ﷺ عينه براحته ، فكان لا يدرى أي عينيه أصـيبت ! وهـذا الضرب من الاستدلال يرجع للمسلك الشخصي ؛ وهو الاستدلال بذات النبي ﷺ وأخباره وأحواله على صدقه ، وهو أصل عظيم ينتظم مالايكاد يحصى من آحاد الأدلة[1] .

******

(١) أهم مراجع هذا الباب : تفسير القرطبي ٩ / ٢٧٤ ، مجموع الفتاوى ٢٨ / ٣٥٤ ، الجواب الصحيح ٢ / ٦١٦ - ٦٢٤ ، النبوات ١ / ٣٥١ - ٣٧٤ ، تفسير ابن كثير ٢ / ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ، ص (٢٩٣ ، ٢٩٤) ، تيسير العزيز الحميد ، ص (١١٢ - ١٣٩) ، فتح المجيد ، ص (٩١ - ١٠٧) ، قرة عيون الموحدين ، ص (٤٧ - ٥٤) ، القول السديد ، ص (٣٢ - ٣٦) ، القول المفيد ١ / ١٢٥ - ١٤٣ ، الدر النضيد ، ص (٤٨ - ٥٨) ، حاشية ابن قاسم ، ص (٥٤ - ٦٦) .



معنى الشهادة وشروطها

معنى الشهادة

الشهادة كلمة التوحيد ، وشعار الإسلام ، وأول ما يدخل به المرء في الإسلام وآخر ما يخرج بـه من الدنيا ! وهي عند علماء السلف تدل على توحيد الألوهية بالمطابقة ؛ ولهذا فسروها بـالبراءة من عبادة ماسوى الله ، وإفراد الله بجميع أنواع العبادة . ورأى المتكلمون أن الشهادة إنمـا تـدل بالمطابقة على توحيد الربوبية ؛ لأن الإله عندهم بمعنى الخالق ؛ ولهذا فسروها بإفراد الله بـالخلق والفعل ! وقد ترتب على ذلك اعتبار توحيد الأفعال أو الربوبية الغاية التي من بلغها فقد حقـق التوحيد ، وكان في نظر من وافقهم من المتصوفة من سادات الأولياء ، وبخاصة إذا دخل في فنـاء الربوبية ، بحيث يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل ! كما ترتب على ذلك اعتبار الشرك خاصـا بالربوبية دون الألوهية ؛ فمن دعا غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ، أو تقرب له بقربـة مـن القربات ؛ كالذبح والنذر فإنه لا يكون مشركا إلا إذا اعتقد أن لمن دعاه أو تقرب إليه تـأثيرا في جلب المنافع ودفع المضار ؛ لأنه لم يفرد الله بأخص أو صافه ؛ وهو القدرة على الاختراع ! قـال ابن تيمية : (ولهذا كان من أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب ، ويدعوها كما يدعو الله تعالي ، ويصوم لها وينسك لها ، ويتقرب إليها ، ثم يقول : إن هذا ليس بشرك ، وإنمـا الشرك إذا اعتقدت أنها هي المدبرة لي ، فإذا جعلتها سببا وواسطة لم أكن مشركا ! ومن المعلـوم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا شرك)[1] . وقد بين علماء السلف بطلان طريقة المـتكلمين ومن وافقهم في تفسير الشهادة من وجوه كثيرة ؛ منها :-

الأول : أن اسم الإله في اللغة فعال بمعنى مفعول لا بمعنى فاعل ؛ فالإله هو المعبود لا الخالق ، والإلهية استحقاق العبادة لا القدرة على الاختراع ؛ قال ابن فارس : (أله ؛ الهمزة واللام والهاء أصل واحد ؛ وهو التعبد ؛ فالإله الله تعـالى ، وسمي بذلك لأنه معبـود ، ويقال : تأله الرجل إذا تعبد)[2] . وهذا مافهمه مشركوا قريش من لفظ الشهادة ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ الصافات: ٣٥ - ٣٦ ، وقـال : ﴿ أَجَعَلَ

(١) درء التعارض ١ / ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

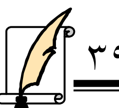
(٢) معجم مقاييس اللغة ١ / ١٢٧ .

ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ ص: ٥ ؛ وفي الصحيح عن سعيد بن المسيب عن أبيه قـــال : (لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل ، فقال له : (يا عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟! فأعاد عليه النبي ﷺ ، فأعادا ! فكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . فقال النبي ﷺ : لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فأنزل الله عز وجل (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ) الآية . وأنزل الله في أبي طالب : (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء) ؛ ففهم هؤلاء العرب أن كلمة الشهادة تعني ترك كل ما يعبدونه من دون الله لا مجرد قولها باللسان ، أو الاقرار بتفرد الله بالخلق ؛ ولهذا قال المؤلف في مسائل الباب الذي ذكر فيه هذا الحديث : (الثالثة : وهي المسألة الكبيره تفسير قوله ﷺ : قل لا إله إلا الله ، بخلاف ما عليه من يدعي العلم . الرابعة : أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذ قال للرجل : قل لا إله إلا الله ، فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام !)[١] .

الثاني : أن الإقرار بتوحيد الأفعال أو الربوبية لا يكفي وحده في الدخول في الإسلام ؛ فقد كان المشركون الأولون يقرون بتفرد الله بالخلق والتأثير ، ويؤمنون بالقدر ، ويتقربون لله بكـــثير مـــن القربات ؛ كالحج والصدقة والذكر ، ومع ذلك لم يخرجوا من دائرة الشرك فضلا عن أن يكونوا قد بلغوا غاية التوحيد ؛ لأنهم لم يخلصوا العبادة لله وحده ، قـــال تعـــالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ الزمر: ٣٨ ، وقـــــال : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ المؤمنون: ٨٤ – ٨٩ .

الثالث : أن الشهادة رأس الإسلام ، وبها بعث الرسل ؛ قال تعالى :﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأنبياء: ٢٥ ، ففسرها آخر الآية بإفراد الله بالعبادة ؛ وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾النحل: ٣٦ ، وقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ

(١) كتاب التوحيد ، مع القول السديد ، ص (٧٣ ، ٧٤) .



وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الزخرف: ٢٦ – ٢٨ ؛ قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم : أي لا إله إلا الله ، فلا يزال في ذريته من يقولها . والشهادة إنما ذكرت في الآية بمعناها لا بلفظها ؛ وهو البراءة مما يعبد من دون الله ، وإفراد الله بالعبادة ؛ فعلم أن الشهادة إنما تدل على توحيد الألوهية مطابقة ، وأنه لا بد فيها من نفي وإثبات ، والشواهد التفصيلية لهذا الأصل لا تكاد تحصى ؛ فمن ذلك :-

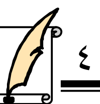
١- قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ الإسراء: ٥٦ - ٥٧ ؛ ذكر أكثر المفسرين أنها نزلت فيمن يعبد المسيح وأمه والعزير والملائكة . وقال ابن مسعود ﷺ : نزلت فيمن أسلم ممن كان يُعبد من الجن . ولا تنافي بين القولين ؛ فالآية تعم كل من كان معبوده عابدا لله ؛ وتدل على بطلان إلهية هذه المعبودات ؛ بعجزها عن إجابة الدعوات ، وافتقارها إلى الله في الرغبات والرهبات ؛ وذلك يستلزم ترك دعائهم ، وإفراد الله بالدعاء ؛ لأنه القادر وحده على إجابة الدعوات وتفريج الكربات .

٢- قوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ التوبة: ٣١ ؛ يفسرها ما رواه الترمذي بسند حسن[1] عن عدي بن حاتم ﷺ قال أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال : (يا عدي اطرح عنك هذا الوثن ، وسمعته يقرأ في سورة براءة اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، قال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه) ؛ فعلم أنه لابد في التوحيد والشهادة من إفراد الله تعالى بحق التحليل والتحريم .

٣- قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ البقرة: ١٦٥ ؛ فعلم من هذا الذم والوعيد أنه لابد في الشهادة والتوحيد من إفراد الله بالمحبة ؛ فمن جعل لله ندا في محبة التأله والتعظيم فهو كهؤلاء المشركين ، ولو نطق بالشهادة ، وفعل من الطاعات مافعل ؛ قال المؤلف : (ذكر في

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ٧ / ٦٧ .



الآية أنهم يحبون أندادهم كحب الله ، فدل على أنهم يحبون الله حبـــا عظيمـــا و لم يدخلـــهم في الإسلام ، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله ، فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ، و لم يحب الله)[١] .

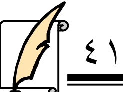
الرابع : أن الأحاديث الصحيحة فسرت الشهادة بإفراد الله بالعبادة ، والكفر بما يعبد من دون الله تعالى ، روى مسلم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن معاذا ﷺ قال : (بعثني رسول الله ﷺ قال : إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله) ، ووقع عند البخاري بلفظ (فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى) ، ووقع عند مسلم بلفظ (فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل) ؛ فعلم من مجموع هـــذه الروايـــات أن المراد بالشهادة توحيد العبادة لا مجرد قولها باللسان ، أو إفراد الله تعالى بمعاني الربوبية دون أن يتبع ذلك بموجبه ولازمه من إفراد الله بالعبادة . ولهذا الحديث نظائر كثيرة ؛ منها :-

١- روى مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : (بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل ، شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر الســـفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيـــه وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ؟ فقال : رسول الله ﷺ الإسلام أن تشهد أن لا إلـــه إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضـــان ، وتحـــج البيـــت إن استطعت إليه سبيلا) ، وفي رواية له : (قال يا رسول الله ! ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضـــان) ؛ ففسر الشهادة بإفراد الله بالعبادة ، وترك الشرك كله ؛ لأن شيئا نكرة في سياق نهي ؛ فتعم جميع أنواع الشرك .

٢- وروى مسلم بسنده عن أبي هريرة ﷺ أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : (يا رسول الله ! دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة ؟ قال : تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصـــلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان) ؛ فعبر ﷺ عن الشهادة بما دلـــت عليـــه

---

(١) كتاب التوحيد ، مع القول السديد ، ص (٤٠) .

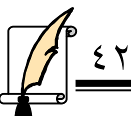


مطابقة ؛ وهو إفراد الله بالعبادة ، واجتناب الشرك .

٣- وروى بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ : (بني الإسلام على خمس ؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان) ، وفي رواية له : (بني الإسلام على خمسة ؛ على أن يوحد الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، والحج) ، وفي رواية له أيضا : (بني الإسلام على خمس ؛ على أن يعبد الله ويكفر بما دونه ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان) ؛ فعلم من مجموع هذه الروايات أن الشهادة تعني التوحيد ؛ والتوحيد هو عبادة الله وحده ، والكفر بما دونه .

٤- روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (إن وفد عبد القيس أتوا النبي ﷺ ... الحديث ، وفيه : فأمرهم بأربع ، ونهاهم عن أربع ، أمرهم بالإيمان بالله عز وجل وحده ، قال هل تدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وتعطوا الخمس من المغنم) ، وفي رواية لمسلم : (آمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع ، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وصوموا رمضان ، وأعطوا الخمس من الغنائم) ؛ ففسر الشهادة في الرواية الثانية بما دلت عليه مطابقة ، من إفراد الله بالعبادة ، واجتناب الشرك كله .

٥- وروى مسلم بسنده عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ؛ فمن قال : لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابه على الله) ، وفي رواية له : (من قال لا إله إلا الله ، وكفر بما يعبد من دون الله ، حرم ماله ودمه وحسابه على الله) وفي رواية له أيضا : (من وحد الله ثم ذكر بمثله) ؛ قال المؤلف : (هذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله ؛ فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله ، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه ! فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلها ! ويا له من بيان ما أوضحه ، وحجة ما أقطعها



للمنازع)[١] .

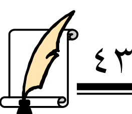
شروط الشهادة

روى مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ ومعاذ بن جبل رضي الله عنه رديفه على الرحل قال : (يامعاذ ! قال : لبيك رسول الله وسعديك . قال : يامعاذ ! قال : لبيك رسول الله وسعديك . قال : يامعاذ ! قال : لبيك رسول الله وسعديك . قال : مامن عبد يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار . قال : يارسول الله ، أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا ؟ قال : إذن يتكلوا . فأخبر بها معاذ عند موته ؛ تأثما) ؛ فدل هذا الحديث العظيم ونظائره على أن الشهادة سبب حصول أعظم المطالب ؛ وهو دخول الجنة والنجاة من النار ! وقد رأى المرجئة أن هذا السبب كاف في حصول هذا المطلب . ورأى أهل السنة والجماعة أن لابد من اعتبار ماورد في نصوص الشهادة من قيود ، وإعمال نصوص الوعيد مع الوعد ، ومراعاة أصول الشريعة وكلياتها ؛ ولهذا قالوا : إن هذا السبب لا بد لتأثيره من وجود شرطه وانتفاء مانعه ؛ قال ابن رجب : (كلمة التوحيد سبب مقتض لدخول الجنة ، والنجاة من النار ، لكن له شروط ؛ وهي الإتيان بالفرائض ، وموانع ؛ وهي اجتناب الكبائر)[٢] . وقد نبه لهذا المعنى علماء السلف الأوائل ؛ قال الحسن للفرزدق ، وهو يدفن امرأته : ما أعددت لهذا اليوم ؟ قال : شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة ! قال : الحسن : نعم العدة ، لكن للا إله إلا الله شروطا ؛ فإياك وقذف المحصنات ! وقيل للحسن : إن ناسا يقولون : من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ؟ فقال : من قال لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة ! وقيل لوهب بن منبه : أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله ؟ قال : بلى ، ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان ؛ فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك . ولعلماء السلف في ذكر شروط الشهادة طريقتان مجملة ومفصلة ؛ فالذين ذكروها مجملة قالوا : إنها مشروطة بالإتيان بالفرائض واجتناب الكبائر ، أو هي مشروطة بالعلم بمعناها والعمل بمقتضاها ظاهرا وباطنا . والذين ذكروها مفصلة قالوا : إنها مقيدة بالشروط التالية :-

---

(١) كتاب التوحيد ، مع القول السديد ، ص (٤٠) .

(٢) جامع العلوم والحكم ، ص (١٩٨) .



١– العلم بمعناها ؛ روى مسلم بسنده عن عثمان ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة) . وقد تقدم أن معناها عند السلف البراءة من الشرك وأهله ، وإفراد الله بجميع أنواع العبادة ؛ فمن زعم أن معناها إفراد الله بالخلق فإنه لم يعلم معناها الذي تواطأت على بيانه النصوص .

٢– اليقين بما دلت عليه الشهادة من نفي وإثبات ؛ روى مسلم بسنده عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا: (من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة) .

٣– الصدق في قولها ؛ روى البخاري بسنده عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال : (ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار) .

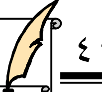
٤– الإخلاص ؛ روى البخاري بسنده عن عتبان بن مالك ﷺ قال رسول الله ﷺ : (فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله) . والإخلاص يعني أن يخلص عمل قائلها من الشرك الجلي والخفي .

٥– المحبة ؛ قال تعالى :﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ البقرة: ١٦٥ . وهذا شرط عظيم ، يمكن أن يستدل له بجميع نصوص الشهادة ؛ لأن الإله مشتق من التأله ؛ وهو آخر مراتب الحب ؛ فلا إله إلا الله تعني إفراد الله بأعلى درجات المحبة ؛ وهي محبة التأله المستلزمة لكمال الطاعة والإيثار ؛ فمن صرفها لغير الله فقد أشرك .

٦– القبول والانقياد ؛ بمعنى الإذعان باطنا وظاهرا لما دلت عليه كلمة التوحيد من نفي وإثبات ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ ﴾ الصافات: ٣٥ - ٣٦ ، وقال : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ ص: ٥ ؛ وروى الإمام أحمد بسند صحيح[١] عن صفوان بن عسال ﷺ قال : (قال يهودي لصاحبه : اذهب بنا إلى النبي ﷺ حتى نسأله عن هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ ﴾ فقال : لا تقل له نبي ؛ فإنه إن سمعك لصارت له أربعة أعين ؛ فسألاه فقال النبي ﷺ : لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ،

---

(١) صححه الترمذي والحاكم والذهبي . انظر : سنن الترمذي ٥ / ٧٨ ، المستدرك ١ / ٩ .

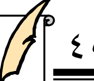


ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا محصنة أو قال تفروا من الزحف ، وأنتم يـــا يهود عليكم خاصة أن لا تعتدوا في السبت ! فقبلا يده ورجله ! وقالا نشهد أنك نبي ! قـــال : فما يمنعكما أن تتبعاني ؟ قالا : إن داود عليه السلام دعا أن لا يزال من ذريته نبي ، وإنا نخشى إن أسلمنا أن تقتلنا يهود) ؛ فعلم من هذه النصوص أن مجرد الإقرار بصدق النبي ﷺ لا يكفـــي في الإيمان ما لم يتبع بلازمه من الإذعان لما دلت عليه الشهادة من البراءة من الشرك وأهله ، وإفراد الله تعالى بكل ماشرعه على لسان نبيه ﷺ من أنواع العبادات الظاهرة والباطنة[١] !

****

---

(١) أهم مراجع الباب : مجموع الفتاوى ٧ / ٥٦١ ، الرسالة التدمرية بشرح البراك ، ص (٤١٣ - ٤٤٦) ، تيسير العزيز الحميد ، ص (١٣٩ - ١٥٢) ، فتح المجيد ، ص (١٠٧ - ١٢٦) ، قرة عيون الموحدين ، ص (٥٥ - ٦٣) ، القول المفيد ١ / (١٤٣ - ١٥٨) ، حاشية ابن قاسم ، ص (٦٦ - ٧٤) .



براهــين التوحيــد

القرآن الكريم عند علماء السلف مشتمل على مسائل الدين ودلائله ؛ فكما دعـا إلى إفـراد الله تعالى بالعبادة فقد بين البراهين العقلية الدالة على هذا المطلب الشريف ؛ وهي أربعة أنواع :-

الأوّل : الاستدلال بتوحيد الرّبوبيّة على توحيد العبادة ؛ فتفرّد الربّ بمعاني الرّبوبيّة يستلزم إفراده بالعبادة ؛ وذلك لاعتبارات متعدّدة ، منها :-

١- أنّ التّفرّد بالربوبيّة يعني التّفرّد بتربية العباد بنعمه وإحسانه ؛ وأصل ذلك الخلق ، إذ كلّ ما بعده من النّعم تابع له ، وفرع عنه ، ولا شكّ أنّ شكر من تفرّد بالخلق والإنعام أوجب شيء في العقول .

٢- أنّ التّفرّد بالربوبيّة يعني التّفرّد التامّ بجلب المنافع ودفع المضارّ ؛ وهذا يقتضي عقلاً أن يكون الربّ وحده محلّ محبّة العبد ورغبته ورهبته .

٣- أنّ التّفرّد بالربوبيّة يعني التّفرّد بالخلق والملك والغنى الذاتي ، وأنّ ما عدا الربّ مخلوق مملوك فقير لا يصحّ عقلاً أن يكون محلاًّ لمحبّة العبد ورغبته ورجائه ، ولا لشيء ممّا ينشأ عن ذلك من عباداته !! وعلى هذه الاعتبارات وما يجري مجراها جاء هذا النّوع من براهين القرآن على صحّة التّوحيد وبطلان الشّرك ؛ فمن تفرّد بمعاني الربوبيّة من خلق وتدبير وملك وعناية وهداية ونفع وضرّ فهو المستحقّ عقلاً وشرعًا للعبادة وحده ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ يونس: ٣ ، وقال : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ يونس: ٣١ ، وقال : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ النمل: ٦٠

الثّاني : الاستدلال بتوحيد الصّفات على توحيد العبادة ؛ فالتفرّد بصفات الكمال المطلق يستلزم تعلّق القلب بمن اتصف بها ؛ محبّة وخوفًا ورجاءً وتألّهًا في الظّاهر والباطن ، وهذا البرهان ينتظم جميع ما ورد من صفات الكمال ؛ فكلّها أدلّة على توحيد العبادة ، سواء أصرّح بذكر لازمها ،

أو ذكرت مجرّدة ؛ فمما ذكر مجرّدًا قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الأنعام: ١٨ ، وقوله : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ طه: ٥ ، وقوله : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ المائدة: ٦٤ ؛ فهذه النّصوص ونظائرها الكثيرة لم تذكر لمجرّد تقرير الكمال ، وإنّما ذكرت لبيان أنّ الموصوف بها هو المستحقّ للعبادة وحده ، يقول ابن تَيْمِيَّة : (الله سبحانه لم يذكر هذه النّصوص لمجرّد تقرير الكمال لـه ، بل ذكرها لبيان أنّه المستحقّ للعبادة دون ما سواه ، فأفاد الأصلين اللذين بهما يتمّ التّوحيد ؛ وهما : إثبات الكمال ؛ ردًّا على أهل التّعطيل ، وبيان أنّه المستحقّ للعبادة لا إلـه إلاّ هـو ردًّا علـى المشركين)[1] .

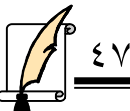
أمّا ما صرّح بذكر لازمه من نصوص الصّفات فكقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾البقرة: ٢٥٥ ، وقوله : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ الحشر: ٢٢ – ٢٤ ، وقولـه : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ الزمر: ٦٧ ؛ فصرّح بذكر لازم صفات كماله ؛ وهو البراءة من الشّـرك وأهلـه ، وإفراد الله بجميع العبادات الظّاهرة والباطنة ، ومحلّ الدلالة في قوله : (لا إلَهَ إلا هُوَ) ، وقوله : (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) ؛ فإنّ الشّهادة تدلّ على توحيد العبادة مطابقة ، والتّتريه عن الشّرك يستلزم إفراد الله بالعبادة .

الثّالث : الاستدلال بأوصاف كلّ ما يعبد من دون الله تعالى على التوحيد ؛ فكل واحد منـهم موصوف بالحدوث والعجز والفقر ؛ وهي صفات نقص تبطل ألوهيّتهم المزعومة ؛ وقـد فصّـل القرآن هذه الصّفات في نصوص كثيرة بطرق متعدّدة ، منها :-

١- تقرير أنّ كلّ ما يعبد من دون الله مخلوق مربوب لا قدرة له على الخلق ؛ وهذا يدل ضرورة على أن خالق هذه المعبودات وخالق الخلق أجمعين هو الإله الحقّ لا شريك له في ألوهيته كمـا لا شريك له في ربوبيته ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ النحل: ٢٠ ، وقال : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾ الأعراف: ١٩١ ، وقال ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن

---

(١) مجموع الفتاوى ٦ / ٨٣ .



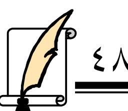
دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾ ﴾ لقمان: ١١ ؛ قال ابن القيّم : (إن زعموا أنّ آلهتهم خلقت شيئًا مع الله طولبوا بأن يروه إيّاه ، وإن اعترفوا بأنّها أعجز وأضعف وأقلّ من ذلك كانت إلهيتها باطلاً ومحالاً)[١] .

٢- أن كل مايدعى من دون الله إما مخلوق لا قيام له بنفسه ، أو جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلّم ، وهو نقص يبطل ألوهيتهم المزعومة ! قال تعالى : ﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ المائدة: ٧٥ ، وقال : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ ﴾ مريم: ٤١ - ٤٢ ، وقال : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ الأعراف: ١٤٨ .

٣- أن كل مايدعى من دون الله متجردون من جميع معاني الرّبوبيّة ؛ فلا ينفعون ولايضرون ، ولايرزقون ولا ينصرون ، و﴿ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ سبأ: ٢٢ – ٢٣ ؛ قال ابن القيّم : (أخذت هذه الآية على المشركين بمجامع الطّرق الّتي دخلوا منها إلى الشّرك ، وسدّتها عليهم أحكم سدّ وأبلغه ، فإنّ العابد إنّما يتعلّق بالمعبود لما يرجو من نفعه ، وإلاّ فلو لم يرج منه منفعة لم يتعلّق قلبه به ، وحينئذٍ فلا بُدّ أن يكون المعبود مالكًا للأسباب الّتي ينتفع بها عابده ، أو شريكًا لمالكها ، أو ظهيرًا ، أو وزيرًا ، أو معاونًا له ، أو وجيهًا ذا حرمة وقدر يشفع عنده ، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كلّ وجه وبطلت انتفت أسباب الشّرك وانقطعت مواده ؛ فنفى سبحانه عن آلهتهم أن تملك مثقال ذرّة في السموات والأرض ، فقد يقول المشرك هي شريكة لمالك الحقّ فنفى شركتها له ، فيقول المشرك : قد تكون ظهيرًا أو وزيرًا ومعاونًا ، فقال : وماله منهم من ظهير ، فلم يبق إلاّ الشّفاعة فنفاها عن آلهتهم ، وأخبر أنّه لا يشفع عنده أحد إلاّ بإذنه)[٢] . ومن أدلة هذا الطريق قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴿١٤﴾ ﴾ فاطر: ١٣ – ١٤ ؛ قال عبد الرحمن بن

(١) الصواعق المرسلة ٢ / ٤٦٥ .

(٢) الصواعق المرسلة ٢ / ٤٦١ ، ٤٦٢ .



حسن : (يخبر تعالى عن حال المدعوين من دونه بما يدل على عجزهم ، وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التي تكون في المدعو ؛ وهي الملك ، وسماع الدعاء ، والقدرة على الاستجابة ؛ فمتى لم توجد هذه الشروط تامة بطلت دعوته ، فكيف إذا عدمت كلها)[1] . ومن أدلة هذا الطريق من السنة :-

أ- روى مسلم بسنده عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ : (كسرت رباعيته يوم أحد ، وشج في رأسه ، فجعل يسلت الدم عنه ، ويقول :كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ، وكسروا رباعيته ، وهو يدعوهم إلى الله ! فأنزل الله عز وجل : ليس لك من الأمر شيء) ؛ فإذا كان سيد المرسلين ﷺ لم يدفع الضر عن نفسه فكيف يدفعه عن غيره ؛ كما يتوهم ذلك كثير من الناس في الأنبياء والأولياء !

ب- وروى البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع من الركعة الآخرة من الفجر يقول : (اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا ، بعد ما يقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد ، فأنزل الله ليس لك من الأمر شيء إلى قوله فإنهم ظالمون) وفي رواية : (يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام فنزلت ليس لك من الأمر شيء إلى قوله فإنهم ظالمون) ؛ فإذا كان أشرف الخلق ، ومعه سادات الأولياء يؤمنون على دعائه لم يجابوا في هؤلاء مع عظم جناياتهم في حق نبيهم وفي حق أصحابه ، فكيف يعتقد فيهم وفيمن هو دونهم من الأولياء أنهم ينفعون من دعاهم أولاذ بحماهم !

ج- وروى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ حين أنزل عليه وأنذر عشيرتك الأقربين : يا معشر قريش ! اشتروا أنفسكم من الله ، لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا ، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا ، يا فاطمة بنت رسول الله سليني بما شئت لا أغني عنك من الله شيئا) ؛ قال المؤلف : (فإذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئا عن سيدة نساء العالمين ، وآمن الإنسان أنه لا يقول إلا الحق ، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص

---

(١) فتح المجيد ، ص (١٩٤) باختصار وتصرف يسير .

الناس ، تبين له التوحيد وغربة الدين)[١] .

الرّابع : الاستدلال على التّوحيد بضرب الأمثال في المعاني ؛ وهي عبارة عن براهين وحجج تفيد توضيحًا للمعنى أو دلالةً على الحكم عن طريق تصوير المعقول في صورة المحسوس ، أو تصوير أحد المحسوسين في صورة أظهرهما ، واعتبار أحدهما بالآخر . وهي أقوى في النّفس ، وأبلغ في الإقناع ؛ لقوّة التّشبيه ، وقربه من الحسّ ، واقتران دلالته بالترغيب والترهيب . وقد ذكر الله في كتابه كثيرًا من الأمثال المشتملة على ذكر ما في الآلهة المزعومة من نقائص ؛ تنفر العبد من الشرك وتهدي عقله وقلبه لبطلان الشّرك وصحّة التّوحيد ، والتزامه قولاً وعملاً ، رغبًا ورهبًا ؛ ومن هذه الأمثال : ــ

١ – قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ النحل: ٧٥ ؛ فهذا مثل ضربه الله لنفسه وللأوثان ، للأوثان مثل السّوء ، ولله المثل الأعلى في السموات والأرض ؛ فالله تعالى هو مالك كلّ شيء ، ينفق على عباده سرًّا وجهرًا وليلاً ونهارًا ، والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء ، فكيف يقبل عقل أن تكون شريكةً لله ومعبودة معه مع هذا التّفاوت العظيم !

٢ – قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ ﴾ النحل: ٧٦ ؛ فالقادر على الحقّ قولاً وأمرًا وفعلاً لا يماثل الأبكم الّذي لا يقدر على شيء ألبتة ؛ لا نطقًا ولا فعلاً ؛ وهكذا مثل التوحيد والشرك ؛ فكمال الله المطلق يحيل أن تماثله الأوثان العاجزة في شيء من كمالاته أو حقوقه !

٣ – قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ الحج: ٧٣ – ٧٤ ؛ ففي هذا المثل الوجيز البليغ بيان ما يعمّ المعبودات الباطلة من عجز حتّى حال الاجتماع والتّعاون ؛ فهي لا تقدر على إيجاد مخلوق من أضعف المخلوقات ، ولا تقدر حتّى على الانتصار منه ؛ وذلك لكمال عجزها المستلزم بطلان ألوهيّتها ضرورة ؛ إذ من

---

(١) كتاب التوحيد مع القول السديد ، ص (٦٤) .



لوازم الألوهيّة الحقّة القدرة التامّة على كلّ شيء ؛ فمن عرف الله حقّ المعرفة ، وآمن بصفاته الكاملة ، وقدرته التامّة عصمه إيمانه من شرك العبادة ؛ إذ لا يبتلى به إلاّ من لم يقدر الله حقّ قدره . وهذا المثل يقطع مواد الشّرك ، وهو من أبلغ ما أنزله الله في إبطال الشّرك وتجهيل أهله

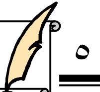
٤- قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ العنكبوت: ٤١ ؛ فمثل الحق سبحانه اتّخاذ أولياء من دونه ، يعتمد عليهم في حصول المنافع باعتماد العنكبوت على أضعف البيوت ؛ فاعتمادهم على هؤلاء الأولياء ما زادهم إلاّ ضعفًا ، وموالاتهم لها ما زادتهم إلاّ ذلّة ؛ جزاءً وفاقًا ومعاملةً للمشرك بنقيض مقصوده ، كما هي سنّة الله في المشركين .

٥- قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الروم: ٢٨ ؛ والمعنى هل يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكه في ملكه حتّى يساويه في التّصرّف ، ويخافه على ماله كما يخاف أمثاله من الشّركاء الأحرار ؟! فإذا لم ترضوا بهذا لأنفسكم فلم جعلتم خلق الله وعبيده شركاء له في العبادة ؟! وقد رأى القرطبي أنّ مقصود هذا المثل إبطال أن يكون شيء من العالم شريكًا لله في شيء من أفعاله ؛ فقال في تحريره : (كيف يتصوّر أن تنزهوا نفوسكم عن مشاركة عبيدكم وتجعلوا عبيدي شركاء في خلقي ؟!)[1] . وهذا ليس بصحيح ؛ لأنّ مقصود المثل إقامة البرهان على توحيد العبادة ، ودعوة الخلق له قولاً وعملاً ، إذ هو محلّ الخصومة بين الرّسل وأممهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ الزمر: ٣٨ .

٦- قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الزمر: ٢٩ ؛ وهذا المثل للدّلالة على حسن التّوحيد وقبح الشّرك ، وعدم استواء الموحّد والمشرك في صفتيهما وحاليهما ؛ فالمشرك الّذي يعبد آلهة شتى بمنزلة عبد يملكه شركاء مختلفون متعاسرون ، لا يلقاه أحدهم إلاّ جرّه واستخدمه ، ومع ذلك لا يُرضي واحدًا منهم بخدمته ؛ لكثرة الحقوق في رقبته ، وتعاسر مواليه ، وسوء أخلاقهم !! والموحّد الّذي يعبد الله وحده مثله

---

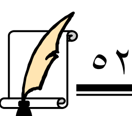
(١) تفسير القرطبي ١٤ / ٢٣ .



كمملوك سالم لرجل واحد ؛ لا ينازعه فيه أحد ، قد عرف مقاصده وطرق رضاه فهو في راحة من تشاحن الشّركاء ، وفي نعمةٍ ورغد عيش من إحسان سيّده وتولّيه لمصالحه !! فهذا مثل المؤمن في حياته الطبيّة ، وذاك مثل المشرك فيما يبتلى به من ضنك المعيشة[1] .

******

(١) أهم مراجع براهين التوحيد : فتح المجيد ، ص (١٩٢ - ٢٠٤) ، قرة عيون الموحدين ، ص (٩٤ - ٩٩) ، القول السديد ، ص (٦١ - ٦٤) ، حاشية ابن قاسم ، ص (١١٨ - ١٢٤) ، حقيقة المثل الأعلى وآثاره ، ص (٨٥ - ٩٦) .



العبادة والاستعانة

العبادة لغة تدل على الذل مع الحب ؛ قال ابن القيم : (العبادة تجمع أصلين غاية الحب بغاية الذل والخضوع ؛ والعرب تقول طريق معبد ؛ أي مذلل ، والتعبد التذلل والخضوع ؛ فمن أحببته و لم تكن خاضعا له لم تكن عابدا له ، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدا له حتى تكون محبا خاضعا)[1] . والعبادة تذكر تارة مفردة ، وتذكرة تارة مقرونة بما هو أخص منها ؛ كالاستعانة والتوكل .

العبادة حال الإفراد

للعبادة حال الإفراد أمثلة كثيرة ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الذاريات: ٥٦ ، وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأنبياء: ٢٥ ، وقوله : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ الزمر: ٦٤ ؛ والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ؛ أي أنها اسم جامع للدين كله ؛ ظاهره وباطنه ؛ فيدخل في معناها الإسلام ، والإيمان ، والإحسان . وهي بذلك ترادف لفظ الدين ، وترادف أيضا لفظ البر والتقوى والإيمان حال الإفراد ؛ ولهذا فإن العبادة كالإيمان ؛ كلاهما قول وعمل ؛ قال ابن القيم : (العبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع _ أي قول اللسان والقلب ، وعمل القلب والجوارح _ فقول القلب ؛ هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه ، على لسان رسله . وقول اللسان ؛ الإخبار عنه بذلك ، والدعوة إليه والذب عنه ، وتبيين بطلان البدع المخالفة له ، والقيام بذكره وتبليغ أوامره . وعمل القلب ؛كالمحبة له ، والتوكل عليه والإنابة إليه ، والخوف منه ، والرجاء له ، وإخلاص الدين له ، والصبر على أوامره وعن نواهيه وعلى أقداره ، والرضى به وعنه ، والموالاة فيه والمعاداة فيه ، والذل له والخضوع ، والإخبات إليه والطمأنينة به ، وغير ذلك من أعمال القلوب ؛ التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح ، ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها ، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة . وأعمال الجوارح ؛ كالصلاة ، والجهاد ، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات ، ومساعدة العاجز

---

(١) مدارج السالكين ١ / ٧٤ .

والإحسان إلى الخلق ، ونحو ذلك)[١] .وكمال العبد في تحقيق هذه العبادة ؛ فمن لم يكن عبدا للخالق كان عبد لمخلوق من المخلوقات ولابد ! وتحقيق العبادة إنما يكون باجتماع أصلين :-

١- ألا يعبد إلا الله . وهذا تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله .

٢- أن يعبد الله بما شرعه رسوله ﷺ لا بغير ذلك من البدع . وهذا تحقيق شهادة أن محمدا رسول الله ؛ وقد ذكر الله هذين الأصلين في مواضع من كتابه ؛ كقوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾البقرة: ١١٢ ، وقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾النساء: ١٢٥ ، وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾الكهف: ١١٠ ، وقوله : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾الملك: ٢ ؛ قال الفضيل بن عياض : في قوله (أيكم أحسن عملا) ؛ أي أخلصه وأصوبه ؛ قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا ؛ والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة[٢].

العبادة حال الاقتران

للعبادة حال الاقتران أمثلة كثيرة ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا۟ اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ العنكبوت: ١٦ ، وقوله : ﴿ أَنِ اعْبُدُوا۟ اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾ نوح: ٣ ، وقوله : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾هود: ١٢٣ ، وهذا على التحقيق من عطف الخاص على العام لمزيته وأهميته[٣] . فالتوكل هو العون على كل عبادة ؛ فالقلب فقير بالذات إلى الله من جهة العبادة ؛ وهي العلة الغائية ، ومن جهة الاستعانة والتوكل ؛ وهي العلة الفاعلية ؛ فالقلب لا يطمئن ولا يسكن إلا بعبادة ربه ، وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له على ذلك ؛ ولهذا قرن التوكل بالعبادة في عدة مواضع من كتاب الله تعالى ؛ كقوله تعالى عن شعيب عليه السلام : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

---

(١) مدارج السالكين ١ / ١٠٠ ، ١٠١ . وانظر : مجموع الفتاوى ٧ / ١٦٣ ، ١٠ / ١٤٩ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ١٠ / ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٣٤ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ١٠ / ١٧٤ - ١٧٧ .

﴿أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ هود: ٨٨ ، وقوله : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ الشورى: ١٠ ، وقوله : ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ الفاتحة: ٥ ؛ قال ابن القيم : (سر الخلق والأمر والكتب والشرائع والثواب والعقاب انتهى إلى هاتين الكلمتين ، وعليهما مدار العبودية والتوحيد ، حتى قيل : أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب ، جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن ، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن ، وجمع معاني القرآن في المفصل ، وجمع معاني المفصل في الفاتحة ، ومعاني الفاتحة في إياك نعبد وإياك نستعين !)[(١)] . وهذا يدل على الأهمية البالغة للاستعانة أو التوكل ؛ فالتوكل من أهم علوم القلب وأعماله ؛ قال ابن القيم : (التوكل نصف الدين ؛ والنصف الثاني الإنابة ؛ فإن الدين استعانة وعبادة ؛ فالتوكل هو الاستعانة ، والإنابة هي العبادة)[(٢)] . وقد دلت النصوص على أهمية التوكل من جهات كثيرة سوى ما ذكر ؛ منها :-

١- قوله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ المائدة: ٢٣ ، وقوله : ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ يونس: ٨٤ ؛ فجعل التوكل على الله شرطا في الإيمان ، وشرطا في الإسلام ؛ فدل على انتفائهما عند انتفاء التوكل .

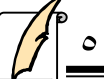
٢- قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾﴾ الأنفال: ٢ - ٤ ؛ فجعل التوكل على الله وحده من صفات أصحاب الإيمان الكامل ؛ المقتضي لحصول الثواب ، وانتفاء العقاب .

٣- أن الله أمر به في آيات كثيرة ؛ كقوله تعالى : ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٨١﴾﴾ النساء: ٨١ ، وقوله : ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴿٩﴾﴾ المزمل: ٩ ، وقوله : ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ آل عمران: ١٥٩ ، وقوله : ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ النمل: ٧٩ ؛ وكل ما أمر الله به فهو عبادة ؛ صرفه لله وحده إيمان توحيد ولغيره شرك وتنديد .

٤- أن الله أخبر عن رسله وأوليائه بأن التوكل ملجأهم ومعاذهم ، وبه انتصروا على أعدائهم ؛ قال تعالى : ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا

(١) مدارج السالكين ١ / ٧٤ . وانظر : مجموع الفتاوى ١٠ / ١٩٤ .

(٢) مدارج السالكين ٢ / ١١٣ .



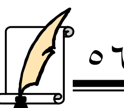
كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ الأعراف: ٨٨ – ٨٩ ، وقال : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ يونس: ٨٤ – ٨٦ ، وقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾ الممتحنة: ٤ ، وقال : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ الملك: ٢٨ – ٢٩ ، وقال : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ إبراهيم: ١١ – ١٢ ؛ ولكمال توكل خاتم النبيين ﷺ سماه الله تعالى المتوكل ؛ روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن هذه الآية التي في القرآن يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا قال في التوراة يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا وحرزا للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا .

معنى التوكل

التوكل هو اعتماد المرء على من يثق بكفايته . والتوكل على الله تعالى عبادة مركبة من مجموع أمرين :-

١- علم القلب ؛ وهو معرفة العبد بكفاية ربه ، وكمال قدرته وقيوميته وصفات كماله ؛ وكلما كان العبد بالله أعرف كان توكله على الله أكمل وأوثق ؛ لقوة علمه بأن الأمر كله لله ؛ وأن حاجات العباد كلها بيد الله وحده ، لا بيد أحد من العباد ؛ ولهذا لا يستقيم التوكل إلا لأهل الإثبات دون أهل التعطيل .

٢- عمل القلب ؛ وهو صدق اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار ؛ قال ابن القيم : (فإن قلت : فما معنى التوكل والاستعانة ؟ قلت : هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع والعطاء والمنع ، وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس ، فيوجب له هذا اعتمادا عليه ، وتفويضا إليه ، وطمأنينة به ،



وثقة به ، ويقينا بكفايته لما توكل عليه فيه وأنه ملي به ، ولا يكون إلا بمشيئته ، شاءه الناس أم أبوه ؛ فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مليان بهما ، فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه ، وحبس همه على إنزال ما ينويه بهما ؛ فهذه حال المتوكل ، ومن كان هكذا مع الله فالله كافيه ولا بد)[1]. وهذا الحال أو العمل القلبي عزيز في الناس ؛ فكثير منهم يقف عند الأمر الأول (علم القلب) ، ويظن أنه متوكل وهو ليس من أهل التوكل ؛ قال ابن القيم : (كثير من الناس يعرف التوكل وحقيقته وتفاصيله ؛ فيظن أنه متوكل ، وليس من أهل التوكل ! فحال التوكل أمر آخر من وراء العلم به ، وهذا كمعرفة المحبة والعلم بها وأسبابها ودواعيها ، وحال المحب العاشق وراء ذلك ، وكمعرفة علم الخوف ، وحال الخائف وراء ذلك ، وهو شبيه بمعرفة المريض ماهية الصحة وحقيقتها ، وحاله بخلافها !)[2] .

فضل التوكل

التوكل على الله أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار ؛ فمن توكل على الله حق توكله كفاه الله ؛ وجعل له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب . والأدلة على ذلك كثيرة ؛ منها :-

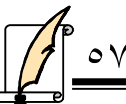
١- قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾الأنفال: ٦٤ ؛ أي أن الله وحده كافيك وكافي أتباعك ؛ فلا تحتاجون معه إلى أحد .

٢- قوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾الطلاق: ٣ ؛ أي كافيه ، ومن كان الله كافيه فلو كادته السموات بمن فيهن ، والأرضون بمن فيهن فإن الله يجعل له من ذلك مخرجا !!

٣- قوله تعالى : ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ آل عمران: ١٥٩؛ فالتوكل من الأعمال الصالحة التي يحبها الله تعالى ؛ ولهذا شرع التوسل بالتوكل ؛ روى البخاري بسنده عن ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَلَكَ الْحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ،

(١) مدارج السالكين ١ / ٨٢ .

(٢) مدارج السالكين ٢/ ١٢٥ .



وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ ، وَبِكَ خَاصَمْتُ ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَوْ لَا إِلَهَ غَيْرُكَ) .

٤- روى البخاري بسنده عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) ؛ فدل على عظم شأن كلمة التوكل ؛ وأنها قول الخليلين في الشدائد ! ونظير ذلك قول مؤمن آل فرعون : ﴿**وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾**﴾غافر: ٤٤ -٤٥ .

٥- روى الإمام أحمد وغيره بسند صحيح[١] عن عمر بن الخطاب ﷺ مرفوعا : (لو أنكم توكلون على الله تعالى حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ؛ تغدو خماصا وتروح بطانا) ؛ فصدق التوكل سبب للرزق ، وهو أيضا سبب للحفظ ؛ روى أبو داود وغيره بسند صحيح[٢] عن أنس ﷺ : (إذا خرج الرجل من بيته فقال : بسم الله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله . فيقال له حسبك ، قد هديت ، وكفيت ، ووقيت . فيتنحى له الشيطان ، فيقول له شيطان آخر : كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي)؛ وفوق ذلك كله فصدق التوكل سبب دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب ؛ ففي الصحيح عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : (خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ : عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ، وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ أُمَّتِي فَقِيلَ : هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ ، ثُمَّ قِيلَ لِي : انْظُرْ ؛ فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ فَقِيلَ لِي : انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ ، فَقِيلَ : هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ ، وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ! فَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَلَمْ يُبَيَّنْ لَهُمْ ، فَتَذَاكَرَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا : أَمَّا نَحْنُ فَوُلِدْنَا فِي الشِّرْكِ ، وَلَكِنَّا آمَنَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ هُمْ أَبْنَاؤُنَا فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ

---

(١) صحيح الجامع الصغير ، ح (٥٢٥٤) .

(٢) صحيح الجامع الصغير ، ح (٤٩٩) .

فَقَالَ : هُمْ الَّذِينَ لَا يَتَطَيَّرُونَ ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ ، وَلَا يَكْتَوُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

حكم التوكل على غير الله تعالى

التوكل على غير الله من أعظم أسباب الهلاك في الدنيا والآخرة ؛ فمن تعلق شيئا وكل إليه ؛ وهو قسمان :-

١- التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله ؛ كالتوكل في النصر ، أو الحفظ ، أو الرزق ؛ فهذا شرك أكبر .

٢- التوكل على الأحياء الحاضرين فيما أقدرهم الله عليه ؛ كمن يتوكل على مخلوق فيما أقدره الله عليه ؛ من رزق ، أو دفع أذى فهذا شرك أصغر . وهذا لا يعني تحريم الوكالة ، بل هي من جملة الأسباب ؛ والقاعدة في الأسباب أن للعبد أن يباشر النافع منها دون أن يعتمد عليه ؛ وإنما يكون اعتماده على الله وحده .

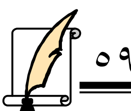
القيام بالأسباب مع التوكل

دلت النصوص على أن على المسلم أن يباشر الأسباب مع التوكل ؛ فيباشر النافع منها دون أن يعتمد عليه ؛ لأن اعتماد القلب روح التوكل ، والتوكل لا يكون إلا على الله وحده ؛ ومن ذلك :-

١- أن الله أمر بالتقوى والتوكل معا ؛ قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ المائدة: ١١ ؛ والتقوى اسم جامع لكل سبب شرعي نافع .

٢- أن النبي ﷺ أعظم المتوكلين ، ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب ؛ فكان يأخذ الزاد في السفر ، وظاهر بين درعين يوم أحد ، واستأجر دليلا يدله على طريق الهجرة ، وكان يدخر لأهله قوت سنة .

٣- أن الله تعالى حث على فعل الأسباب النافعة ؛ قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ الأنفال: ٦٠ ، وقال : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ الجمعة: ١٠ ؛ وكذلك النبي ﷺ حث على فعل الأسباب النافعة ؛ روى أحمد وغيره بسند صحيح عن أسامة بن شريك رضي الله عنه



مرفوعا : (تداووا عبـاد الله ، فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء ، غـير داء واحـد ؛ الهرم)[١] ، وروى الحاكم بسند صحيح[٢] عن ابن مسعود ﷺ مرفوعا : (إن الله تعالى لم يـنزل داء إلا أنزل له شفاء إلا الهرم ؛ فعليكم بألبان البقر ؛ فإنها ترم من كل شجر) . والواجب علـى المسلم في باب التوكل والأسباب ثلاثة أمور :-

أ- ألا يجعل شيئا سببا لشيء إلا بدليل من الشرع أو التجربة الصحيحة .

ب- أن يباشر السبب النافع دون أن يعتمد عليه ؛ ويكون اعتماده على الله وحده .

ج- أن يعتقد أن تأثير السبب مشروط بمشيئة الله وحده ؛ إن شاء أبقاه على تأثيره ؛ ليعلم العباد بذلك كمال حكمته في ربط المسببات بأسبابها ، وإن شاء صرفه عن ذلك ليظهر لعباده كمـال قدرته[٣] .

متعلق التوكل

التوكل من أوسع العبادات ؛ لسعة متعلقه ؛ ووقوعه من الأبرار والفجار ؛ فالخلق كلهم في مقام التوكل ، وإن تباين متعلق توكلهم ؛ فخاصة الله من أوليائه يتوكلون عليه في نصرة دينه ، وإعلاء كلمته ، وجهاد أعدائه . ودون هؤلاء من يتوكل على الله في استقامة نفسه ، وحفظ حاله مـع الله . ودون ذلك من يتوكل على الله في حصول رزق ، أو عافية ، أو زوجة ، أو ولد . وأفضل التوكل توكل الأنبياء وورثتهم ؛ وهو التوكل على الله في إقامة دينه ، ودفع فساد المفسدين . قال ابن القيم : (حال النبي ﷺ وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها ، بها يعلـم صـحيحها مـن سقيمها ؛ فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من بعدهم ؛ فإن توكلهم كـان في فـتح بصائر القلوب ، وأن يعبد الله في جميع البلاد ، وأن يوحده جميع العباد ، وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد ، فملؤا بذلك التوكل القلوب هدى وإيمانا ، وفتحـوا بـلاد الكفـر ، وجعلوها دار إيمان ، وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم ، فملأتها يقينـا وإيمانا ، فكـانت همم الصحابة رضى الله عنهم أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكلـه

(١) صحيح الجامع الصغير ، ح (٢٩٣٠) .

(٢) صحيح الجامع الصغير ، ح (١٨١٠) .

(٣) انظر : القول السديد ، ص (٤١ ، ٤٢) .

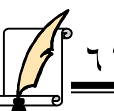
واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعى ، فيجعله نصب عينيه ويحمل عليه قوى توكله)[1] ؛ ولهذا فكثير من المتوكلين يكون مغبونا في توكله ؛ كمن يصرف كبر توكله في وجع ، أو جوع ، أورزق مضمون ، ويدع التوكل في زيادة الإيمان والعلم ، ونصرة الدين وقمع المبتدعين ، وتحقيق مصالح المسلمين[2] . والله أعلم[3] .

****

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٣٥ .

(٢) انظر : مدارج السالكين ٢ / ١١٢ – ١٣٨ .

(٣) انظر في العبادة والاستعانة : مجموع الفتاوى ١٠ / ١٤٩ – ٢٣٦ ، مدارج السالكين ٢ / ١١٢ – ١٥٢ ، فتح المجيد ، ص (٣٦٦– ٣٧٢) ، قرة عيون الموحدين ، ص (١٧٢ – ١٧٥) ، حاشية ابن قاسم ، ص (٢٥١ – ٢٥٥) .



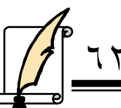
المحبة والخوف والرجاء

الدين قول وعمل ؛ والتصديق أصل الأقوال ، والمحبة أصل الأعمال ؛ فمحبة الله تعالى أصل كل عمل من أعمال الدين ؛ فمن جعل لله شريكا في محبتة فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه ؛ قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ البقرة: ١٦٥ - ١٦٧ ؛ والمحبة التي يتعين تعلقها بالله وحده هي المحبة الخاصة ؛ المستلزمة للذل والخضوع ، وكمال الطاعة والإيثار ؛ وتسمى محبة التأله ؛ وهي أكمل أنواع الحب القلبي وأعلى مراتبه ، ومحبة التأله هي حقيقة الشهادة ؛ لأن إله بمعنى مألوه ؛ والمألوه هو الذي تألهه القلوب ؛ أي تحبه الحب التام ، مع الذل التام . وعلامة صدق هذه المحبة اتباع الرسول ﷺ ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ آل عمران: ٣١ ؛ قال ابن القيم : (بحسب هذا الاتباع يكون منشأ هذه المحبة وثباتها وقوتها ، وبحسب نقصانه يكون نقصانها ؛ فهذا الاتباع يوجب المحبة والمحبوبية معا ، ولا يتم الأمر إلا بهما ، فليس الشأن في أن تحب الله ، بل الشأن في أن يحبك الله ، ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهرا وباطنا ، وصدقته خبرا ، وأطعته أمرا ، وأجبته دعوة ، وآثرته طوعا ، وفنيت عن حكم غيره بحكمه ، وعن محبته غيره من الخلق بمحبته ، وعن طاعة غيره بطاعته ، وإن لم يكن ذلك فلا تتعن ، وارجع من حيث شئت فالتمس نورا ، فلست على شيء !)[1] . ومحبة الله تعالى تستلزم محبة كل ما يحبه الله تبارك وتعالى من الأشخاص ، والأعمال ، والأمكنة ، والأزمنة ؛ ويدخل في ذلك أصول عظيمة ؛ منها :-

١- محبة الرسول ﷺ ؛ روى البخاري بسنده عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) ، وروى بسنده عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ هِشَامٍ رضي الله عنه قَالَ : (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ،

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ٣٧ .



حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ ! فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : الْآنَ يَا عُمَرُ) ؛ وعلامة صدق محبة الرسول ﷺ تصديق خبره ، وطاعة أمره ، وتقديم قوله على قول غيره ؛ قال ابن قاسم : (محبته ﷺ إنما يصدقها تجريد التوحيد الذي بعث من أجله ، وتجريد المتابعة ، وتقديم محبته على النفس والمال والولد والناس أجمعين ، والثناء عليه بما أثنى به عليه ربه ، أو أثنى به هو على نفسه ، من غير غلو ولا تقصير)[1] .

٢- موالاة المؤمنين ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾التوبة: ٧١ ، وذلك بالتواد والتراحم والتناصر والتعاضد على الحق ؛ روى البخاري بسنده عن عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ ؛ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ؛ وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ) ، وروى مسلم بسنده عن عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) ، وروى مسلم بسنده عَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قال : (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ ؛ مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ) ، وروى البخاري بسنده عَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) ؛ والمراد من نفي الإيمان في هذا الحديث ونظائره نفي كمال الإيمان الواجب خلافا لما هو شائع من أن المراد نفي كماله المستحب ؛ فهذا النفي لم يقع قط في كلام الله ورسوله ؛ كما نبه على ذلك شيخ الإسلام[2] ؛ فمن لم يصل في محبة المؤمنين إلى هذه الغاية فهو من أهل الوعيد ! وإذا علا إيمان المرء تجاوز هذه الدرجة في المحبة فآثر أخاه على نفسه ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾الحشر: ٩ . ولمحبة الله تعالى أسباب تقويها وتنميها ؛ وهي :-

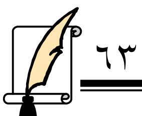
أحدها : قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به .

الثاني : التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض .

---

(١) حاشية كتاب التوحيد ، ص (١٥١) .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ٧ / ١٥ .



الثالث : دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال ، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر .

الرابع : إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى .

الخامس : مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها ، وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها ؛ فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة ؛ ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول للمحبوب !

السادس : مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الظاهرة والباطنة ؛ فإنها داعية إلى محبته .

السابع : - وهو من أعجبها - انكسار القلب بين يدي الله تعالى .

الثامن : الخلوة وقت النزول الإلهي ؛ لمناجاته وتلاوة كتابه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة .

التاسع : مجالسة المحبين الصادقين ، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم ، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيدا لحالك ومنفعة لغيرك .

العاشر : مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل[1] .

ولمحبة الله تعالى ثمرات عظيمة ؛ منها :-

١- الفوز بمحبة الله تعالى ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ آل عمران: ٣١ ؛ قال ابن القيم : (يحببكم الله إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها ؛ فدليلها وعلامتها اتباع الرسول ، وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم ؛ فما لم تحصل المتابعة فليست محبتكم له حاصلة ، ومحبته لكم منتفية)[2] .

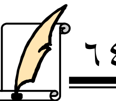
٢- معية الله ورسوله ؛ روى البخاري بسنده عَنْ أَنَسٍ ﷺ (أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ السَّاعَةِ فَقَالَ : مَتَى السَّاعَةُ ؟ قَالَ : وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟ قَالَ : لَا شَيْءَ ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ فَقَالَ : أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ . قَالَ أَنَسٌ : فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ) .

٣- ذوق حلاوة الإيمان ؛ روى مسلم بسنده عَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قال : (ثَلَاثٌ مَنْ

---

(١) مدارج السالكين ٣ / ١٧ ، ١٨ .

(٢) مدارج السالكين ٣ / ٢٢ .



كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ ؛ مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ) .

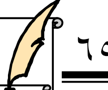
٤- دفاع الله عن عبده ، وتسديده في سمعه وبصره وفعله ، وإجابة دعوته واستعاذته ؛ روى البخاري بسنده عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنَّ اللَّهَ قَالَ : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ ؛ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ) .

٥- محبة الملأ الأعلى ، ووضع القبول في الأرض ، روى البخاري بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ ؛ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ) .

ومن أهم ما ينشأ عن المحبة من أعمال القلوب الخوف والرجاء ؛ لأن الراجي إنما يطمع فيما يحب ، والخائف إنما يفر مما يخاف لينال ما يحب[1] .

والخوف من أعظم أعمال القلوب وأجلها ، وإخلاص هذه العبادة فرض على كل مسلم ؛ قال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ الرحمن: ٤٦ ، وقال : ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾ النحل: ٥١ ، وقال : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ المائدة: ٤٤ ، وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ الملك: ١٢ ؛ وقال : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ التوبة: ١٨ ، وقال : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ النور: ٣٧ .

(١) انظر : مجموع الفتاوى ١٠ / ٦١ .



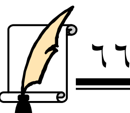
والخوف المحمود ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ؛ فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط ؛ قال تعالى : ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ الحجر: ٥٦ ، والقنوط أشد اليأس ؛ روى ابن جرير بسند صحيح[١] عن ابن مسعود ﷺ قال : (أكبر الكبائر الاشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله) . قال ابن سعدي : (للقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران ؛ أحدهما : أن يسرف العبد على نفسه ، ويتجرأ على المحارم ، فيصر عليها ويصمم على الإقامة على المعصية ، ويقطع طمعه من رحمة الله ، لأجل أنه مقيم على الأسباب التي تمنع الرحمة ، فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفا وخلقا لازما ، وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد ، ومتى وصل إلى هذا الحد لم يرج له خير إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوي . الثاني : أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم ، ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة ، ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب ، وتضعف إرادته فييأس من الرحمة ، وهذا من المحاذير الضارة الناشئة من ضعف علم العبد بربه ، وماله من الحقوق ، ومن ضعف النفس وعجزها ومهانتها . فلو عرف هذا ربه ولم يخلد إلى الكسل ، لعلم أن أدنى سعي يوصله إلى ربه ، وإلى رحمته وجوده وكرمه)[٢] .

وهكذا الرجاء من أفضل العبادات وأجلها ؛ ولا يجوز أن ينفك عنه العبد لا في حال الإحسان ولا في حال الإساءة ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ البقرة: ٢١٨ ، وقال : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الزمر: ٥٣ ؛ قال ابن القيم : (الرجاء ثلاثة أنواع : نوعان محمودان ، ونوع غرور مذموم ؛ فالأولان ؛ رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله ، فهو راج لثوابه . ورجل أذنب ذنوبا ثم تاب منها ، فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه . والثالث : رجل متماد في التفريط والخطايا

---

(١) انظر : النهج السديد ، ص (١٩٦) .

(٢) القول السديد ، ص (١٢٠ ، ١٢١) .

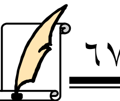


يرجو رحمة الله بلا عمل فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب)[١]. والرجاء المذموم من الأمن من مكر الله ؛ قال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ الأعراف: ٩٩ ، قال ابن سعدي : (للأمن من مكر الله سببان مهلكان ؛ احدهما : إعراض العبد عن الدين وغفلته عن معرفة ربه وماله من الحقوق ، وتهاونه بذلك فلا يزال معرضا غافلا مقصرا عن الواجبات ، منهمكا في المحرمات ، حتى يضمحل خوف الله من قلبه ، ولا يبقى في قلبه من الإيمان شيء ؛ لأن الإيمان يحمل على خوف الله وخوف عقابه الدنيوي والأخروي . السبب الثاني : أن يكون العبد عابدا جاهلا معجبا بنفسه ، مغرورا بعمله ، فلا يزال به جهله حتى يدل بعمله ، ويزول الخوف عنه ، ويرى أن له عند الله المقامات العالية ، فيصير آمنا من مكر الله ، متكلا على نفسه الضعيفة المهينة ، ومن هنا يخذل ويحال بينه وبين التوفيق ، إذ هو الذي جنى على نفسه)[٢].

والحب والخوف والرجاء أساس كل عبادة ؛ قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ الإسراء: ٥٧ ؛ قال ابن القيم : (ابتغاء الوسيلة إليه : طلب القرب منه بالعبودية والمحبة ؛ فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه : الحب ، والخوف ، والرجاء)[٣] ؛ فالموحد لابد أن يعبد الله ؛ حبا وخوفا ورجاء ؛ قال مكحول الدمشقي : (من عبد الله بالخوف فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء فهو مرجئ ، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد) ؛ وقال ابن القيم : (القلب في سيره إلى الله عز و جل بمنزلة الطائر ؛ فالمحبة رأسه ، والخوف والرجاء جناحاه ؛ فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران ، ومتى قطع الرأس مات الطائر ، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر ! ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء ، وعند الخروج من الدنيا

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٣٦ .
(٢) القول السديد ، ص (١٢١ ، ١٢٢) .
(٣) مدارج السالكين ٢ / ٣٥ .

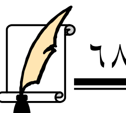


يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف)[١] . ودليل استحباب تغليب الرجاء عند الاحتضار ماروواه مسلم بسنده بسنده عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ : لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)[٢] .

****

(١) مدارج السالكين ١/ ٥١٧ .

(٢) انظر في المحبة والخوف والرجاء : مدارج السالكين ١ / ٥١١ - ٥٢٠ ، ٢ / ٣٥ - ٥٥ ، ٣ / ٦ - ٤٢ ، فتح المجيد ، ص (٣٤٥ – ٣٦٦ ، ٣٧٢ – ٣٧٦) ، القول المفيد ٢ / ١٤٠ - ١٨٥ ، ٢٠١ - ٢١١ .



الصبر والشكر

الصبر والشكر أصلان عظيمان من أصول الإيمان والتقوى والعبادة ، حتى قال غير واحد من السلف : الصبر نصف الإيمان . وقال عبد الله بن مسعود ﷺ : الإيمان نصفان ؛ نصف صبر ، ونصف شكر . وقد ذكر لهذا التنصيف عدة اعتبارات ؛ منها : -

١- أن الإيمان شطران ؛ فعل المأمور وترك المحظور ؛ ففعل الطاعة هو الشكر ، وترك المعصية هو الصبر .

٢- أن الإيمان رغبة ورهبة ؛ والرهبة تحمل على الصبر ، والرغبة تقود إلى الشكر .

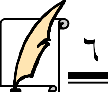
٣- أن في العبد داعيان ؛ داع لشهوات الدنيا ، وداع لنعيم الآخرة ؛ فعصيان داعي الشهوات هو الصبر ، وإجابة داعي النعيم هو الشكر[1] . وأما القول بأن التوكل نصف الدين ؛ والنصف الثاني الإنابة ؛ فهذا التنصيف باعتبار أن الدين إما غاية أو وسيلة ؛ فالعبادة أو الإنابة غاية العباد التي خلقوا لها ، والاستعانة أو التوكل وسيلة إليها[2] .

وقد اختلف العلماء في التفضيل بين الصبر والشكر ؛ فقيل : إن الصبر أفضل ؛ لأن النصوص الواردة في فضله أضعاف النصوص الواردة في فضل الشكر ؛ ولأن الله علق على الشكر الزيادة ؛ فقال : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ إبراهيم: ٧ ، وعلق على الصبر الجزاء بغير حساب ؛ فقال : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ الزمر: ١٠ ، وأيضا فإنه أطلق جزاء الشاكرين ، وقيد جزاء الصابرين بالإحسان ؛ قال تعالى : ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ آل عمران: ١٤٤ ، وقال : ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ النحل: ٩٦ . وقيل : إن الشكر أفضل ؛ لأن الشكر مراد لنفسه ، والصبر مراد لغيره ، ولأن الشكر غاية خلق الله وأمره ؛ قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ النحل: ٧٨ ، وقال : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ آل عمران: ١٢٣ . وقيل : إن الصبر والشكر سواء ، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ : لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت . وهذا هو

---

(١) انظر : عدة الصابرين ، ص (١٤٠ - ١٤٤) .

(٢) انظر : مدارج السالكين ١ / ٧٥ ، ٢ / ١١٣ .

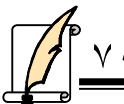
الظاهر ؛ لأن الصبر والشكر متلازمتان في الحقيقة ؛ فالشكر هو العمل بطاعة الله وترك معصيته ؛ وهذا لا يكون إلا بالصبر ؛ فمتى تجرد الشكر عن الصبر بطل كونه شكرا ، وإذا تجرد الصبر عن الشكر بطل كونه صبرا ، قال ابن القيم : (الصبر والشكر حالتان لازمتان للعبد فى أمر الرب ونهيه وقضائه وقدره ، لا يستغنى عنهما طرفة عين ، والسؤال عن أيهما أفضل ؛ كالسؤال عن الحس والحركة أيهما أفضل ، وعن الطعام والشراب أيهما أفضل ، وعن خوف العبد ورجائه أيهما أفضل ؛ فالمأمور لا يؤدى إلا بصبر وشكر ، والمحظور لا يترك إلا بصبر وشكر ، وأما المقدور الذى يقدر على العبد من المصائب فمتى صبر عليه اندرج شكره فى صبره ، كما يندرج صبر الشاكر فى شكره)[١] . وقال : (الغنى والفقر والبلاء والعافية فتنة وابتلاء من الله لعبده ، ولا بد لكل مؤمن منهما ، وكل منهما فى موضعه أفضل ؛ فالصبر فى مواطن الصبر أفضل ، والشكر فى مواضع الشكر أفضل ، هذا إن صح مفارقة كل واحد منهما للآخر ، وأما إذا كان الصبر جزء مسمى الشكر ، والشكر جزء مسمى الصبر ، وكل منهما حقيقة مركبة من الأمرين معا كما تقدم بيانه فالتفضيل بينهما لا يصح ، إلا اذا جرد أحدهما عن الاخر ، وذلك فرض ذهنى يقدره الذهن ولا يوجد فى الخارج !)[٢] .

معنى الصبر

الصبر لغة أصله المنع والحبس ، يقال : صبرت فلانا إذا حبسته ، وقيل : إن أصله من الشدة والقوة ؛ ومنه الصبر ؛ لشدة مرارته . وقيل : إنه مأخوذ من الجمع والضم ؛ ومنه صبرة الطعام .
واصطلاحا عرفه ابن القيم بأنه : حبس النفس عن الجزع ، واللسان عن التشكي ، والجوارح عن لطم الخدود ، وشق الثياب ، ونحوها[٣] . وهذا إنما يصدق على نوع من الصبر وهو الصبر على المقدور دون الصبر على فعل الطاعة وترك المعصية ! والصبر أوسع من ذلك ؛ فهو اسم جامع لحبس النفس عن الجزع من الأقدار ، وحبسها على أداء الطاعة وترك المعصية ؛ ولهذا يرتبط الصبر بمقامات الدين من أولها إلى آخرها ؛ فالصبر مثلا عن شهوة الفرج يسمى عفة ، وعن

---

(١) عدة الصابرين ، ص (١٩٢ ، ١٩٣) .
(٢) عدة الصابرين ، ص (٢١٥ ، ٢١٦) .
(٣) انظر : عدة الصابرين ، ص (٢٧ ، ٣٢٣) ، مدارج السالكين ٢ / ١٥٦ .



فضول العيش زهدا ، وعن داعي الغضب حلما ، وعن داعي العجلة ثباتا ، وعن داعي الإمساك جودا[١] .

أنواع الصبر

الصبر ثلاثة أنواع : -

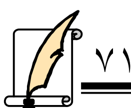
١- الصبر على طاعة الله حتى يؤديها .

٢- الصبر عن معصية الله حتى لا يقع فيها .

٣- الصبر على الأقدار حتى لا يتسخطها . والنوعان الأولان أكمل من الثالث ؛ لأنهما يتعلقان بالكسب والاختيار ، وصبر العبد على ما تعلق بكسبه أكمل من صبره على ماليس من كسبه ؛ قال ابن القيم : (سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : كان صبر يوسف عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه ؛ فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره ، لا كسب له فيها ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر ، وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضى ومحاربة للنفس ، ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة ؛ فإنه كان شابا وداعية الشباب إليها قوية ، وعزبا ليس له ما يعوضه ويرد شهوته ، وغريبا والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله ، ومملوكا والمملوك أيضا ليس وازعه كوازع الحر ، والمرأة جميلة وذات منصب وهي سيدته ، وقد غاب الرقيب ، وهي الداعية له إلى نفسها ، والحريصة على ذلك أشد الحرص ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار ، ومع هذه الدواعي كلها صبر ؛ اختيارا ، وإيثارا لما عند الله ! وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه)[٢] . وقال : (الصبر على طاعته والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على أقداره ، كما ذكرنا في صبر يوسف عليه السلام ؛ فإن الصبر فيها صبر اختيار وإيثار ومحبة ، والصبر على أحكامه الكونية صبر ضرورة ، وبينهما من البون ما قد عرفت ، وكذلك كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام على ما نالهم في الله باختيارهم وفعلهم ومقاومتهم قومهم أكمل من صبر أيوب عليه السلام على ما ناله

(١) عدة الصابرين ، ص (٣٤ ، ٣٥) .

(٢) مدارج السالكين ٢ / ١٥٦ .



في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسببا عن فعله ، وكذلك كان صبر إسماعيل الذبيح ، وصبر أبيه إبراهيم عليهما السلام على تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب على فقد يوسف)[١] .

والصبر على أداء الطاعة أكمل من الصبر على اجتناب المعصية ؛ لأن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية ؛ قال ابن القيم : (هذا هو الصواب ؛ فإن ترك المعصية إنما كان لتكميل الطاعة ، والنهي مقصود للأمر ؛ فالمنهي عنه لما كان يضعف المأمور به وينقصه نُهي عنه ؛ حماية وصيانة لجانب الأمر ؛ فجانب الأمر أقوى وآكد ؛ وهو بمنزلة الصحة والحياة ، والنهي بمنزلة الحمية التي تراد لحفظ الصحة وأسباب الحياة)[٢] . وقيل : إن الصبر عن المخالفات أفضل ؛ لأنه أشق وأصعب ؛ فأعمال البر يعملها البر والفاجر ، ولا يصبر عن المخالفات إلا الصديقون . والأول أظهر ؛ وقد انتصر له ابن القيم من عشرين وجها[٣] !!

فضل الصبر

الصبر من أعظم العبادات ، وقد ذكر في القرآن في نحو تسعين موضعا ؛ قال ابن القيم : (وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعا :-

الأول : الأمر به ؛ نحو قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة) ، وقوله : (واستعينوا بالصبر والصلاة) ، وقوله : (اصبروا وصابروا) ، وقوله : (واصبر وما صبرك إلا بالله) .

الثاني : النهي عن ضده كقوله : (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم) ، وقوله : (ولا تولوهم الأدبار) ؛ فإن تولية الأدبار ترك للصبر والمصابرة ، وقوله : (ولا تبطلوا أعمالكم) ؛ فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها ، وقوله : (فلا تهنوا ولا تحزنوا) ؛ فإن الوهن من عدم الصبر .

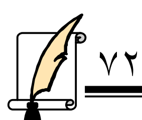
الثالث : الثناء على أهله ؛ كقوله تعالى : (الصابرين والصادقين الآية) ، وقوله : (والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) ؛ وهو كثير في القرآن .

---

(١) المرجع السابق ٢ / ١٦٩ .

(٢) المرجع السابق ٢ / ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٣) انظر : عدة الصابرين ، ص (٥٦ - ٦٥) ، مدارج السالكين ٢ / ١٥٧ ، ١٦٥ .



الرابع : إيجابه سبحانه محبته لهم ؛ كقوله : (والله يحب الصابرين) .

الخامس : إيجاب معيته لهم ؛ وهي معية خاصة ؛ تتضمن حفظهم ، ونصرهم ، وتأييدهم ، ليست معية عامة ؛ وهي معية العلم والإحاطة كقوله : (واصبروا إن الله مع الصـــــابرين) ، وقوله : (والله مع الصابرين) .

السادس : إخباره بأن الصبر خير لأصحابه ؛ كقوله : (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) ، وقوله : (وأن تصبروا خير لكم) .

السابع : إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم ؛ كقوله تعالى : (ولنجزين الذين صـــبروا أجـــرهم بأحسن ما كانوا يعملون) .

الثامن : إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب ؛ كقوله تعالى : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حســـاب) .

التاسع : إطلاق البشرى لأهل الصبر ؛كقوله تعالى : (ولنبلونكم بشيء من الخـــوف والجـــوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين) .

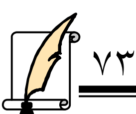
العاشر : ضمان النصر والمدد لهم ؛كقوله تعالى : (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) ، ومنه قول النبي ﷺ واعلم أن النصـــر مـــع الصبر .

الحادى عشر : الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم ؛ كقوله تعالى : (ولمـــن صـــبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) .

الثاني عشر : الإخبار أنه ما يلقى الأعمال الصالحة ، وجزاءها ، والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر ؛ كقوله تعالى : (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون) ، وقوله : (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) .

الثالث عشر : الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر ؛ كقوله تعالى لموســـى عليه السلام: (أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) ، وقوله في أهل سبأ : (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكـــل صـــبار شكور) ، وقوله في سورة الشورى : (ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) .

الرابع عشر : الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب والنجاة من المكروه المرهوب ودخول الجنة إنمـــا



نالوه بالصبر ؛ كقوله تعالى : (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بمـا صـبرتم فنعم عقبى الدار) .

الخامس عشر : أنه يورث صاحبه درجة الإمامة ؛ سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ثم تلا قوله تعالى : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانو بآياتنا يوقنون) .

السادس عشر : اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان كلها ؛ فقرنه بالصلاة كقولـه : (واسـتعينوا بالصبر والصلاة) ، وقرنه بالأعمال الصالحة عموما كقوله : (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) وجعله قرين التقوى ؛ كقوله : (إنه من يتق ويصبر) ، وجعله قرين الشكر كقولـه: (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) ، وجعله قرين الحق كقوله : (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) ، وجعله قرين الرحمة ؛ كقوله : (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) ، وجعله قـرين الـيقين كقوله : (لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) ، وجعله قرين الصدق ؛ كقولـه : (والصـادقين والصادقات والصابرين والصابرات) ؛ ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا إيمان لمن لا صبر له ، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له . وقال عمر بن الخطاب ﷺ : خير عـيش أدركناه بالصبر . وأخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح : أنه ضياء ، وقال : من يتصبر يصبره الله وفي الحديث الصحيح : عجبا لأمر المؤمن ! إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له !

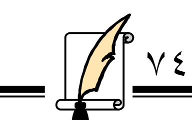
وقال للمرأة السوداء التي كانت تصرع فسألته : أن يدعو لها : إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك ؛ فقالت : إني أتكشف ؛ فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها . وأمـر الأنصار رضي الله تعالى عنهم بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده حتى يلقوه على الحوض .

وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر ، وأمر بالصبر عند المصيبة وأخبرأنه إنما يكون عند الصدمة الأولى .

وأمر المصاب بأنفع الأمور له وهو الصبر والاحتساب ؛ فإن ذلك يخفف مصيبته ، ويوفر أجـره والجزع والتسخط والتشكي يزيد في المصيبة ، ويذهب الأجر . وأخبر أن الصبر خير كله فقال : ما أعطي أحد عطاء خيرا له وأوسع من الصبر)[١] .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٥٣ - ١٥٥ (بتصرف يسير) . وانظر : عدة الصابرين ، ص (٩٨ - ١٠٣) .



الصبر على المقدور

هذا النوع أشهر أنواع الصبر ؛ وهو من أسباب هداية القلب ؛ قال تعالى :﴿ **مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ** ﴾التغابن: ١١ ؛ أي من أصابته مصيبه فعلم أنها بقدر الله فصبر واحتسب هدى الله قلبه وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه ، ويقينا صادقا[١] . ويمكن حده بما قالــه ابن القيم : (بأنه حبس النفس عن الجزع ، واللسان عن التشكي ، والجوارح عن لطم الخدود ، وشق الثياب ، ونحوها)[٢] . وهو شاق على النفوس لا يبلغه العبد إلا بعون الله وتوفيقه ؛ قــال تعالى : ﴿ **وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ** ﴾النحل: ١٢٧ ؛ يعني إن لم يصبرك الله لم تصبر . وهذا الحــبس أو الصبر لا يجدي على أهله شيئا إلا إذا كان الباعث على فعله إرادة وجه الله لا إظهار قوة الــنفس والاستحماد إلى الخلق[٣] .

وقد رغب الشرع في الصبر على الأقدار بطرق كثيرة ؛ منها :-

١- وعد أهله بثلاث عدات ؛ كل عدة منها خير من الدنيا وما عليها ؛ قــال تعــالى : ﴿**وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾** ﴾ البقرة: ١٥٥ – ١٥٧ ؛ فجمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم ؛ وهي صلاة الله عليهم ، ورحمته ، وهدايته[٤] .

٢- وعد أهله بالخلف بخير مما فات ؛ روى مسلم بسنده عن أم سلمة رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ : (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ ؛ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي ، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا ، إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا . قَالَتْ : فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ : أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ ؛ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ! ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا ؛ فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ) .

٣- وعد أهله بالجنة ؛ روى البخاري بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَــــالَ :

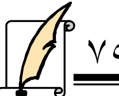
---

(١) انظر : فتح المجيد ، ص (٣٧٧) .

(٢) انظر : عدة الصابرين ، ص (٣٢٣)

(٣) انظر : مدارج السالكين ٢ / ١٥٧ .

(٤) انظر : عدة الصابرين ، ص (٩٩) .



(يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلَّا الْجَنَّةُ) ، وروى الترمذي وغيره بسند حسن[1] عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (إذا مات ولد لعبد قال الله عز وجل لملائكته : قبضتم ولد عبدي ، فيقولون : نعم ، فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ، فيقولون : نعم ، فيقول : ماذا قال عبدي ، فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول : ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد) ، وروى البخاري عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَا مِنْ النَّاسِ مُسْلِمٌ يَمُوتُ لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنْ الْوَلَدِ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ) ، وروى بسنده عن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (لَا يَمُوتُ لِرَجُلٍ ثَلَاثَةٌ مِنْ الْوَلَدِ فَيَلِجَ النَّارَ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ) .

٤- أن المصائب تكفر من الخطايا ؛ وقد تأتي عليها جميعا ؛ روى البخاري بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ) ، وروى الترمذي بسند صحيح[2] عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة !) ؛ فالمصائب مكفرات ، وتكون مثيبات بالصبر والاحتساب ؛ فمن صبره الله كانت المصائب في حقه مكفرات ومثيبات ؛ روى مسلم بسنده عن عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً أَوْ حَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً) ؛ ولهذا كان أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ؛ روى الإمام أحمد بسند صحيح[3] عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال قلت : (يا رسول الله أي الناس أشد بلاء ؟ قال الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل من الناس ؛ يبتلى الرجل على حسب دينه ؛ فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينة رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة) ، وروى الترمذي بسند حسن[4]

---

(١) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٧٩٥) .

(٢) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٥٨١٥) .

(٣) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٩٩٢) .

(٤) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٢١١٠) .

عن أنس ﷺ مرفوعا : (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، و إن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم ؛ فمن رضي فله الرضا و من سخط فله السخط) ، وروى الترمذي وغيره بسند صحيح[١] عن أنس ﷺ مرفوعا : (إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، و إذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة) ، وروى البخاري في الأدب المفرد بسند حسن[٢] صحيح عن أبي هريرة ﷺ قال : (جاء أعرابيّ ، فقال النبي : ﷺ : هل أخذتك أم ملدم ؟ قال : وما أمّ ملدم ؟ قال : حرّ بين الجلد واللحم . قال : لا. قال : فهل صدعت ؟ قال : وما الصداع ؟ قال : ريح تعترض في الرأس ، تضرب العروق . قال : لا. قال : فلما قام قال : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل النار ؛ أي : فلينظره) ؛ ولهذا كان السلف الصالح يسيئون الظن بمن لا يصيبه البلاء ؛ حتى إن خالد بن الوليد ﷺ طلق امرأة له ، ثم أحسن عليها الثناء ! فقيل : له يا أبا سليمان ! لأى شيء طلقتها ؟ قال : ما طلقتها لأمر رابنى منها ، ولا ساءنى ، ولكن لم يصبها عندى بلاء !)[٣] .

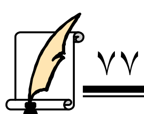
قوادح الصـــبر

يقدح في الصبر على المقدور أمور كثيرة ؛ منها :-

١- النياحة على الميت ؛ روى مسلم بسنده عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (اثنتان في الناس هما بهم كفر ؛ الطعن في النسب ، والنياحة على الميت) ؛ وروى أحمد وغيره بسند صـــحيح[٤] عـــن أبي مالك الأشعري ﷺ مرفوعا : (أربع بقين في أمتي من أمر الجاهلية ليســوا بتاركيهـــا ؛ الفخـــر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة على الميت ، وإن النائحة إذا لم تتب قبل الموت جاءت يوم القيامة عليها سربال من قطران و درع من لهب النار) . والنياحة هي رفع الصوت بالندب وتعداد فضائل الميت ؛ وهي من الكبائر ، وقد يعذب الميت بسببها ؛ لما ثبت في الصحيح عن المغيرة بن شعبة ﷺ مرفوعا : (من نيح عليه يعذب بما نيح عليه) ، وروى

---

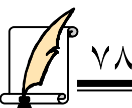
(١) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٣٠٨) .
(٢) انظر : صحيح الأدب المفرد ، ح (٣٨١) .
(٣) انظر : عدة الصابرين ، ص (١٢٣) .
(٤) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٨٧٥) .



الإمام أحمد بسند حسن[١] عن أبي موسى ﷺ مرفوعا : (الميت يعذب ببكاء الحي إذا قالوا : واعضداه ! وا كاسياه ! وا ناصراه ! وا جبلاه ! و نحو هذا يتعتع و يقال : أنت كذلك ؟ ! أنت كذلك ؟ !) ، وروى البخاري بسنده عن النعمان بن بشيرﷺ قال : (أغمي على عبد الله بن رواحة ﷺ ، فجعلت أخته عمرة تبكي : واجبلاه ، واكذا ، واكذا ، تعدد عليه ، فقال حين أفاق : ما قلت شيئا إلا قيل لي : أنت كذلك !؟ فلما مات لم تبك عليه) . وقد اختلف العلماء في توجيه مؤاخذة الميت بعمل الحي ؛ فقيل : إن ذلك محمول على من أوصى بالبكاء عليه ، أو على من كان ذلك من سنة قومه و لم ينههم عن ذلك ، أو أن الأحاديث دلت على العذاب ، وهو أعم من العقاب ، والأعم لا يستلزم الأخص ؛ قال ابن القيم : (وليس في هذه الأحاديث بحمد الله إشكال ، ولا مخالفة لظاهر القرآن ، ولا لقاعدة من قواعد الشرع ، ولا تتضمن عقوبة الانسان بذنب غيره ؛ فإن النبي ﷺ لم يقل إن الميت يعاقب ببكاء أهله عليه ونوحهم ، وإنما قال يعذب بذلك ، ولا ريب أن ذلك يؤلمه ويعذبه ، والعذاب هو الألم الذى يحصل له ، وهو أعم من العقاب ، والأعم لا يستلزم الاخص وقد قال النبي ﷺ : السفر قطعة من العذاب ، وهذا العذاب يحصل للمؤمن والكافر ، حتى إن الميت ليتألم بمن يعاقب في قبره في جواره ، ويتأذى بذلك كما يتأذى الانسان في الدنيا بما يشاهده من عقوبة جاره ، فإذا بكى أهل الميت عليه البكاء المحرم ؛ وهوالبكاء الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه ؛ والبكاء على الميت عندهم اسم لذلك ، وهو معروف في نظمهم ونثرهم ، تألم الميت بذلك في قبره ، فهذا التألم هو عذابه بالبكاء عليه ، وهذه طريقة شيخنا في هذه الأحاديث وبالله التوفيق)[٢] . ولكن في الأحاديث دلالة على قدر زائد على التألم ؛ ففيها أن الميت يوبخ ببكاء الحي ويتعتع ؛ والتعتعة هي (الحركة العَنيفة ، وقد تَعْتَعَه إذا عَتَلَه وأَقْلَقه .. ، وتَعْتَعْتُ الرجلَ وتَلْتَلْتُه ؛ وهو أَن تُقْبِلَ به وتُدْبِرَ به ، وتُعَنِّفَ عليه في ذلك ؛ وهي التعْتَعة والتلْتَلةُ أَيضاً)[٣] . ويبدو أن البكاء الذي يتألم به الميت هو البكاء المقارن للنوح ، كما ألمح لذلك ابن القيم بقوله في النص السابق : (فإذا بكى أهل الميت عليه البكاء المحرم ؛ وهو

---

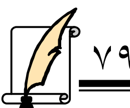
(١) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٦٧٤٠) .
(٢) عدة الصابرين ، ص (١٣٩) .
(٣) لسان العرب ٨ / ٣٥ .



البكاء الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه ، والبكاء على الميت عندهم اسم لذلك ؛ وهو معروف في نظمهم ونثرهم تألم الميت بذلك)[١] ؛ فخرج بذلك البكاء المجرد عن النوح فلا حرج فيه لا قبل الموت و لا بعده ؛ ففي الصحيح عن أنس ﷺ قال : (دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين ، وكان ظئرا لإبراهيم فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله ، وشمه ، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه ، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان . فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله ؟ فقال : يا ابن عوف إنها رحمة ثم أتبعها بأخرى فقال : إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون) ، وفي الصحيح عن أسامة بن زيد ﷺ أن ابنة لرسول الله ﷺ أرسلت إليه وأنا معه وسعد وأحسب أبيا أن ابني أو بنتي قد حضر فاشهدنا ؛ فأرسل يقرئ السلام ، فقال : قل لله ما أخذ وما أعطى ، وكل شيء عنده إلى أجل ، فأرسلت تقسم عليه ، فأتاها فوضع الصبي في حجر رسول الله ﷺ ونفسه تقعقع ففاضت عينا رسول الله ﷺ فقال له سعد : ما هذا ؟ قال : إنها رحمة وضعها الله في قلوب من يشاء ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء) ، وفي الصحيح أيضا عن ابن عمر رضي الله عنهما : (اشتكى سعدُ بنُ عبادةَ شكوى له . فأتى رسولُ اللهِ ﷺ يعودُه مع عبدِالرحمنِ بنِ عوفٍ وسعدِ بنِ أبي وقاصٍ وعبدِاللهِ بنِ مسعودٍ . فلما دخل عليه وجدَه في غَشْيَةٍ . فقال : أقد قضى ؟ قالوا : لا يا رسولَ اللهِ ! فبكى رسولُ اللهِ ﷺ ، فلما رأى القومُ بكاءَ رسولِ اللهِ ﷺ بَكوا . فقال : ألا تسمعون ؟ إنَّ اللهَ لا يُعذِّبُ بدمعِ العَينِ ، ولا بحُزنِ القلبِ ، ولكن يُعذِّبُ بهذا – وأشار إلى لسانِه – أو يَرحمُ) . وقد استثنى العلماء من تحريم رفع الصوت الكلمة اليسيرة إذا كانت صدقا ؛ قال ابن القيم : (الكلمة اليسيرة إذا كانت صدقا لا على وجه النوح والتسخط ، فلا تحرم ولا تنافي الصبر الواجب ، نص عليه أحمد في مسنده من حديث أنس ﷺ أن أبا بكر ﷺ دخل على النبي ﷺ بعد وفاته ؛ فوضع فمه بين عينيه ، ووضع يده على صدغيه ، وقال : وانبياه ، واخليلاه ، واصفياه ! وفي صحيح البخارى عن أنس ﷺ أيضا قال : لما ثقل على النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب فقالت : فاطمة واكرب أبتاه ! فقال : ليس على أبيك كرب بعد اليوم ، فلما مات قالت : يا أبتاه أجاب ربا دعاه ! يا أبتاه جنة الفردوس مأواه ! يا أبتاه إلى جبريل أنعاه!

---

(١) عدة الصابرين ، ص (١٣٩) .



فلما دفن قالت : فاطمة يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب ! وقال النبي ﷺ وإنا بك يا ابراهيم لمحزنون ؛ وهذا ونحوه من القول الذى ليس فيه تظلم للمقدور ولا تسخط على الرب ولا اسخاط له فهو كمجرد البكاء)[١] .

٢- ضرب الخدود وشق الجيوب ؛ ففي الصحيح عن ابن مسعود ﷺ قال : (قال رسول الله ﷺ : ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية) ، وروى الإمام أحمد بإسناد قوي[٢] عن أبي بردة قال : (أوصى أبو موسى ﷺ حين حضره الموت فقال : إذا انطلقتم بجنازتي فأسرعوا المشي ، ولا يتبعني مجمر ، ولا تجعلوا في لحدي شيئا يحول بيني وبين التراب ، ولا تجعلوا على قبري بناء ، وأشهدكم أني برئ من كل حالقة ، أو سالقة ، أو خارقة ، قالوا أو سمعت فيها شيئا ؟ قال : نعم ، من رسول الله ﷺ) ؛ والحالقة التي تحلق شعرها عند المصيبة ، والسالقة التي ترفع صوتها عند المصيبة ، والخارقة التي تخرق ثيابها عند المصيبة[٣] .

٣- سخط المقدور ؛ روى الترمذي بسند حسن[٤] عن أنس ﷺ مرفوعا (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، و من سخط فله السخط) ؛ والسخط كراهية المقدور وعدم الرضا به ؛ فمن سخط أقدار الله فله السخط من اللــه ! وقد يستدل بالحديث على إيجاب الرضا ، كما هو اختيار ابن عقيل . واختار شيخ الإسلام عدم الوجوب ؛ لأنه لم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر ، وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم[٥] . ومما يفتح على العبد باب السخط والحزن قول (لو) بعد وقوع المقدور ؛ روى مسلم بسنده عن عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان) ؛ فهي مفتاح عمل الشيطان من الجزع والعجز واللوم والسخط من القدر

---

(١) عدة الصابرين ، ص (١٣٧) .

(٢) انظر : تحذير الساجد ، ص (٧٩) .

(٣) انظر : عدة الصابرين ، ص (٣٢٥) .

(٤) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٢١١٠) .

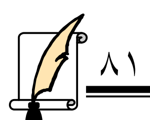
(٥) انظر : تيسير العزيز الحميد ، ص (٥٢٣) .

ونحو ذلك . وهي من الكلمات التي ذم بها المنافقون كما في قوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾آل عمران: ١٥٤؛ وقوله : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾آل عمران: ١٦٨؛ فعلم أن قول لو في الأمور المقدرة من كلام المنافقين . ومحل الذم كما هو ظاهر في قولها بعد وقوع المقدور على وجه التحسر أو معارضة القدر ، وأما قولها في الأمور المستقبلة فلا حرج في ذلك ؛ لأنه لا اعتراض فيها على قدر و لا كراهة له ؛ روى مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها مرفوعا : (يا عائشة لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت البيت حتى أزيد فيه من الحجر فإن قومك قصروا في البناء) ؛ قال الشيخ سليمان بن عبد الله : (فإن قيل ما تصنعون بقوله ﷺ : لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولجعلتها عمرة ؟ قيل : هذا كقوله لولا حدثان قومك بالكفر ونحوه مما هو خبر عن مستقبل ، لا اعتراض فيه على قدر ، بل هو اخبار لهم أنه لو استقبل الإحرام بالحج ما ساق الهدي ولا أحرم بالعمرة بقوله لهم لما أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة حثا لهم وتطييبا لقلوبهم لما رآهم توقفوا في أمره ، فليس من المنهي عنه بل هو إخبار لهم عما كان يفعل في المستقبل لو حصل ولا خلاف في جواز ذلك ، وإنما ينهى عن ذلك في معارضة القدر مع اعتقاد أن ذلك المانع لو يقع لوقع خلاف المقدور)[(١)] .

٤- الشكوى للخلق ؛ قال تعالى عن يعقوب عليه السلام : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾**يوسف:** ١٨ ؛ والصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه ؛ قال حسان بن أبي جبلة : (من بث فلم يصبر) ؛ ويروى مرفوعا بلفظ : (من كنوز البر كتمان المصائب وما صبر من بث) ، ولكنه لا يثبت عن النبي ﷺ ؛ وقد كان من هدي السلف كتمان المصائب ؛ لأن ذلك من الصبر الجميل ؛ قال ابن القيم : (لما نزل فى إحدى عينى عطاء الماء مكث عشرين سنة لا يعلم به أهله ، حتى جاء ابنه يوما من قبل عينيه ، فعلم أن الشيخ قد أصيب . ودخل رجل على داود الطائى فى فراشه فرآه يرجف فقال : إنا لله وانا اليه راجعون . فقال : مه ، لا تعلم بهذا أحدا ، وقد أقعد قبل ذلك أربعة أشهر لا يعلم بذلك أحد . وقال مغيرة : شكى الاحنف إلى عمه وجع ضرسه ، فكرر ذلك عليه ، فقال : ما تكرر على ، لقد ذهبت عينى منذ أربعين سنة فما شكوتها الى أحد)[(٢)] . ويخرج عن حد الشكوى المذمومة

(١) تيسير العزيز الحميد ، ص (٦٦٧ ، ٦٦٨) .

(٢) عدة الصابرين ، ص (٣٢٧) .



أمران :-

أ- ذكر الوجع على وجه الإخبار أو الاسترشاد ؛ قال ابن القيم : (ولا يناقض هذا قول النبي ﷺ في وجعه وارأساه ! وقول سعد : يا رسول الله قد اشتد بي الوجع ، وأنا ذو مال ، وقول عائشة رضي الله عنها : وارأساه ؛ فإن هذا إنما قيل على وجه الاخبار لا على وجه شكوى الرب تعالى إلى العواد ؛ فإذا حمد المريض الله ثم أخبر بعلته لم يكن شكوى منه ، وإن أخبر بها تبرما وتسخطا كان شكوى منه ؛ فالكلمة الواحدة قد يثاب عليها وقد يعاقب بالنية والقصد)[1] ، وقـــال : (إخبار المخلوق بالحال ؛ فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته والتوصل الى زوال ضـــررة لم يقدح ذلك فى الصبر ؛ كإخبار المريض للطبيب بشكايته ، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحالـــه ، وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه وقد كان النبى ﷺ : إذا دخل على المريض يسأله عن حاله ويقول : كيف نجدك ؟ وهذا استخبار منه واستعلام بحاله)[2] .

ب- الأنين ؛ لما رواه أحمد بسند صحيح[3] عن عائشة رضي الله عنها قالت : (دخلـــتُ علـــي رسولِ الله ﷺ في اليومِ الذي بُدِئَ فيهِ فقلتُ : وارأساهُ ! فقال : وددتُ أنَّ ذلكَ كان وأنا حيٌّ ؛ فهيَّأْتُكِ ودفنتُكِ . قالت : فقلتُ غيري ،كأني بكَ في ذلكَ اليومِ عروسًا ببعضِ نسائِكَ قال : وأنا وارأساهُ) ؛ فإذا جاز التألم والتوجع فجواز الأنين من باب أولى . وقيل : إن الأنـــين يقـــدح في الصبر ؛ لأنه شكوى بلسان الحال . ورأى ابن القيم أن الأنين قسمان ؛ أنين شـــكوى فيكـــره ، وأنين استراحة وتفريج فلا يكره[4] .

وأما الشكوى للخالق فهي الشكوى النافعة التي تحقق الصبر ولا تنافيه ؛ فإن يعقوب عليه السلام وعد بالصبر الجميل ، والنبي إذا وعد لا يخلـــف ، ثم قـــال : ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ **يوسف: ٨٦** ، وكذلك أيوب عليه السلام أثنى الله على صبره بقوله : ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾ **ص: ٤٤** ، مع أنه

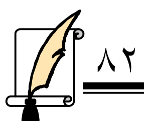
---

(١) عدة الصابرين ، ص (١٢٠) .

(٢) عدة الصابرين ، ص (٣٢٣) .

(٣) انظر : أحكام الجنائز ، ص (٥٠) .

(٤) انظر : عدة الصابرين ، ص (٣٢٣ ، ٣٢٤) .



: ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾ الأنبياء: ٨٣ . والله أعلم[١] .

معنى الشكر

أصل الشكر من النماء والزيادة ؛ يقال : شكرت الدابة إذا سمنت ؛ روى الإمام أحمد وغيره بسند حسن[٢] عن أبي سعيد ﷺ مرفوعا (تفتح يأجوج و مأجوج فيخرجون على الناس ... الحديث ، وفيه : ويسرحون مواشيهم فما يكون لهم مرعى إلا لحومهم ؛ فتشكر عنه كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط) ؛ أي تسمن من كثرة ما تأكل منها . وشرعا هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناء واعترافا ، وعلى قلبه معرفة ومحبة ، وعلى جوارحه انقيادا وطاعة[٣] . والشكر أخص من الحمد من جهة المتعلق ؛ لأن الشكر إنما يكون على النعم ، والحمد يكون على النعم وعلى صفات الكمال . وأما من جهة الأسباب فالشكر أعم ؛ لأنه يكون بالقلب واللسان والجوارح ، والحمد إنما يكون بالقلب واللسان[٤] .

أركان الشكر

مما تقدم يتضح أن لشكر العبد ثلاثة أركان لا يكون شكورا إلا بمجموعها ؛ أحدها : اعترافه بنعمة الله عليه . والثاني : الثناء على الله بها . والثالث الاستعانة بها على مرضات الله تعالى[٥] .

وقد ذم الله من جحد نعمته ، أو نسبها إلى غيره في نصوص كثيرة ، منها :-

١- قوله تعالى : ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣ ﴾ النحل: ٨٣ ؛ قال مجاهد : هي المساكن والأنعام وما يرزقون منها والسرابيل من الثياب والحديد ؛ يعرفه كفار قريش ثم ينكرونه ؛ بأن يقولوا : هذا كان لآبائنا ورثناه عنهم . وقال عون بن عبد الله : إنكارهم إياها أن يقول الرجل : لولا فلان أصابني كذا وكذا ، ولولا فلان لم أصب كذا وكذا . وقال ابن قتيبة :

---

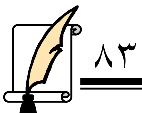
(١) انظر في موضوع الصبر : عدة الصابرين كاملا ، مدارج السالكين ٢ / ١٥٢ - ١٧١ ، تيسير العزيز الحميد ، ص ، (٥١١ - ٥٢٤ ، ٦٦١ - ٦٦٩) ، فتح المجيد ، ص (٣٧٦ - ٣٨٣) ، حاشية ابن قاسم ، ص (٢٥٨ - ٢٦٣) .

(٢) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٢٩٧٣) .

(٣) انظر : مدارج السالكين ٢ / ٢٤٤ .

(٤) انظر : مدارج السالكين ٢ / ٢٤٦ ، عدة الصابرين ، ص (١٩٠ ، ١٩١) .

(٥) انظر : عدة الصابرين ، ص (١٨٨ ، ١٨٩) .



يقولون هذا بشفاعة آلهتنـــــا ؛ أي رزقنا بشفاعتها . والآية تعم كل ما ذكروا في معناها[(١)] .

٢– قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ فصلت: ٥٠ ؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى (هذا لي) : يريد من عندي . وقال مجاهد : هذا بعملي وأنا محقوق به[(٢)] .

٣– قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾ القصص: ٧٨ ؛ قال قتادة : على علـــم مـــني بوجـــوه المكاسب . وقال آخرون : على علم من الله أني له أهل . وهذا معنى قول مجاهد : أوتيته علـــى شرف . وهذا كالذي قبله ؛ من تفسير اللفظ ببعض أفراده[(٣)] .

٤– قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ الأعراف: ١٨٩ - ١٩٠ ؛ والشرك هنا يعني الشرك في التسمية ؛ وذلك بأن يعبد الغلام لغير الله ؛ فإن من تمام شكر نعمة الولد ألا يعبد لغير الله ؛ كعبد الحارث ، وعبد الكعبة ، وعبد الرسول ، وعبد علي ، وعبد الحسين ، وعبد شمس ، وغير ذلك[(٤)] مما هو مشهور قديما وحديثا ؛ فإن ذلك ينافي شكر نعمة الولد . وقد اختلف الشراح في المراد من هذا السياق ؛ هل هو آدم وحواء ، أو المشركون من ذريته ؟ فقطع في التيسير بالأول ، وقطع في القول المفيد بالثاني[(٥)] ، وهو الأظهر والله أعلم ؛ قال ابن القيم : (النفس الواحدة وزوجها آدم وحواء ، واللذان جعلا له شركاء فيما آتاهما المشركون من أولادهما ، ولا يلتفت إلى غير ذلك مما قيل : إن آدم وحواء كانا لا يعيش لهما ولد فأتاهما إبليس فقال : إن أحببتما أن يعيش لكما ولد فسمياه

---

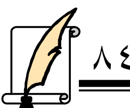
(١) انظر : تيسير العزيز الحميد ، ص (٥٨٣ ، ٥٨٤) ، فتح المجيد ، ص (٤٢٦ ، ٤٢٧) .

(٢) كتاب التوحيد بشرحه فتح المجيد ، ص (٤٥٥) .

(٣) المرجع السابق .

(٤) اختلف العلماء في اسم عبد المطلب ؛ فمنهم من منعه ؛ لأنه معبد لغير الله ، ومنهم من أجازه ؛ لأن أصله من عبودية الرق ، فلم يبق للأصل معنى مقصود . انظر : تيسير العزيز الحميد ، ص (٦٣٢) ، فتح المجيد ، ص (٤٦٢) .

(٥) انظر : تيسير العزيز الحميد ، ص (٦٣٠) ، حاشية ابن قاسم ، ص (٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦) ، القول المفيد ٣ / ٦٧ ، ٦٨ .



عبد الحارث ففعلا ؛ فإن الله سبحانه اجتباه وهداه فلم يكن ليشرك به بعد ذلك)[١] . وقال ابن كثير : (وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري ، رحمه الله ، في هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ؛ ولهذا قال الله : فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ؛ فذكر آدم وحواء أولا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين ، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى ذكر الجنس ، كقوله تعالى : ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح الآية ، ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمى بها ، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها . ولهذا نظائر في القرآن والله أعلم)[٢] .

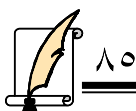
٥- روى مسلم بسنده عن زيد بن خالد الجهني ﷺ قال : (صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية ، في إثر السماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ؛ فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب) ؛ فذم من نسب نعمة المطر إلى منازل القمر ؛ لما في هذه النسبة من كفر النعمة ، وعدم شكرها ؛ قال ابن تيمية : (وَهَذَا كَثِيرٌ جِدًّا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ؛ يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إنْعَامَهُ إلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُهُ بِهِ ، قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : هُوَ كَقَوْلِهِمْ كَانَتْ الرِّيحُ طَيِّبَةً وَالْمَلَّاحُ حَاذِقًا)[٣] . وقال سليمان بن عبد الله : (والمعنى أن السفن إذا جرين بريح طيبة بأمر الله جريا حسنا نسبوا ذلك الى طيب الريح وحذق الملاح في سياسة السفينة ، ونسوا ربهم ؛ الذي أجرى لهم الفلك في البحر ؛ رحمة بهم كما قال تعالى : (ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما) ؛ فيكون نسبة ذلك إلى طيب الريح وحذق الملاح من جنس نسبة المطر إلى الأنواء ، وإن كان المتكلم بذلك لم يقصد أن الريح والملاح هو الفاعل لذلك من دون خلق الله وأمره ، وإنما أراد أنه سبب ، لكن لا ينبغي أن يضيف ذلك إلا إلى الله وحده ؛ لأن غاية الأمر في ذلك أن يكون الريح والملاح سببا أو جزء وسبب ،

---

(١) روضة المحبين ، ص (٢٨٩) .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٧٥ ، ٢٧٦.

(٣) مجموع الفتاوى ٨ / ٣٣ .



ولو شاء الرب تبارك وتعالى لسلبه سببيته ، فلم يكن سببا أصلا ، فلا يليق بالمنعم عليه المطلوب منه الشكر أن ينسى من بيده الخير كله وهو على كل شيء قدير ، ويضيف النعم إلى غيره ، بل يذكرها مضافة منسوبة إلى مولاها والمنعم بها ، وهو المنعم على الإطلاق كما قال تعالى : (وما بكم من نعمة فمن الله) ؛ فهو المنعم بجميع النعم في الدنيا والآخرة وحده لا شريك له ، فإن ذلك من شكرها وضده من إنكارها ، ولا ينافي ذلك الدعاء والإحسان إلى من كان سببا أو جزء سبب في بعض ما يصل إليك من النعم من الخلق)[1] .

٦- روى مسلم بسنده عن أبي هريرة ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول : (إن ثلاثة في بني إسرائيل ؛ أبرص وأقرع وأعمى ، فأراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملكا ، فأتى الأبرص فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس . قال : فمسحه ، فذهب عنه قذره ، وأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا . قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : الإبل ، أو قال البقر ، شك إسحق إلا أن الأبرص أو الأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر . قال : فأعطي ناقة عشراء ، فقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأقرع ، فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عني هذا الذي قد قذرني الناس . قال : فمسحه ؛ فذهب عنه ، وأعطي شعرا حسنا . قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : البقر ، فأعطي بقرة حاملا ، فقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأعمى فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إلي بصري ، فأبصر به الناس ، قال : فمسحه ، فرد الله إليه بصره . قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : الغنم ، فأعطي شاة والدا . فأنتج هذان ، وولد هذا . قال : فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم . قال : ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين ، قد انقطعت بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ؛ أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ عليه في سفري . فقال : الحقوق كثيرة . فقال له : كأني أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس ؟ فقيرا فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر ! فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت . قال : وأتى الأقرع في صورته ، فقال له : مثل ما قال لهذا ، ورد عليه مثل ما رد على هذا، فقال : إن

---

(١) تيسير العزيز الحميد ، ص (٥٨٥ ، ٥٨٦) .

كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت . قال : وأتى الأعمى في صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين وابن سبيل ، انقطعت بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ؛ أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري . فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري ؛ فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فو الله لا أجهدك اليوم شيئا أخذته لله ! فقال : أمسك مالك ؛ فإنما ابتليتم ؛ فقد رضي الله عنك ، وسخط على صاحبيك !) ؛ فالأولان جحدا نعمة الله ؛ (فما أقرا للّه بنعمته ، ولا نسبا النعمة إلى المنعم بها ، ولا أدّيا حق اللّه ، فحل عليهما السخط . وأما الأعمى فاعترف بنعمة اللّه ، ونسبها إلى من أنعم عليه بها ، وأدّى حق اللّه فيها ، فاستحق الرضى من اللّه ، بقيامه بشكر النعمة لما أتى بأركان الشكر الثلاثة التي لا يقوم الشكر إلا بها ، وهي : الإقرار بالنعمة ، ونسبتها إلى المنعم ، وبذلها فيما يحب)[1]. وهذه القصة العجيبة فيها عبر عظيمة (منها :-

١- أن الرسول ﷺ يقص علينا أنباء بني إسرائيل ؛ لأجل الاعتبار والاتعاظ بما جري ، وهو أحد الأدلة لمن قال : إن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه .

٢- بيان قدرة الله عز وجل بإبراء الأبرص والأقرع والأعمى من هذه العيوب التي فيهم .

٣- أن الملائكة يتشكلون حتى يكونوا على صورة البشر ، لقوله : (فأتي الأبرص في صورته) .

٤- أن الملائكة أجسام ، وليسوا أرواحاً أو معاني أو قوي فقط .

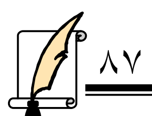
٥- أن في قوله : (إنما ورثناه كابرا عن كابر) دليل على تأكد الشكر ؛ لأن كونها موروثة عن الآباء أبلغ في إنعام الله عليهم ؛ إذ أنعم بها على أبائهم ، ثم ورثهم إياها ، فتمتعوا هم وآباءهم بنعمه !

٦- أن الإنسان لا يلزمه الرضاء بقضاء الله ؛ أي بالمقضي ، لأن هؤلاء الذين أصيبوا قالوا : أحب إلينا كذا وكذا ، وهذا يدل على عدم الرضا .

٧- جواز الدعاء المعلق ، لقوله : (إن كنت كاذباً ، فصيرك الله إلى ما كنت) ، وفي القرآن الكريم قال الله تعالى : (والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين) ، وقوله :(الخامسة أن غضب الله عليها إن كانت من الصادقين) .

---

(١) تيسير العزيز الحميد ، ص (٦٢٧) .



٨- جواز التترل مع الخصم فيما لا يقر به الخصم المتترل ؛ لأجل إفحامه ، لأن الملك يعلم أنه كاذب ، ولكن بناء على قوله : إن هذا ما حصل ، وإن المال ورثه كابراً عن كابر ، وقد سبق بيان وروده في القرآن ، ومنه أيضاً قوله تعالى : (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) ، ومعلوم أن الرسول ﷺ وأصحابه على هدى وأولئك على ضلال ، ولكن هذا من باب التترل معهم من باب العدل .

٩- أن بركة الله لا نهاية لها ، ولهذا كان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم .

١٠- هل يستفاد منه أن دعاء الملائكة مستجاب أو أن هذه قضية عين ؟ الظاهر أنها قضية عين ، وإلا لكان الرجل إذا دعا لأخيه بظهر الغيب ، وقال الملك : آمين ، ولك بمثله ، علمنا أن الدعاء قد أستُجيب .

١١- بيان أن شكر كل نعمة بحسبها ، فشكر نعمة المال أن يبذل في سبيل الله ، وشكر نعمة العلم أن يبذل لمن سأله بلسان الحال أو المقال والشكر الأعم أن يقوم بطاعة المنعم في كل شيء .

١٢- جواز التمثيل ، وهو أن يتمثل الإنسان بحال ليس هو عليها في الحقيقة ، مثل أن يأتي بصورة مسكين وهو غني وما أشبه ذلك ، إذا كان فيه مصلحة وأراد أن يختبر إنساناً بمثل هذا ، فله ذلك .

١٣- أن الابتلاء قد يكون عاماً وظاهراً ؛ كما في هذه القصة المشهورة .

١٤- فضيلة الورع والزهد ، وأنه قد يجر صاحبه إلى ما تحمد عقباه ، لأن الأعمى كان زاهداً في الدنيا ، فكان شاكراً لنعمة الله .

١٥- ثبوت الإرث في الأمم السابقة ، لقوله : (ورثته كابراً عن كابر) .

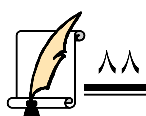
١٦- أن من صفات الله عز وجل الرضا والسخط والإرادة ، وأهل السنة والجماعة يثبتونها على المعنى اللائق بالله على أنها حقيقة .

١٧- أن الصحبة تطلق على المشاكلة في شيء من الأشياء ، ولا يلزم منها المقارنة ، لقوله : (وسخط على صاحبيك) ، فالصاحب هنا : من يشبه حاله في أن الله أنعم عليه بعد البؤس .

١٨- اختبار الله عز وجل بما أنعم عليهم به .

١٩- أن التذكير قد يكون بالأقوال أو الأفعال أو الهيئات .

٢٠- أنه يجوز للإنسان أن ينسب لنفسه شيئاً لم يكن من أجل الاختبار ، لقول الملك إنه فقير



وابن سبيل)[1] .

فضل الشكر

قال ابن القيم في فضل الشكر : (هو نصف الإيمان ، والإيمان نصفان ؛ نصف شكر ، ونصف صبر . وقد أمر الله به ونهى عن ضده ، وأثنى على أهله ، ووصف به خواص خلقه ، وجعله غاية خلقه وأمره ، ووعد أهله بأحسن جزائه ، وجعله سببا للمزيد من فضله ، وحارسا وحافظا لنعمته ، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته ، واشتق لهم اسما من أسمائه ؛ فإنه سبحانه هو الشكور وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكورا ، وهو غاية الرب من عبده ، وأهله هم القليل من عباده قال الله تعالى : (واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون) ، وقال : (واشكروا لي ولا تكفرون) ، وقال عن خليله إبراهيم ﷺ : (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه) ، وقال عن نوح عليه السلام : (إنه كان عبداشكورا) ، وقال تعالى : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) ، وقال تعالى : (واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون) ، وقال تعالى : (وسيجزي الله الشاكرين) ، وقال تعالى : (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) ، وقال تعالى : (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) ، وسمى نفسه شاكرا وشكورا ، وسمى الشاكرين بهذين الاسمين ؛ فأعطاهم من وصفه وسماهم باسمه ، وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلا ! وإعادته للشاكر مشكورا كقوله : (إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) ، ورضى الرب عن عبده به كقوله : (وإن تشكروا يرضه لكم) ، وقلة أهله في العالمين تدل على أنهم هم خواصه كقوله : (وقليل من عبادي الشكور) ، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ : أنه قام حتى تورمت قدماه فقيل له : تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ! فقال : أفلا أكون عبدا شكورا ! وقال لمعاذ رضي الله عنه : والله يا معاذ إني لأحبك ؛ فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ، وفي المسند و الترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ : كان يدعو بهؤلاء الكلمات اللهم أعني ولا تعن علي ، وانصرني ولا تنصر علي ، وامكر لي ولا تمكر بي ، واهدني ويسر الهدى

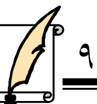
---

(١) القول المفيد ٣ / ٥١- ٥٥ .

لي ، وانصرني على من بغى علي ، رب اجعلني لك شكارا ، لك ذكارا ، لك رهابا ، لك مطاوعا ، لك مخبتا ، إليك أواها منيبا ، رب تقبل توبتي ، واغسل حوبتي ، وأجب دعوتي ، وثبت حجتي ، واهد قلبي ، وسدد لساني ، واسلل سخيمة صدري)[1] .

****

(١) مدارج السالكين ٢ / ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، وانظر : عدة الصابرين ، ص (١٥٠ – ١٧٤ ، ٣٠٠ – ٣١٩) .



أسباب الشرك وذرائعه

إفراد الله بالعبادة هو مقتضى الفطرة والعقل والنقل[١] ، ولكن كثيرا من الناس لا يذعنون لمقتضى أدلة التوحيد لأسباب تصدهم عن الحق ، وطرق تفضي بهم إلى الشرك ؛ وهي كثيرة ، منها :-

أولا : الجهل بصفة الشفاعة عند الله تعالى .

الشفاعة مصدر من الشفع ضد الوتر ؛ وهي سؤال الخير للغير ، أو الوساطة في حصول نفع أو دفع ضرر[٢] . وقد ظن كثير من الناس أن الشفاعة عند الخالق من جنس الشفاعة عند الخلق ؛ فكما يستشفع بالوجهاء عند الملوك في قضاء الحاجات وإدراك المآرب فكذلك يستشفع بالأنبياء والأولياء عند ملك الملوك في قضاء الحاجات وتفريج الكربات وغفران الزلات ؛ لأن الله وعد أصفياءه بالشفاعة ، فصار ذلك إذنا في حصولها ، وإقدارا عليها ، وتمليكا لها ؛ فيكون طلبها منهم كطلب الشفاعة من الحي فيما يقدر عليه ؛ فيسوغ للمستشفع بزعمهم أن يقول : يا رسول الله اشفع لي ، أو الشفاعة يا رسول الله ، أو يا ولي الله اشفع لي ، كما يسوغ له أن يقول : اللهم شفع في رسولك أو ملائكتك أو عبادك الصالحين ؛ لأنه إنما طلب الشفاعة ممن يملكها ، ويقدر عليها ! وربما تدرج بعضهم إلى ما هو أكبر من ذلك ؛ كطلب المغفرة والنصرة والغوث والرزق من النبي أو الولي !! وهكذا صار الجهل بصفة الشفاعة عند الله تعالى مدخلا لدعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ، وذريعة للاستغاثة بالصالحين في الشدائد والنوائب ؛ وقد عم هذا البلاء وطم ، وكثر أهله وأنصاره ، مع أنه يصادم أصل الدين ، ويعارض كل نص يدعو إلى الكفر بما يعبد من دون الله ، وإفراد الله بدعاء العبادة والمسألة ! وهو كذلك يعارض نصوص الشفاعة من وجوه كثيرة ؛ منها :-

١- أن الشفاعة كلها ملك لله دون كل ما يدعى من دونه ؛ قال تعالى : ﴿ **أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ** ﴾ الزمر: ٤٣ - ٤٤ ؛ أي هو مالكها وحده ، وكلها منه ؛ كرامة للشافع ورحمة للمشفوع له ؛ فمن طلبها من غير الله فقد طلبها ممن

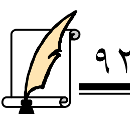
---

(١) انظر : حقيقة المثل الأعلى وآثاره ، ص (٦٥ ، ٨٥ - ٩٦) . وقد تقدم الحديث عنها في مبحث براهين التوحيد .

(٢) انظر : التحرير والتنوير ١ / ٦٦٤ .

لا يملكها ، ولهذا كان طلبه شركا وإفكا ؛ قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الأحقاف: ٢٨ .

٢– أن الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند الخلق ؛ فلا تكون إلا بإذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع له ؛ قال تعالى ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾البقرة: ٢٥٥ ، وقـــال : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ الأنبياء: ٢٨ ، وقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ طه: ١٠٩ ؛ فهو الذي يتفضل على أهل التوحيد فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن الله له أن يشفع ؛ ليكرمه وينال المقام المحمود ؛ قال ابن أبي العز الحنفي : (الشَّفَاعَةَ عِنْدَ اللَّهِ لَيْسَتْ كَالشَّفَاعَةِ عِنْدَ الْبَشَرِ ، فَإِنَّ الشَّفِيعَ عِنْدَ الْبَشَرِ كَمَا أَنَّهُ شَافِعٌ لِلطَّالِبِ شَفَّعَهُ فِي الطَّلَبِ ، بِمَعْنَى أَنَّهُ صَارَ شَفْعًا فِيهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ وِتْرًا ، فَهُوَ أَيْضًا قَدْ شَفَعَ الْمَشْفُوعَ إِلَيْهِ ، وَبِشَفَاعَتِهِ صَارَ فاعلا لِلْمَطْلُوب ، فَقَدْ شَفَّعَ الطَّالِبَ وَالْمَطْلُوبَ مِنْهُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى وِتْرٌ ، لا يَشْفَعُهُ أَحَدٌ ، فَلا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إلا بِإِذْنِهِ ، فَالأمْرُ كُلُّهُ إِلَيْهِ ، فَلا شَرِيكَ لَهُ بِوَجْهٍ . فَسَيِّدُ الشُّفَعَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا سَجَدَ وَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى فَقَالَ لَهُ اللَّهُ : ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ ، وَاسْأَلْ تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَيَحُدُّ لَهُ حَدًّا فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ، فَالْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : (قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ) . وَقَالَ تَعَالَى : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) . وَقَالَ تَعَالَى : (ألا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) ، فَإِذَا كَانَ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَلَكِنْ يُكْرِمُ الشَّفِيعَ بِقَبُولِ شَفَاعَتِهِ ، كَمَا قَالَ ﷺ : اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا ، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا يَشَاءُ . وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا صَفِيَّةُ يَا عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا أَمْلِكُ لَكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا عَبَّاسُ عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ ، لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا . وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ ، أَوْ شَاةٌ لَهَا يُعَارٌ ، أَوْ رِقَاعٌ تَخْفِقُ ، فَيَقُولُ : أَغِثْنِي أَغِثْنِي ، فَأَقُولُ : قَدْ أَبْلَغْتُكَ ، لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ . فَإِذَا كَانَ سَيِّدُ الْخَلْقِ وَأَفْضَلُ الشُّفَعَاءِ يَقُولُ لِأَخَصِّ النَّاسِ بِهِ : لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فَمَا الظَّنُّ بِغَيْرِهِ ؟ وَإِذَا دَعَاهُ الدَّاعِي ، وَشَفَعَ عِنْدَهُ الشَّفِيعُ ، فَسَمِعَ الدُّعَاءَ ، وَقَبِلَ الشَّفَاعَةَ ، لَمْ يَكُنْ هَذَا هُوَ الْمُؤَثِّرُ فِيهِ كَمَا يُؤَثِّرُ الْمَخْلُوقُ فِي الْمَخْلُوق ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي جَعَلَ هَذَا يَدْعُو وَيَشْفَعُ ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِأَفْعَالِ الْعِبَادِ ، فَهُوَ الَّذِي وَفَّقَ



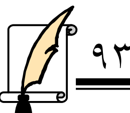
الْعَبْدَ لِلتَّوْبَةِ ثُمَّ قَبِلَهَا ، وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَهُ لِلْعَمَلِ ثُمَّ أَثَابَهُ ، وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَهُ لِلدُّعَاءِ ثُمَّ أَجَابَهُ . وَهَذَا مُسْتَقِيمٌ عَلَى أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقَدَرِ ، وَأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)[1] .

٣- أن الشفاعة عند الله تعالى إنما تنال بالتوحيد ؛ روى البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ أنه قال : (قيل يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك ؛ لما رأيت من حرصك على الحديث ؛ أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه أو نفسه) ؛ ولهذا كانت الشفاعة في النجاة من النار ، أو دخول الجنة وزيادة ثوابها مختصة بأهل التوحيد ؛ فمن استشفع عند الله بمخلوق في مغفرة ذنب أو تفريج كرب أو طلب ثواب فقد أتى بمانع الشفاعة لا بسببها .

٤- أن طلب الشفاعة من المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله من سنة المشركين مع شفعائهم لا من سنة الحنفاء مع أوليائهم ؛ قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ الزمر: ٣ ؛ فأكذب الله دعواهم وأكفرهم بها ، ونفى هذه الشفاعة وأبطلها ؛ قال تعالى : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ المدثر: ٤٨ ؛ وقال : ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ الأنعام: ٥١ ، وقال : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ غافر: ١٨ ؛ وقال : ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ سبأ: ٢٢ - ٢٣ ؛ قال ابن القيم : (قطع الله تعالى كل الأسباب التي تعلق بها المشركون جميعا ... فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع ؛ والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع ؛ إما مالك لما يريده عابده منه ، فإن لم يكن مالكا كان شريكا للمالك ، فإن لم يكن شريكا له كان معينا له وظهيرا ، فإن لم يكن معينا ولا ظهيرا كان شفيعا عنده ؛ فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيا مترتبا متنقلا من الأعلى إلى ما دونه ؛ فنفى الملك

---

(١) شرح الطحاوية ، ص (٢٣٨ ، ٢٣٩) .



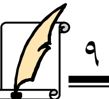
والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك ، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك ؛ وهي الشفاعة بإذنه ، فكفى بهذه الآية نورا وبرهانا ونجاة وتجريدا للتوحيد ، وقطعا لأصول الشرك ومواداه)[1] .

ثانيا : الخلط بين هداية التوفيق وهداية البيان .

يخطئ كثير من الناس في فهم قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ الشورى: ٥٢ ؛ فيظن أن ذلك يعم كل هداية ؛ ولهذا صاروا يسألون النبي ﷺ هداية القلوب ، وربما توسع بعضهم فصار يسألها حتى ممن يعظم من الأولياء وغيرهم ؛ وهذا ناشئ عن الجهل بحقيقة ما أوتي النبي ﷺ من الهداية وما لم يؤت من ذلك ؛ فالنبي ﷺ وسائر الرسل الكرام إنما أو توا هداية الدلالة والبيان ليس غير ؛ قال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ الشورى: ٥٢ ، وقال : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ الرعد: ٧ ، وهي بيان الحق بأدلته ، والترغيب في قبوله ، والترهيب من تركه . وأما هداية التوفيق للحق وقبوله ، وإيثاره على ما سواه فهذه خاصة بالله وحده ؛ فهو الذي يصرف القلوب كيف يشاء ؛ فيهدي من يشاء بفضله ، ويضل من يشاء بعدله ؛ قال تعالى : ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ البقرة: ٢٧٢ ، وقال : ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ النور: ٤٦ ، وقال : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ القصص: ٥٦ ؛ وفي الصحيح عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : (لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال : أي عم ! قل لا إله إلا الله ؛ كلمة أحاج لك بها عند الله . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟! فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعيدانه بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . قال رسول الله ﷺ : والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك . فأنزل الله (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) ، وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) ؛ قال عبد الرحمن بن حسن : (من حكمة الرب تعالى في عدم هداية أبي طالب إلى الإسلام ليبين لعباده أن

---

(١) مدارج السالكين ١ / ٣٤٣ .



ذلك إليه ، وهو القادر عليه دون من سواه ، فلو كان عند النبي ﷺ - الذي هو أفضل خلقه - من هداية القلوب ، وتفريج الكروب ، ومغفرة الذنوب والنجاة من العذاب ، ونحو ذلك شيء لكان أحق الناس بذلك وأولاهم به عمه الذي كان يحوطه ويحميه وينصره ويؤويه ، فسبحان من بهرت حكمته العقول)[1] . وقال ابن قاسم : (وإذا كان ﷺ قد حرص على هدايته عند موته فلم يتيسر له ذلك ، ودعا له بعد موته ، ونهي عن ذلك ، وذكر الله أنه لا يقدر على هداية من أحب هدايته لقرابته ونصرته ، تبين أعظم بيان ، ووضح أوضح برهان أنه ﷺ لا يملك ضرا ولا نفعا ، ولا عطاء ولا منعا ، وأنه ﷺ لا يقدر إلا على ما أقدره الله عليه ، وأن الأمر كـله بيـد الله)[2] . وقال ابن عثيمين : (الرسول ﷺ .. لايستطيع أن يهدي أحدا وهو حي فكيف يستطيع أن يهدي أحدا وهو ميت)[3] . وفي هذه القصة مع ما ذكر فوائد مهمة ؛ منها :-

١- أن التقليد من أعظم شبه المبطلين في الصد عن الحق ؛ قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الزخرف: ٢٣ ، وهي التي صدت أبا طالب عن اتباع الحق ، مع وفور عقله ، وشدة محبته للنبي ﷺ ، وعلمه بصدقه ؛ ولقوة تأثيرها اكتفى قومه بذكرها عن غيرها ؛ قال المؤلف في المسائل : (التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين ؛ لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها ، مع مبالغته ﷺ وتكريره ؛ فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصروا عليها)[4] .

٢- تفسير الشهادة بتوحيد العبادة ؛ ولهذا لما قال النبي ﷺ : أي عم قل لا إله إلا الله ، قالا : أترغب عن ملة عبد المطلب ! ففهما أن معنى الشهادة ترك ملة عبد المطلب ؛ وهي الشرك في العبادة ؛ فقد كان عبد المطلب كسائر قومه ؛ يقر بالربوبية ويشرك في العبادة ؛ كما يدل لذلك قوله لأبرهة : أنا رب الإبل والبيت له رب يحميه ! وهذا ما فهمه سائر المشركين من معنى الشهادة ؛ قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾

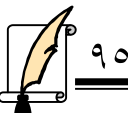
---

(١) فتح المجيد ، ص (٢٢٥) .

(٢) حاشية كتاب التوحيد ، ص (١٤١) .

(٣) القول المفيد ١ / ٣٥٩ .

(٤) كتاب التوحيد بشرحه فتح المجيد ، ص (٢٢٨) .



الصافات: ٣٥ – ٣٦ ؛ ففهموا أن الشهادة تعني ترك ما هم عليه من شرك العبادة لا مجرد الإقرار بالربوبية ، وفي هذا رد على طائفتين (أهل الكلام ؛ الذين يفسرون لا إله إلا الله بتوحيد الربوبية وكذلك الذين يعبدون الرسول والأولياء ، ويقولون : نحن نقول : لا إله إلا الله)[1] .

٣- صحة مذهب السلف في تفسير الإيمان وبطلان تفسيره بالمعرفة أو بمجرد التصديق القلبي ؛ كما ذهب إلى ذلك كثير من المرجئة والشيعة ؛ فقد كان أبو طالب على يقين من صدق النبي ﷺ ؛ كما يدل لذلك قوله :

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا

وقوله :

ودعوتني وعلمت أنك صادق ... ولقد صدقت وكنت قبل أمينا

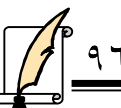
إلا أن هذا التصديق لم يجده شيئا ؛ لأنه لم ينطق بالشهادة ، ويذعن لما دلت عليه من الكفر بملة عبد المطلب ؛ فعلم أن الإيمان قول وعمل ، كما أجمع على ذلك السلف .

٤- في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ القصص: ٥٦ ؛ دلالة بينة على أن الله تعالى يختص بهدايته من يشاء ؛ لحكمة بالغة ؛ فهو يهدي من يصلح للهداية دون غيره ، وهو أعلم بمواقع فضله وعدله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ؛ لكمال حكمته لا لمجرد مشيئته ؛ كما يقوله من نفى حكمة الله في خلقه وأمره ، وجوز على الله فعل كل ممكن !

٥- في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ القصص: ٥٦ ؛ دلالة على أن المحبة الطبيعية قد تتعلق بالمشرك ولا تنافي الإيمان ! وقد يقال : إن الآية لا دلالة فيها على ذلك ؛ لأن تقدير الآية : إنك لا تهدي من أحببت هدايته لا شخصه . والله أعلم .

٦- أن رابطة التوحيد هي أصل الروابط والأواصر ، وسائر الروابط فرع وتبع لها ؛ فمن فاته الأصل لم يغنه الفرع مهما شرف ؛ فهذا سيد ولد آدم ﷺ استغفر لعمه أبي طالب فلم يغفر له ، وأنزل الله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ التوبة: ١١٣ ؛ وفي الصحيح أن النبي ﷺ زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال

(١) القول المفيد ١ / ٣٦٠ .



(استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي ، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور ؛ فإنها تذكر الموت) .

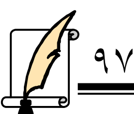
٧- أن الإيمان في مرض الموت نافع مقبول ما لم يصل المحتضر إلى المعاينة ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ غافر: ٨٤ – ٨٥ ، وقوله عن فرعون : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ يونس: ٩٠ – ٩١ ؛ فدل على أن الإيمان عند معاينة العذاب لا يجدي أهله ؛ لأنه إيمان اضطراري ، لا يكون معه صدق القلب الذي يكون مع الإيمان الاختياري ؛ وحينئذ فمعنى قوله : (لما حضرت أبا طالب الوفاة) أي مقدماتها وعلاماتها ، وإلا فلو انتهى إلى المعاينه لم ينفعه إيمانه لو آمن ، وهذا عام في كل محتضر ؛ فإذا عاين الملائكة حيل بينه وبين القبول ؛ فلا تصح له توبة ، ولا ينفعه إيمان ؛ قال تعالى ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ النساء: ١٨ ، وروى الإمام أحمد بسند حسن[1] : (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) .

ثالثا : الغلو في الأنبياء والصالحين .

الغلو هو الإفراط في التعظيم بالقول والاعتقاد ، وهو سبب أول شرك وقع في الأرض ؛ وسبب شرك كثير من الأمم على مدى القرون ؛ ففي الصحيح عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال في قول الله تعالى : (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت . قال ابن القيم : قال غير واحد من السلف : لما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد ، فعبدوهم . ولابن جرير بسنده عن سفيان بن منصور عن مجاهد (أفرأيتم اللات والعزى) قال : كان يلت لهم السويق ؛ فمات فعكفوا على قبره ، وقال ابن عباس : كان يلت السويق للحاج . وقد سرى هذا الداء إلى

---

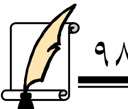
(١) انظر : فيض القدير ٢ / ٣٠٧ .



المسلمين ، واتبعوا سنن من كان قبلهم ؛ وتدرج بهم الغلو في الصالحين كما تدرج بمن قبلهم حتى انتهى بكثير منهم إلى عبادة قبورهم من دون الله ؛ قال ابن القيم : (الشيطان له تلطف في الدعوة ؛ فيدعوهم أولا إلى الدعاء عنده ؛ فيدعو العبد بحرقة وانكسار وذلة ، فيجيب الله دعوته لما قام بقلبه لا لأجل القبر ؛ فإنه لو دعاه كذلك في الحانة والخمارة والحمام والسوق أجابه ، فيظن الجاهل أن للقبر تأثيرا في إجابة تلك الدعوة ؛ فإذا تقرر ذلك عنده نقله درجة أخرى : من الدعاء عنده إلى الدعاء به والإقسام على الله به وهذا أعظم من الذي قبله ؛ فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه ، فإذا قرر الشيطان عنده أن الإقسام على الله به والدعاء به أبلغ في تعظيمه واحترامه وأنجع في قضاء حاجته نقله درجة أخرى إلى دعائه نفسه من دون الله ثم ينقله بعد ذلك درجة أخرى إلى أن يتخذ قبره وثنا يعكف عليه ويوقد عليه القنديل ويعلق عليه الستور ويبني عليه المسجد ويعبده بالسجود له والطواف به وتقبيله واستلامه والحج إليه والذبح عنده ثم ينقله درجة أخرى إلى دعاء الناس إلى عبادته واتخاذه عيدا ومنسكا وأن ذلك أنفع لهم في دنياهم وآخرتهم . قال شيخنا قدس الله روحه : وهذه الأمور المتبدعة عند القبور مراتب أبعدها عن الشرع : أن يسأل الميت حاجته ويستغيث به فيها كما يفعله كثير من الناس قال : وهؤلاء من جنس عباد الأصنام ؛ ولهذا قد يتمثل لهم الشيطان في صورة الميت أو الغائب كما يتمثل لعباد الأصنام ! وهذا يحصل للكفار من المشركين وأهل الكتاب يدعو أحدهم من يعظمه فيتمثل له الشيطان أحيانا وقد يخاطبهم ببعض الأمور الغائبة . المرتبة الثانية : أن يسأل الله عز و جل به وهذا يفعله كثير من المتأخرين وهو بدعة باتفاق المسلمين . الثالثة : أن يظن أن الدعاء عند قبره مستجاب أو أنه أفضل من الدعاء في المسجد فيقصد زيارته والصلاة عنده لأجل طلب حوائجه فهذا أيضا من المنكرات المبتدعة باتفاق المسلمين وهي محرمة وما علمت في ذلك نزاعا بين أئمة الدين وإن كان كثير من المتأخرين يفعل ذلك ويقول بعضهم : قبر فلان ترياق مجرب)[١] . وقال الصنعاني : (هذه القِبابَ والمشاهدَ التي صارت أعظمَ ذريعة إلى الشرك والإلحاد ، وأكبرَ وسيلة إلى هدم الإسلام وخراب بنيانه ، غالب بل كلُّ مَن يَعمُرُها هم الملوكُ والسلاطينُ والرؤساء والولاةُ ، إمَّا على قريب لهم أو على مَن يُحسنون الظنَّ فيه ، مِن فاضل أو عالِم أو صوفيٍّ أو فقير

---

(١) إغاثة اللهفان ١ / ٢١٥ - ٢١٨ (باختصار) .



أو شيخ أو كبير ، ويزورُه الناسُ الذين يعرفونه زيارة الأموات ، مِن دون توسُّل به ولا هَتف باسمه ، بل يَدْعون له ويستغفرون ، حتَّى ينقرِضَ مَن يَعرفه أو أكثرُهم ، فيأتي مَن بعدهم فيجد قبراً قد شيد عليه البناءُ ، وسُرِجَت عليه الشموعُ ، وفُرِشَ بالفراش الفاخر ، وأُرْخِيَت عليه الستورُ ، وأُلْقِيَت عليه الأورادُ والزهور ، فيعتقد أنَّ ذلك لنفع أو لدفع ضر ، ويأتيه السَّدَنة يكذبون على الميِّت بأنَّه فعلَ وفعل ، وأنزل بفلان الضَّرَرَ ، وبفلان النفع ، حتى يَغرسُوا في جبلَّتِه كلَّ باطل ، ولهذا الأمر ثبت في الأحاديث النبوية اللَّعنُ على مَن أَسْرَجَ على القبور ، وكتب عليها وبنى عليها وأحاديثُ ذلك واسعةٌ معروفة ، فإنَّ ذلك في نفسه منهي عنه ، ثم هو ذريعةٌ إلى مفسدة عظيمة. فإن قلتَ : هذا قبرُ رسول الله قد عُمِّرت عليه قُبَّة عظيمةٌ أُنفقت فيها الأموال . قلتُ : هذا جهلٌ عظيم بحقيقة الحال ، فإنَّ هذه القبَّة ليس بناؤها منه ، ولا من أصحابه ، ولا مِن تابعيهم ، ولا تابعي التابعين ، ولا مِن علماء أمَّته وأئمَّة مِلَّتِه ، بل هذه القبَّة المعمولةُ على قبره مِن أبنية بعض مُلوك مصر المتأخرين ، وهو قَلاَوُون الصالحي المعروف بالملك المنصور ، في سنة ثمان وسبعين وستمائة ، ذكره في (تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة) ، فهذه أمورٌ دولية لا دليلية، يتبع فيها الآخرُ الأول)[(١)]. وقال عبد الرحمن بن حسن : (كل ما عبد من دون الله ، من قبر أو مشهد ، أو صنم ، أو طاغوت ، فالأصل في عبادته هو الغلو . كما لا يخفى على ذوي البصائر)[(٢)]. فالغلو في الصالحين أصل الشرك قديما وحديثا ؛ لقربه من النفوس ؛ فإن الشيطان يظهره في قالب المحبة والتعظيم ؛ وقد تدرج بكثير من الأولين والآخرين إلى الشرك الأكبر ؛ ولهذا كثرت النصوص في النهي عن الغلو ، والتحذير منه ، وبيان سوء عاقبته ؛ قال تعالى : ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ النساء: ١٧١ ، وقال ﷺ : (إياكم و الغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين) رواه أحمد وغيره بسند صحيح[(٣)] . وقد ورد النهي عن صور معينة من الغلو ؛ لشدة خطرها في التدرج بأهلها إلى الشرك ؛ فمن ذلك : -

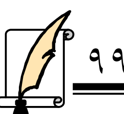
١- تصوير التماثيل ؛ ففي الصحيح عن أن أم سلمة رضي الله عنها أنها ذكرت لرسول الله ﷺ

---

(١) تطهير الاعتقاد ، ص (٤٥ ، ٤٦) .

(٢) قرة عيون الموحدين ، ص (١١٤) .

(٣) صحيح الجامع الصغير ، ح (٢٦٨٠) .



كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية ؛ فذكرت له ما رأت فيها من الصور فقال رسول الله ﷺ : (أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ؛ أولئك شرار الخلق عند الله) ؛ قال القرطبي : (إنما فعل ذلك أوائلهم ليتأنسوا برؤية تلك الصورة ، ويتذكروا بها أحوالهم الصالحة ؛ فيجتهدون كاجتهادهم ؛ ويعبدون الله عند قبورهم ، فمضت لهم بذلك أزمان ، ثم خلف من بعدهم خلف جهلوا أغراضهم ، ووسوس لهم الشيطان أن آباءهم وأجدادهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها فعبدوها ؛ فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك ؛ وشدد النكير والوعيد على فعل ذلك ، وسد الذرائع المؤدية إلى ذلك)[1] .
وروى مسلم بسنده عن أبي الهياج الأسدي قال : قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع تمثالا إلا طمسته ، ولا قبرا مشرفا إلا سويته) ، وفي رواية له (وَلَا صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا) ؛ فعلم أن الحكم يشمل ماله ظل وما لا ظل له . وفي جمع النبي ﷺ بين فتنة التصوير وفتنة القبور في هذه الأحاديث دلالة على علة تحريم التصوير ؛ وأنه كالبناء على القبور من أعظم وسائل الشرك ، ولتحريم التصوير علة أخرى يدل عليها قوله ﷺ : (قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقًا كَخَلْقِي ؛ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً) رواه مسلم ؛ فعلم أن التصوير مضاهاة لخلق الله ، وذريعة للشرك ؛ ولهذا عظم وعيده ، وغلظ تحريمه في نصوص صحيحة صريحة ، روى البخاري بسنده عن عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ وَقَدْ سَتَرْتُ بِقِرَامٍ لِي عَلَى سَهْوَةٍ لِي فِيهَا تَمَاثِيلُ ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَتَكَهُ وَقَالَ : أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ . قَالَتْ : فَجَعَلْنَاهُ وِسَادَةً أَوْ وِسَادَتَيْنِ) ، أي من أشد الناس عذابا ؛ لما ثبت في صحيح مسلم عنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : (دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مُتَسَتِّرَةٌ بِقِرَامٍ فِيهِ صُورَةٌ فَتَلَوَّنَ وَجْهُهُ ثُمَّ تَنَاوَلَ السِّتْرَ فَهَتَكَهُ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُشَبِّهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ) ، وروى مسلم بسنده عن ابن عباس سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ يَجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسًا فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ) ؛ والباء بمعنى (في) ؛ أي يجعل له في كل صورة صورها روحا حتى يعذب المصور بنفس ما صوره ، وله عنه مرفوعا : (مَنْ صَوَّرَ صُورَةً

(١) المفهم ٢ / ١٢٧ ، ١٢٨ .

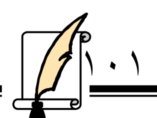
فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ) ، وروى البخاري بسنده عن أَبِي جُحَيْفَةَ ﷺ قال : (إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ ثَمَنِ الدَّمِ وَثَمَنِ الْكَلْبِ وَكَسْبِ الْبَغِيِّ ، وَلَعَنَ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ ، وَالْمُصَوِّرَ) ؛ قال النووي : (هَذِهِ الْأَحَادِيثُ صَرِيحَةٌ فِي تَحْرِيمِ تَصْوِيرِ الْحَيَوَانِ ، وَأَنَّهُ غَلِيظُ التَّحْرِيمِ ، وَأَمَّا الشَّجَرُ وَنَحْوُهُ مِمَّا لَا رُوحَ فِيهِ فَلَا تَحْرُمُ صَنْعَتُهُ ، وَلا التَّكَسُّبُ بِهِ ، وَسَوَاءٌ الشَّجَرُ الْمُثْمِرُ وَغَيْرُهُ ، وَهَذَا مَذْهَبُ الْعُلَمَاءِ كَافَّةً إِلَّا مُجَاهِدًا فَإِنَّهُ جَعَلَ الشَّجَرَ الْمُثْمِرَ مِنَ الْمَكْرُوهِ . قَالَ الْقَاضِي : لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ غَيْرُ مُجَاهِدٍ ، وَاحْتَجَّ مُجَاهِدٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقًا كَخَلْقِي . وَاحْتَجَّ الْجُمْهُورُ بِقَوْلِهِ ﷺ: (وَيُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ) أَيِ اجْعَلُوهُ حَيَوَانًا ذَا رُوحٍ كَمَا ضَاهَيْتُمْ ، وَعَلَيْهِ رِوَايَةُ : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقًا كَخَلْقِي) وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ الْمَذْكُورُ فِي الْكِتَابِ : (إِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَاصْنَعِ الشَّجَرَ ، وَمَا لَا نَفْسَ لَهُ)[١] .

٢- اتخاذ القبور مساجد ؛ في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها (لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك : لعنة الله على اليهود والنصارى ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ؛ يحذر ما صنعوا) ، وفي صحيح مسلم عن جندب ﷺ قال سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول : (إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ؛ فإن الله تعالى قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ، ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، إني أنهاكم عن ذلك) ، ولأحمد بسند جيد[٢] عن ابن مسعود ﷺ مرفوعا : (إن من شرار الناس من تدركه الساعة وهم أحياء ، ومن يتخذ القبور مساجد) ؛ واتخاذ القبور مساجد يعني : بناء مسجد عليها أو قبة أو مشهد ، ويعني كذلك الصلاة عندها وإليها ولو لم يبن مسجد ؛ لأن كل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدا ، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدا ، كما قال ﷺ : (جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا) رواه البخاري ، وروى مسلم بسنده عن أبي مرثد الغنوي ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٤ / ٩٠ ، ٩١ .

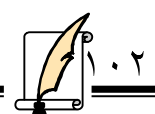
(٢) كتاب التوحيد بشرحه فتح المجيد ، ص (٢٤٩) .



(لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها) . وقال تعالى :﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ الجن: ١٨ ؛ يقول المعلمي : (أي أن المساجد كلها لله وحده لا شريك له ؛ خالصة من كل شرك ؛ فتبين أن من خواص المسجد أن يكون خالصا لله ؛ فمن بنى بناء وزعم أنه قصد به أن يكون مسجدا فإن كانت نيته في بنائه خالصة لله وحده لا شريك لله كان البناء مسجدا ، وإن لم يكن كذلك كأن قصد أن يكون على قبر فلان الصالح ، أو بالقرب منه فهذا لم يبن خالصا لله وحده لا شريك له ؛ وبهذا فقدت منه تلك الخاصة المعتبرة في المساجد ! ومما يؤيد هذا الاستدلال حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ؛ من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)[١]. وأول من خالف هذه السنة وبنى المساجد على القبور هم الرافضة ، ثم كثرت هذه البدعة في بعض البلدان حتى فاقت ما كان عليه أهل الجاهلية الأولى ؛ قال عبد الرحمن بن حسن : (وقد زاد هؤلاء المتأخرون من هذه الأمة على ما وقع من أهل الجاهلية من هذا الشرك بأمور ؛ منها أنهم يخلصون عند الاضطرار لغير الله وينسون الله . ومنها أنهم يعتقدون أن آلهتهم من الأموات يتصرفون في الكون دون الله . وجمعوا بين نوعي الشرك في الإلهية والربوبية ، وقد سمعنا ذلك منهم مشافهة ؛ ومن ذلك قول ابن كمال من أهل عمان وأمثاله : إن عبد القادر الجيلاني يسمع من دعاه ومع سماعه ينفع)[٢] .

٤- البناء على القبور وإسراجها ، روى مسلم بسنده عن أبي الهياج الأسدي قال : قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ؛ أن لا تدع تمثالا إلا طمسته ولا قبرا مشرفا إلا سويته) ، وروى بسنده عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ (نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ) ، وروى النسائي وغيره عن عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : (لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ) ؛ وقد اختلف العلماء في علة النهي عن البناء على القبور ؛ هل هي كراهية معاملة القبر الذي هو بيت البلى بما ينافي هذا المعنى من الإحكام والتزيين أم إنها كراهة تمييز القبر بما قد يؤدي إلى تعظيمه ؟ يرجح الثاني تواتر

(١) مسودة عمارة القبور في الإسلام ، ص (٢١) .
(٢) قرة عيون الموحدين ، ص (١٢١ ، ١٢٢) .



الأحاديث بالنهي عن اتخاذ القبور مساجد ، والعلة المنصوصة أرجح من العلة المستنبطة[١] . ومما ينبغي أن يعلم أن ما يفعل عند قبور الصالحين وغيرهم ... نوعان ؛ مشروع وممنوع . أما المشروع فهو ما شرعه الشارع من زيارة القبور على الوجه الشرعي من غير شد رحل ، يزورها المسلم متبعا للسنة فيدعو لأهلها عموما ولأقاربه ومعارفه خصوصا فيكون محسنا إليهم بالدعاء لهم وطلب العفو والمغفرة والرحمة لهم ، ومحسنا إلى نفسه باتباع السنة وتذكر الآخرة والاعتبار بها والاتعاظ . أما الممنوع فإنه نوعان ؛ أحدهما : محرم ووسيلة للشرك ؛ كالتمسح بها ، والتوسل إلى الله بأهلها ، والصلاة عندها ، وكإسراجها والبناء عليها ، والغلو فيها وفي أهلها إذا لم يبلغ رتبة العبادة . والنوع الثاني : شرك أكبر ؛كدعاء أهل القبور والاستغاثة بهم وطلب الحوائج الدنيوية والأخروية منهم ، فهذا شرك أكبر ، وهو عين ما يفعله عباد الأصنام مع أصنامهم . ولا فرق في هذا بين أن يعتقد الفاعل لذلك أنهم مستقلون في تحصيل مطالبه ، أو متوسطون إلى الله ، فإن المشركين يقولون : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ، وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ . فمن زعم أنه لا يكفر من دعا أهل القبور حتى يعتقد أنهم مستقلون بالنفع ودفع الضرر ، وأن من اعتقد أن الله هو الفاعل وأنهم وسائط بين الله وبين من دعاهم واستغاث بهم لم يكفر . من زعم ذلك فقد كذب ما جاء به الكتاب والسنة ، وأجمعت عليه الأمة من أن من دعا غير الله فهو مشرك كافر في الحالين المذكورين سواء اعتقدهم مستقلين أو متوسطين . وهذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام[٢] .

٤- اتخاذ القبور أعيادا ؛ روى أبو داود بسند جيد[٣] عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا ، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا ، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ) ؛ فنهى ﷺ عن اتخاذ قبره عيدا ، ويدخل في ذلك سائر القبور بطريق الأولى ؛ واتخاذ القبر عيدا يشمل عدة صور ؛ منها :-

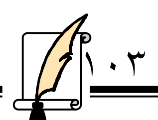
أ- اعتياد زيارته على وجه مخصوص ؛ ككل جمعة أو شهر ، أو كلما دخل المسجد ، أو كلما

---

(١) انظر : عمارة القبور في الإسلام ، ص (٤٢ - ٤٤) .

(٢) القول السديد ، ص (٨٠ - ٨٤) .

(٣) انظر : قرة عيون الموحدين ، ص (١٢٥) .



صلى الفجر مثلا ؛ لأن العيد اسم لما يعتاد مجيئه وقصده من زمان أو مكان .

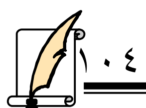
ب – تحري الدعاء عند القبر ؛ لما رواه ضياء الدين المقدسي في المختارة بسند جيد[١] عن علي بن الحسين رحمه الله ، أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها ، فيدعو ، فنهاه ، وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال : (لا تتخذوا قبري عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا علي ، فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم) ؛ قال عبد الرحمن بن حسن : (هذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها . قال شيخ الإسلام رحمه الله : ما علمت أحدا رخص فيه ؛ لأن ذلك نوع من اتخاذها عيدا)[٢] .

ج – شد الرحل لمجرد زيارة قبر النبي ﷺ أوغيره من القبور والمشاهد ؛ لأن ذلك من اتخاذها أعيادا ، قال عبد الرحمن بن حسن : (وهذه هي المسألة التي أفتى بها شيخ الإسلام – رحمه الله – أعني من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين – ونقل فيها اختلاف العلماء ، فمن مبيح لذلك كالغزالي وأبي محمد المقدسي . ومن مانع لذلك كابن بطة وابن عقيل ، وأبي محمد الجويني ، والقاضي عياض . وهو قول الجمهور ، نص عليه مالك و لم يخالفه أحد من الأئمة ، وهو الصواب ؛ لما في الصحيحين عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى . فدخل في النهي شدها لزيارة القبور والمشاهد ... ؛ ولهذا فهم منه الصحابة – رضي الله عنهم – المنع ؛ كما في الموطأ والمسند والسنن عن بصرة بن أبي بصرة الغفاري رضي الله عنه أنه قال لأبي هريرة رضي الله عنه – وقد أقبل من الطور – : لو أدركتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد ؛ المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى. وروى الإمام أحمد وعمر بن شبّة في أخبار المدينة بإسناد جيد عن قزعة قال: أتيت ابن عمر فقلت : إني أريد الطور . فقال : إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد ؛ المسجد الحرام ، ومسجد المدينة ، والمسجد الأقصى . فدع عنك الطور ولا تأته . فابن عمر وبصرة بن أبي بصرة جعلا الطور مما نهي عن شد الرحال

---

(١) انظر : فتح المجيد ، ص (٢٦٨) .

(٢) المرجع السابق ، ص (٢٧٠) .

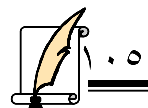


إليه ؛ لأن اللفظ الذي ذكراه فيه النهي عن شدها إلى غير الثلاثة مما يقصد به القربة ، فعلم أن المستثنى منه عام في المساجد وغيرها ، وأن النهي ليس خاصا بالمساجد ، ولهذا نهيا عن شدها إلى الطور مستدلين بهذا الحديث . والطور إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة لبقعة . فإن الله سماه الوادي المقدس والبقعة المباركة . وكلّم كليمه موسى عليه السلام هناك ، وهذا هو الذي عليه الأئمة الأربعة وجمهور العلماء ، ومن أراد بسط القول في ذلك والجواب عما يعارضه ، فعليه بما كتبه شيخ الإسلام مجيبا لابن الأخنائي فيما اعترض به على ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة ، وأخذ به العلماء ... وقد بسط القول في ذلك الحافظ محمد بن عبد الهادي في كتاب الصارم المنكي في رده على السبكي ، وذكر فيه علل الأحاديث الواردة في زيارة قبر النبي ﷺ وذكر هو وشيخ الإسلام -رحمهما الله تعالى - أنه لا يصح منها حديث عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه ، مع أنها لا تدل على محل النزاع ؛ إذ ليس فيها إلا مطلق الزيارة ، وذلك لا ينكره أحد بدون شد الرحال ، فيحمل على الزيارة الشرعية التي ليس فيها شرك ولا بدعة)[1] . وذكر ابن عبد الهادي في مواضع من كتابه المذكور أن شيخ الإسلام رحمه الله لم يحرم زيارة القبور على الوجه المشروع في شيء من كتبه ، بل استحبها وحض عليها ، ومناسكه ومصنفاته طافحة بذكر استحباب زيارة قبر النبي ﷺ وسائر القبور[2] . ثم نقل عنه أنه قال في منسك له صنفه في أواخر عمره : (وإذ دخل المدينة قبل الحج أو بعده فإنه يأتي مسجد النبي ﷺ ويصلي فيه والصلاة فيه خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ولا تشد الرحال إلا إليه ، وإلى المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، هكذا ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد ، وهو مروي من طرق أخرى ، ومسجده كان أصغر مما هو اليوم وكذلك المسجد الحرام لكن زاد فيهما الخلفاء الراشدون ومن بعدهم ، وحكم الزيادة حكم المزيد في جميع الأحكام ، ثم يسلم على النبي ﷺ وصاحبيه فإنه قد قال : (ما من رجل يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام) رواه أبو داود وغيره ، وكان عبد الله بن عمر إذا دخل المسجد قال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبت ، ثم ينصرف وهكذا كان الصحابة يسلمون

---

(١) المرجع السابق ، ص (٢٧١ ، ٢٧٢) .

(٢) انظر : الصارم المنكي ، ص (٢٤ ، ٤١ ، ٤٢) .

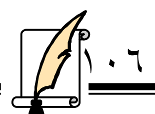


عليه ﷺ)[١]. وهكذا المؤلف رحمه الله فإنه يقول في المسائل : (الرابعة : نهيه عن زيارة قبره ﷺ على وجه مخصوص ، مع أن زيارته من أفضل الأعمال)[٢] .

٥- الإطـــــراء ؛ روى البخاري بسنده عن عمر رضي الله عنه قال : (سمعت الـنبي ﷺ يقـول : لا تطروني ، كما أطرت النصارى ابن مريم ؛ فإنما أنا عبده فقولوا : عبد الله ورسوله) ؛ والإطراء مجاوزة الحد في المدح والكذب عليه ، أو المدح بالباطل ، أو المبالغة والإفراط في المـدح . وروى أبوداود بسند جيد[٣] عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال : (انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْنَا : أَنْتَ سَيِّدُنَا . فَقَالَ السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى . قُلْنَا : وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا . فَقَالَ : قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ) ، وروى النسائي بسند جيد[٤] عن أنس رضي الله عنه (أن ناسا قالوا : يا رسولَ اللَّهِ يا خيرنا وابنَ خيرنا ، وسيِّدنا وابنَ سيِّدنا . فقالَ : يا أيُّها النَّاسُ قولوا بقولِكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمَّدُ بنُ عبدِ اللَّهِ ورسولُه ، ما أحبُّ أن ترفعوني فوقَ مترلتي الَّتي أنزلني اللَّهُ عزَّ وجلَّ) ؛ فنهى النبي ﷺ عن الإطراء ، ونهى عن أهـم ذرائع الإطراء ؛ وهو المدح في الوجه حتى لو كان بما في الممدوح ؛ لأن الشيطان قد يسـتجري المادح حتى يطري الممدوح . وقد خص النووي وغيره النهي عن المدح مواجهة بما إذا كـان في المدح كذب أو إفراط أو خيف على الممدوح الفتنة ؛ لأن النبي ﷺ مدح في الشعر والخطـب ، ومدح أصحابه في غيبتهم وحضورهم . وفيما قاله نظر ؛ لأن معظم أدلته على التخصيص مـن إخبار النبي ﷺ بفضائل أصحابه ؛ وأن منهم الصديق ، والشهيد ، والحيي ، ومـن يفـر منـه الشيطان ، ونحو ذلك ؛ فالأحوط إبقاء النهي على عمومه ؛ وبخاصة أن النصـوص الصـحيحة تعضد دلالته ؛ روى مسلم بسنده عن المقداد رضي الله عنه قَالَ : (أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَحْثِيَ فِـي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ) ، وروى البخاري بسنده عن أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَـالَ : (أَثْنَـى رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ ، مِرَارًا

---

(١) الصارم المنكي ، ص (٦٤ ، ٦٥) .
(٢) كتاب التوحيد مع القول السديد ، ص (٨٧) .
(٣) كتاب التوحيد مع فتح المجيد ، ص (٥٢٣) .
(٤) كتاب التوحيد مع فتح المجيد ، ص (٥٢٤) .

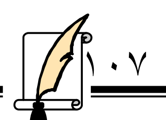


! ثُمَّ قَالَ : مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ : أَحْسِبُ فُلَانًا وَاللَّهُ حَسِيبُهُ ، وَلَا أُزَكِّـي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا ، أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ) ، وروى ابن ماجة بسند صحيح[1] عن معاوية ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إياكم والتمادح ؛ فإنه الذبح) ؛ فالمدح مواجهة مذموم حتى لو كان بما في الممدوح ؛ لأنه قد يفضي بالممدوح إلى التعاظم المنافي للعبودية ، ويتدرج بالمادح إلى الغلو والإطراء ، والإطراء من طرق الشرك ؛ كما يشهد بذلك الواقع ؛ فكثير ممن أفرط في مدح الرسول ﷺ انتهى به إفراطه إلى رفع النبي ﷺ فوقَ مترلته الَّتي أنزله اللَّهُ عزَّ وجلَّ ؛ حتى زعم بعضهم أنه يجوز الاستغاثة بالرسول ﷺ في كل ما يستغاث فيه بالله ، وأنه يعلم مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله ! وقد رأيت في حاشية الصاوي مانصه : (رسول الله ﷺ لم يخرج من الدنيا حتى أطلع على ما كان وما يكون وما هو كائن ، ومن جملته وقت الساعة !!)[2] ، قال ابن عثيمين : (الإطراء والغلو يؤدي إلى عبادته ﷺ كما هو الواقع الآن ، فيوجد عند قبره ﷺ في المدينة من يسأله ، فيقول : يا رسول الله ! المدد ، المدد ، يا رسول الله ! أغثنا ، يا رسول الله ! بلادنا يابسة ، وهكذا ، ورأيت بعيني رجلاً يدعو الله تحت ميزاب الكعبة مولياً ظهره البيت مستقبلاً المدينة ، لأن استقبال القبر عنده أشرف من استقبال الكعبة والعياذ بالله)[3] .

٦- التنطع ؛ روى مسلم بسنده عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (هلك المتنطعون قالها ثلاثا) ؛ والتنطع مأخوذ من النطع ؛ وهو الغار الأعلى للفم ؛ لأن المتنطع يتكلم بأقصى حلقه ، ثم استعمل في كل من جاوز الحد في أقواله أو أفعاله ؛ فيدخل في ذلك مجاوزة الحد في تعظيم الصالحين ، فإنه يفضي إلى الشرك ولو بعد حين ! وكذلك مجاوزة الحد في الكلام بالمبالغة والتهويل ؛ التي تظهر الباطل في صورة الحق ، وتصد الناس عن دين الله ! وكم لهؤلاء المتنطعين من محاضرات ومقالات ومؤلفات صدوا بها كثيرا من عباد الله عن التوحيد الذي بعثت به الرسل وأنزلت به الكتب !

---

(١) صحيح الجامع الصغير ، ح (٢٦٧٤) .
(٢) حاشية الصاوي ٤ / ٣٥ .
(٣) القول المفيد ١ / ٣٧٧ .



شبهات القبوريين

القبوريون لقب عرفي يطلق على كل من غلا في قبور الصالحين حتى بلغ بهم رتبة العبادة أو كاد ؛ وهم كثير في الشيعة والصوفية ومن سار في ركابهم من العوام . ولهؤلاء الغلاة شبهات كثيرة يصدون بها عن الحق الذي جاءت به النصوص ، ويبررون بها ماهم عليه من شركيات وبدع ؛ ومن هذه الشبهات :-

١- أن الشرك مخصوص بعبادة الأوثان ، ودعاء الصالحين ليس بشرك ، وإنما هو استشفاع وتوسل ، والجواب :-

أ- أن الشرع دل على أن اتخاذ القبور مساجد يصيرها أوثانا تعبد من دون الله ؛ روى مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[1] ؛ فهذا الحديث صريح في أن القبر يمكن أن يكون وثنا ، وهؤلاء يزعمون أن القبور لا يمكن أن تكون أوثانا ، لأن الأوثان هي أوثان الجاهلية فقط[2].

ب- أن الواقع دل على أن الغلو في قبور الصالحين صيرها أوثانا تعبد من دون الله ؛ روى ابن جرير بسنده عن مجاهد (أفرأيتم اللات والعزى) قال : كان يلت لهم السويق ؛ فمات فعكفوا على قبره ، وقال ابن عباس : كان يلت السويق للحاج ؛ فغلو فيه لصلاحه حتى عبدوه وصار قبره من أوثان المشركين[3] .

٢- أن هذه الأمة معصومة من الشرك ؛ لحديث : (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ) رواه مسلم ؛ واتخاذ القبور مساجد ، ودعاء أهلها ، قد عم الجزيرة وغيرها ، فلو كان ذلك شركا لما كانت الأمة معصومة من الشرك ، ولما تحققت دلالة الحديث ! والجواب من وجوه :-

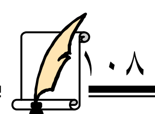
أ – أن الحديث لا ينفي وقوع الشرك في جزيرة العرب ؛ بدليل أن معظم أهلها ارتدوا بعد وفاة

---

(١) رواه الإمام مالك وغيره مرسلا بسند صحيح ووصله أحمد وغيره بسند حسن . انظر : النهج السديد ، ص (١١٥) .

(٢) انظر : التمهيد ، ص (٢٧١) .

(٣) انظر : فتح المجيد ، ص (٢٥٤ – ٢٦٤) .



النبي ﷺ حتى لم يبق على الإسلام إلا مدن قليلة ؛ كمكة والمدينة والطائف ؛ فعلم أن المراد الإخبار عن ظن الشيطان وقت عز الإسلام ، ولا يلزم أن يكون ظنه مطابقا للواقع ؛ فلا يعلم الغيب إلا الله . ويحتمل أن يكون المراد إياسه من إطباق الأمة على الشرك ، وهذا حق ؛ فإن الأمة معصومة من ذلك ؛ فلا تزال طائفة منهم على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى .

ب – أن عبادة الأوثان قد وقعت في أهل الكتاب ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ المائدة: ٦٠ ، وقال : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾ الكهف: ٢١ ؛ وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ النساء: ٥١ ، والجبت اسم يعم الشرك وغيره ؛ ولهذا فسره علماء السلف مرة بالشرك ، ومرة بالسحر أو الكاهن أو الأصنام ، والطاغوت اسم جامع لكل ماتجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع[1] ! ؛ فإذا كان من أهل الكتاب من وقع في الشرك ، وآمن بالجبت والطاغوت ، وغلا في الصالحين حتى جعل قبورهم أوثانا تعبد من دون الله فإن ذلك سيقع في أمة محمد ﷺ لامحالة ؛ لقوله ﷺ : (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالَ فَمَنْ) رواه البخاري ؛ قال عبدالرحمن بن حسن : (بين في هذا الحديث أن كل ما وقع من أهل الكتاب مما ذمهم الله به في هذه الآيات وغيرها لابد أن يقع جميعه في هذه الأمة)[2] .

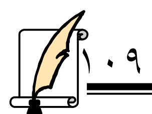
ج – أن الأحاديث قد صرحت بوقوع الشرك في هذه الأمة ؛ روى مسلم بسنده عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ حَوْلَ ذِي الْخَلَصَةِ ، وَكَانَتْ صَنَمًا تَعْبُدُهَا دَوْسٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِتَبَالَةَ) ، وروى أبو داود بسند صحيح[3] عن ثوبان : (لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد الأوثان) . والوثن

---

(١) قال ابن عثيمين : (المعبود كالأصنام ، والمتبوع كعلماء الضلال ، والمطاع كالأمراء ؛ فطاعتهم في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله تعد من عبادتهم . والمراد من كان راضيا بذلك ، أو يقال : هو طاغوت باعتبار عابديه وتابعيه ومطيعيه ؛ لأنهم تجاوزوا به حده) . القول المفيد ١/ ٤٦٩ .

(٢) قرة عيون الموحدين ، ص (١٣٠) .

(٣) صحيح الجامع الصغير ، ح (٧٤١٨) .



يطلق على ما قصد بنوع من أنواع العبادة من دون الله من القبور والمشاهد وغيرها . قال ابن سعدي : (الوثن اسم جامع لكل ما عبد من دون الله ، لا فرق بين الأشجار والأحجار والأبنية ولا بين الأنبياء والصالحين وغيرهم ، فمن دعا غير الله أو عبده فقد اتخذه وثنا وخرج بذلك عن الدين ، ولم ينفعه انتسابه إلى الإسلام ، فكم انتسب إلى الإسلام من مشرك وملحد وكافر منافق والعبرة بروح الدين وحقيقته لا بمجرد الأسامي والألفاظ التي لا حقيقة لها)[1] .

٣- أن توحيد الألوهية هو بعينه توحيد الربوبية ؛ لأن الرب والإله بمعنى واحد ؛ ولأن الله تعالى إنما واثق العباد على الربوبية ، وهو الذي بعث به الرسل ، وأنكر على العباد التنديد فيه ، وهو التوحيد الذي يسأل عنه العبد في قبره ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ الأعراف: ١٧٢ ، وقال : ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ يوسف: ٣٩ ، وقال : ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ التوبة: ٣١ ، وروى الإمام أحمد وغيره بسند صحيح[2] عن البراء بن عازب مرفوعا : (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا و إقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس ... الحديث ، وفيه : فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله) ؛ فعلم من هذه النصوص أن المدار على الربوبية ؛ فمن أتى به فقد أتى بما يكفي في الدخول في الإسلام ، ولا يخرجه عن ذلك صرف شيء من العبادات لغير الله إلا إذا قارن ذلك شرك في الربوبية ؛ كأن يعتقد فيمن يدعوه من الصالحين تأثيرا في جلب المنافع أو دفع المضار ؛ لأنه لم يفرد الله بالخلق والتدبير[3] ! والجواب عن هذه الشبهة من وجوه :-

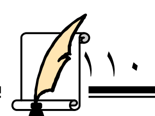
أ- أن الرب والإله ليسا بمعنى واحد لغة ؛ فالرب بمعنى السيد والمصلح والمالك الذي له الخلق

---

(١) القول السديد ، (٩٠ - ٩٢) بتصرف يسير . وانظر : فتح المجيد ، ص (٢٧٣ - ٢٩٠) ، الدرر السنية ١٢ / ١١٣ - ١١٩ ، ١٣١ - ١٣٤ .

(٢) صحيح الجامع الصغير ، ح (١٦٧٦) .

(٣) انظر : دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص (٣٢٨- ٣٣٤) .



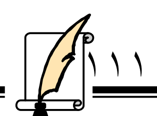
والأمر ، والإله بمعنى المعبود . وأما شرعا فإن الرب والإله من الألفاظ التي تتنوع دلالتها باعتبار الإفراد والاقتران ؛ فإذا اقترنا كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ (٣) ﴾ الناس: ١ - ٣ ، دل اسم الرب على معنى غير معنى الإلــه ، وإذا أفردا كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الأنعام: ١٦٤ ، وقوله : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ البقرة: ١٦٣ ؛ كان اسم الرب والإله بمعنى ؛ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الأعراف: ١٧٢ ؛ ولهذا فسره بالربوبية والألوهية معا فيما رواه الفريابي بسند صحيح[(١)] عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : (أخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم ... اعلموا أنه لا إله غيري ، ولا رب سواي ؛ فلا تشركوا بي شيئا) ، وكذلك قولــه : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ﴾ يوسف: ٣٩ ؛ ولهذا قال تعالى بعدها : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ يوسف: ٤٠ ؛ ففسر الرب بالمعبود ، وتفسير القرآن بالقرآن أعظم طرق التفسير . وهكــذا قولـــــه تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ﴾ التوبة: ٣١ ، فقد فسر الرب بالمعبود في نص واحد ؛ فعلم أن الرب إذا أفرد كان بمعنى الإله .

ب- أن الرسل إنما بعثوا بالدعوة لتوحيد الألوهيــــة ؛ قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) ﴾ الأعراف: ٥٩ ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦ ، وهو التوحيد الذي أنكر الله على عباده التنديد فيه ؛ قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ النساء: ٣٦ ، وقال : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) ﴾ مريم: ٤١ - ٤٢ ، ولا يشكل على هذا قوله تعالى : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ﴾ يوسف: ٣٩ ، لأن الرب إذا أفرد كان بمعنى الإله .

ج- أن النصوص فرقت بين توحيد الربوبية والألوهية ، وبينت أن المشركين أقروا بالأول دون الثاني ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) ﴾

---

(١) كتاب القدر للفريابي ، ح (٥٢) .



المؤمنون: ٨٦ - ٨٧ ، وقال :﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ ص: ٥ ، قال ابن عباس : (إذا قيل لهم من خلق السموات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال ؟ قالوا : الله ، وهم مشركون بــه)[١] ؛ ولهذا احتج عليهم بما أقروا على ما أنكروا في آيات كثيرة ؛ كقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ البقرة: ٢١ - ٢٢ ، وقوله : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ النمل: ٦٠ - ٦٤ . فالزعم مع هذا كله أن الربوبية والألوهية بمعنى مكابرة ظاهرة !

د- أن المشركين الأولين كانوا يؤمنون بأن الصالحين لاينفعون ولايضرون ، وإنما تعلقوا بهم ليشفعوا لهم عند الله في قضاء حوائجهم ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣ ، وقال :﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ يونس: ١٨ ؛ فعلم أن صرف شيء من العبادة لغير الله شرك ولا يشترط لذلك أن يقارنه شرك في الربوبية ؛ فمن دعا غير الله فيما لايقدر عليه إلا الله فقد أشرك حتى لو اعتقد فيمن يدعوه أنه مجرد وسيط وشفيع في قضاء حاجته لا شرك له في شيء من معاني الربوبية[٢] .

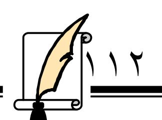
رابعا : التوســـــل البدعي .

التوسل هو أن يقرن الداعي بدعائه ما يعتقد أنه سبب لإجابة طلبه[٣] ؛ فإن كان السبب أو الوسيلة شرعية كان التوسل شرعيا وإلا فبدعي . والتوسل أنواع ؛ أشهرها أربعة :-

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٤٩٤ .

(٢) انظر : كشف الشبهات بشرح البراك ، ص (٤٢ - ٤٧) ، دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص (٣٣٤ - ٣٤٦) ، الوعد الأخروي ٢ / ٨١٤ ، ٨٦٢ - ٨٦٦ .

(٣) انظر : المجموع الثمين ١ / ٦٥ .

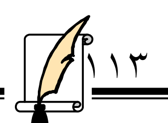


١- التوسل بأسماء الله وصفاته ؛ فيتوسل بالاسم أو الوصف المقتضي لمطلوبه[١] ؛ وقد عقد المؤلف رحمه الله في كتاب التوحيد بابا بعنوان ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ الأعراف: ١٨٠ ؛ لبيان هذا النوع من التوسل المشروع ، والرد على من عدل عنه إلى التوسل بالموتى والغائبين[٢]. والتوسل بأسماء الله وصفاته أعظم أنواع التوسل[٣] ؛ ولعل المؤلف اقتصر عليه لذلك ، وأمثلته كثيرة ؛ منها ما رواه الترمذي و أبوداود بسند جيد[٤] عن بريدة ﷺ أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يقول : (اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد و لم يولد ، و لم يكن له كفوا أحد . فقال : دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب) ، وروى الترمذي بسند صحيح[٥] عن أنس ﷺ قال : (دخل النبي ﷺ المسجد ، ورجل قد صلى ، وهو يدعو ويقول في دعائه : اللهم لا إله إلا أنت ، المنان بديع السموات والأرض ، ذا الجلال والإكرام . فقال النبي ﷺ : أتدرون بم دعا الله ؟ دعا الله باسمه الأعظم ؛ الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى) ، ومن ذلك مارواه الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعا : (من قال حين يخرج إلى الصلاة : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق ممشاي ؛ فإني لم أخرج أشرا ولا بطرا ، ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذني من النار ، وأن تغفر لي ذنوبي ؛ إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . وكل الله به سبعين ألف ملك ؛ يستغفرون له ، وأقبل الله عليه بوجهه حتى يفرغ من صلاته) ؛ فهذا الحديث على التسليم بثبوته هو من التوسل بصفات الله تعالى ؛ فحق السائلين على الله أن يجيبهم ، وحق العابدين أن يثيبهم ؛ والإجابة والإثابة من أفعال الله تعالى[٦] .

٢- التوسل بالإيمان برسوله ﷺ واتباعه ؛ وقد أمر الله بهذه الوسيلة في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

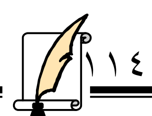
(١) المرجع السابق ١ / ٦٦ .
(٢) انظر : قرة عيون الموحدين ، ص (٢٢٤) .
(٣) انظر : مجموع الفتاوى ١ / ٢١٨ .
(٤) النهج السديد ، ص (٢٤٠) .
(٥) المرجع السابق ، ص (٢٤١) .
(٦) انظر : مجموع الفتاوى ١ / ٢٠٩ ، ٢٨٨ ، التوسل للألباني ، ص (١٠٠) .



ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ المائدة: ٣٥ ؛ قال ابن تيمية : (فَابْتِغَاءُ الْوَسِيلَةِ إلَى اللَّهِ إنَّمَا يَكُونُ لِمَنْ تَوَسَّلَ إلَى اللَّهِ بِالْإِيمَانِ بِمُحَمَّدِ وَاتِّبَاعِهِ . وَهَذَا التَّوَسُّلُ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَطَاعَتِهِ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ، فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَعْدَ مَوْتِهِ ، فِي مَشْهَدِهِ وَمَغِيبِهِ ، لَا يُسْقِطُ التَّوَسُّلَ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِطَاعَتِهِ عَنْ أَحَدٍ مِنْ الْخَلْقِ فِي حَالٍ مِنْ الْأَحْوَالِ ، بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَلَا بِعُذْرِ مِنْ الْأَعْذَارِ . وَلَا طَرِيقَ إلَى كَرَامَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ وَالنَّجَاةِ مِنْ هَوَانِهِ وَعَذَابِهِ إلَّا التَّوَسُّلُ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِطَاعَتِهِ)[١]. والتوسل بذلك إما أن يكون إلى إجابة الدعاء وإعطاء السؤال ، أو إلى حصول ثواب الله وجنته ؛ فالأعمال الصالحة التي أمر بها النبي ﷺ أمر إيجاب أو استحباب هي الوسيلة التامة إلى سعادة الدنيا والآخرة ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ آل عمران: ١٩٣ ، وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ آل عمران: ١٦[٢] .

٣- التوسل بدعاء الرسول ﷺ أو غيره ممن ترجى إجابته ؛ وهذا يكون على وجهين ؛ أحدهما : أن يطلب من الرسول ﷺ الدعاء والشفاعة ، فيدعو ويشفع ، كما كان يطلب منه في حياته ، وكما يطلب منه يوم القيامة أن يشفع عند الله في فصل القضاء . والثاني : أن يسأل الله بدعاء الوسيلة وشفاعته ؛ كما في حديث الأعمى رضي الله عنه ؛ فإنه طلب من النبي ﷺ الدعاء والشفاعة ؛ فدعا له النبي ﷺ وشفع فيه ، وأمره أن يدعو الله أن يقبل شفاعته ؛ قال ابن تيمية : (حديث الأعمى صريح في أنه إنما توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته ، وهو طلب من النبي ﷺ الدعاء ، وقد أمره النبي ﷺ أن يقول : اللهم شفعه في)[٣] ، وقال : (حَدِيثُ الْأَعْمَى الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِي مِنْ التَّوَسُّلِ بِدُعَائِهِ ؛ فَإِنَّ الْأَعْمَى قَدْ طَلَبَ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ بِأَنْ يَرُدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بَصَرَهُ . فَقَالَ لَهُ إنْ شِئْت صَبَرْت وَإِنْ شِئْت دَعَوْت لَك . فَقَالَ . بَلْ اُدْعُهُ فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ وَيُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ وَيَقُولَ : (اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُك بِنَبِيِّك نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، يَا مُحَمَّدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إنِّي أَتَوَجَّهُ بك إلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لِيَقْضِيَهَا ؛ اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ) ؛ فَهَذَا تَوَسُّلٌ بِدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَشَفَاعَتِهِ ، وَدَعَا لَهُ النَّبِيُّ

(١) مجموع الفتاوى ١ / ١٤٣ .
(٢) المرجع السابق ١ / ٣٠٩ .
(٣) المرجع السابق ١ / ٢٢٢ ، ٢٢٣ .



ﷺ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : وَشَفِّعْهُ فِيَّ ؛ فَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يَقْبَلَ شَفَاعَةَ رَسُولِهِ فِيهِ ؛ وَهُوَ دُعَاؤُهُ)(١). ومن هذا الباب توسل الصحابة بدعاء العباس ﷺ ؛ فإن عمر ﷺ ومن معه من المسلمين توسلوا بدعاء العباس ﷺ ، وسألوا الله تعالى مع دعاء العباس ، فاستشفعوا جميعا ، ولم يكن العباس وحده هو الذي دعا لهم ؛ روى البخاري بسنده عن أنس ﷺ (أن عمر بن الخطاب ﷺ كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ؛ فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال ؛ فيسقون) ؛ قال ابن تيمية : (التوسل بالنبي ﷺ الذي ذكره عمر بن الخطاب ﷺ قد جاء مفسرا في أحاديث الاستسقاء ، وهو من جنس الاستشفاع به ، وهو أن يطلب منه الدعاء والشفاعة ، ويطلب من الله أن يقبل شفاعته ، وكذلك معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ؛ استسقى بيزيد بن الأسود الجرشي ؛ فقال : اللهم إنا نستشفع ونتوسل بخيارنا . يا يزيد ! ارفع يديك ، فرفع يديه ودعا ، ودعا الناس حتى سقوا ؛ ولهذا قال العلماء : يستحب أن يستسقي بأهل الدين والصلاح ، وإذا كانوا من أهل بيت رسول الله ﷺ فهو أحسن)(٢). ولكن لابد في هذا النوع من التوسل من أمرين ؛ أحدهما : الإيمان بالله ورسوله ، فبدون الإيمان لا يغني هذا التوسل في الآخرة ، وقد ينفع في الدنيا ؛ فلا يعجل لهم العذاب ، أو يهديهم الله أو يرزقهم بسبب دعاء الرسول ﷺ ؛ كما هدى دوسا بدعوته ﷺ(٣). والثاني : دعاء المتوسل وسؤاله ؛ ولهذا لا يكون هذا التوسل إلا في حياة المتوسل وحضرته ؛ قال ابن تيمية : (الِاسْتِشْفَاعَ طَلَبُ الشَّفَاعَةِ . وَالشَّافِعُ هُوَ الَّذِي يُشَفِّعُ السَّائِلَ فَيَطْلُبُ لَهُ مَا يَطْلُبُ مِنْ الْمَسْئُولِ الْمَدْعُوِّ الْمَشْفُوعِ إلَيْهِ . وَأَمَّا الِاسْتِشْفَاعُ بِمَنْ لَمْ يَشْفَعْ لِلسَّائِلِ ، وَلَا طَلَبَ لَهُ حَاجَةً بَلْ وَقَدْ لَا يَعْلَمُ بِسُؤَالِهِ فَلَيْسَ هَذَا اسْتِشْفَاعًا لَا فِي اللُّغَةِ وَلَا فِي كَلَامِ مَنْ يَدْرِي مَا يَقُولُ)(٤). وقد أخطأ من أجاز هذا التوسل حتى في مغيب المتوسل وبعد موته ؛ لأنه يخالف هدي الصحابة ؛ ولأن هذا الإطلاق ذريعة للشرك ، بخلاف التقييد بحضور المتوسل به ؛ (فلَيْسَ فِي طَلَبِ الدُّعَاءِ مِنْهُ ،

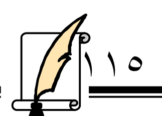
---

(١) المرجع السابق ١ / ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٢) المرجع السابق ١ / ٣١٤ ، ٣١٥ (باختصار يسير) .

(٣) المرجع السابق ١ / ١٤٣ — ١٤٥ .

(٤) المرجع السابق ١ / ٢٤٢ ، ٣١٤ .



وَدُعَائِهِ هُوَ ، وَالتَّوَسُّلِ بِدُعَائِهِ ضَرَرٌ ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ بِلَا شَرٍّ ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَحْذُورٌ وَلَا مَفْسَدَةٌ ؛ فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ لَمْ يُعْبَدْ فِي حَيَاتِهِ بِحُضُورِهِ ؛ فَإِنَّهُ يَنْهَى مَنْ يَعْبُدُهُ وَيُشْرِكُ بِهِ وَلَوْ كَانَ شِرْكًا أَصْغَرَ ، وَأَمَّا بَعْدَ مَوْتِهِ فَيَخَافُ الْفِتْنَةَ وَالْإِشْرَاكَ بِهِ ، كَمَا أَشْرَكَ بِالْمَسِيحِ وَ الْعُزَيْرِ وَغَيْرِهِمَا عِنْدَ قُبُورِهِمْ)[1] .

٤- التوسل بذات الوسيلة أو جاهه أو حقه أو حرمته ؛ كأن يقول : أسألك بفلان ، أو بجاه فلان ، أو بحق أنبيائك ، أو بحرمة نبيك . وقد شاع إطلاق التوسل على هذا المعنى بين كثير من الناس ، مع أنه توسل بدعي ، لم يرد به كتاب و لا سنة[2]؛ وبيان ذلك من وجوه :-

أ- أن هذا النوع من التوسل لم يرد به نقل تقوم به الحجة ، وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة ؛ مرفوعة وموقوفة ، أو عن من ليس قوله بحجة ؛ كحديث (اللهم إني أسألك بمحمد نبيك ، وبإبراهيم خليلك ...) ، وحديث (لما اقترف آدم الخطيئة قال : يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي) ، وحديث (أسألك بحق محمد نبيك ، وإبراهيم خليلك ، وموسى نجيك ...) ، وحديث (أسألك بحرمة وجهك ، وحرمة عرشك ، وحرمة نبيك)[3]. قال ابن تيمية : (لا يقدر أحد أن ينقل فيه عن النبي ﷺ شيئا ثابتا ؛ لا في الإقسام أو السؤال به ، ولا في الإقسام أو السؤال بغيره من المخلوقات)[4].

ب- أن الصحابة لم يكونوا يفعلونه مع النبي ﷺ ، لا في حضوره ولا في مغيبه ، ولا في حياته ولا بعد موته ، لا عند قبره ولا غير قبره ، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم ؛ ولو كان التوسل بالذات أو الجاه ونحوه مشروعا لما عدلوا عن التوسل به ﷺ إلى التوسل بعمه العباس رضي الله عنه وغيره[5] .

ت- أن الباء في قول المتوسل : أسألك بفلان ؛ إما أن تكون للقسم أو للسبب ؛ فإن كانت للقسم فالله لا يجوز أن يقسم عليه بمخلوق ، ولا يجوز للمخلوق الإقسام بالمخلوقات أصلا .

---

(١) المرجع السابق ١ / ٣٣٢ ، ٣٣٣ (مختصرا) .
(٢) المرجع السابق ١ / ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٦ .
(٣) المرجع السابق ١ / ٢٠٢ ، ٢٥٢ – ٢٦٤ .
(٤) المرجع السابق ١ / ٢٨٥ .
(٥) المرجع السابق ١ / ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٣١٨ ، ٣١٩ .



وإن كانت للسبب فإن كان السبب يقتضي حصول المطلوب ؛ كدعاء المتوسل به فهذا جائز ، وإن كان لا يقتضي حصول المطلوب ؛ كجاه المتوسل به أو حقه فإنه لا يجوز ؛ لأنه سؤال بسبب لا يناسب إجابة الدعاء ، قال ابن تيمية : (قَوْلُ السَّائِلِ لِلَّهِ تَعَالَى : أَسْأَلُك بِحَقِّ فُلَانٍ وَفُلَانٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَغَيْرِهِمْ ، أَوْ بِجَاهِ فُلَانٍ أَوْ بِحُرْمَةِ فُلَانٍ يَقْتَضِي أَنَّ هَؤُلَاءِ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ جَاهٌ ، وَهَذَا صَحِيحٌ ، وَلَكِنْ لَيْسَ نَفْسُ مُجَرَّدِ قَدْرِهِمْ وَجَاهِهِمْ مِمَّا يَقْتَضِي إجَابَةَ دُعَائِهِ إذَا سَأَلَ اللَّهَ بِهِمْ حَتَّى يَسْأَلَ اللَّهَ بِذَلِكَ ، بَلْ جَاهُهُمْ يَنْفَعُهُ أَيْضًا إذَا اتَّبَعَهُمْ وَأَطَاعَهُمْ فِيمَا أُمِرُوا بِهِ عَنْ اللَّهِ أَوْ تَأَسَّى بِهِمْ فِيمَا سَنُّوهُ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَيَنْفَعُهُ أَيْضًا إذَا دَعَوْا لَهُ وَشُفِّعُوا فِيهِ . فَأَمَّا إذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ دُعَاءٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ، وَلَا مِنْهُ سَبَبٌ يَقْتَضِي الْإِجَابَةَ لَمْ يَكُنْ مُتَشَفِّعًا بِجَاهِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ سُؤَالُهُ بِجَاهِهِمْ نَافِعًا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ ، بَلْ يَكُونُ قَدْ سَأَلَ بِأَمْرٍ أَجْنَبِيٍّ عَنْهُ ؛ لَيْسَ سَبَبًا لِنَفْعِهِ)[١] .

ث- أن هذا التوسل تدرج بكثير من المسلمين إلى الشرك ؛ فمنهم من انتهى به التوسل البدعي إلى طلب الدعاء من الموتى والغائبين من الأنبياء والصالحين ؛ كأن يقول : يا سيدي فلان ادع الله لي ، أو ادع لنا ربك ، أو اسأل الله أن يرزقنا أو ينصرنا ، ونحو ذلك ؛ قال ابن تيمية : (الْمُشْرِكُونَ مِنْ هَؤُلَاءِ قَدْ يَقُولُونَ : إنَّا نَسْتَشْفِعُ بِهِمْ ؛ أَيْ نَطْلُبُ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ أَنْ يَشْفَعُوا ؛ فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ : يَا سَيِّدِي فُلَانٌ اشْفَعْ لِي إلَى رَبِّك . وَقَدْ يُخَاطِبُونَ الْمَيِّتَ عِنْدَ قَبْرِهِ : سَلْ لِي رَبَّك . أَوْ يُخَاطِبُونَ الْحَيَّ وَهُوَ غَائِبٌ ، كَمَا يُخَاطِبُونَهُ لَوْ كَانَ حَاضِرًا حَيًّا ، وَيُنْشِدُونَ قَصَائِدَ يَقُولُ أَحَدُهُمْ فِيهَا : يَا سَيِّدِي فُلَانٌ أَنَا فِي حَسَبِك ، أَنَا فِي جِوَارِك ، اشْفَعْ لِي إلَى اللَّهِ ، سَلْ اللَّهَ لَنَا أَنْ يَنْصُرَنَا عَلَى عَدُوِّنَا ، سَلْ اللَّهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنَّا هَذِهِ الشِّدَّةَ ؛ أَشْكُو إلَيْك كَذَا وَكَذَا فَسَلْ اللَّهَ أَنْ يَكْشِفَ هَذِهِ الْكُرْبَةَ . أَوْ يَقُولُ أَحَدُهُمْ : سَلْ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لِي . وَيَقُولُونَ : إذَا طَلَبْنَا مِنْهُ الِاسْتِغْفَارَ بَعْدَ مَوْتِهِ كُنَّا بِمَنْزِلَةِ الَّذِينَ طَلَبُوا الِاسْتِغْفَارَ مِنْ الصَّحَابَةِ ، وَيُخَالِفُونَ بِذَلِكَ إجْمَاعَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَإِنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يَطْلُبْ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِهِ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ ، وَلَا سَأَلَهُ شَيْئًا وَلَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ فِي كُتُبِهِمْ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ ذَلِكَ مَنْ ذَكَرَهُ مِنْ مُتَأَخِّرِي الْفُقَهَاءِ ، وَحَكَوْا حِكَايَةً مَكْذُوبَةً عَلَى مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَهَذِهِ الْأَنْوَاعُ مِنْ خِطَابِ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ عِنْدَ قُبُورِهِمْ وَفِي مَغِيبِهِمْ وَخِطَابِ

---

(١) المرجع السابق ١ / ٢١١ ، ٢١٢ (باختصار) . وانظر منه أيضا ١/ ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٨٧ ، ٣٣٦ – ٣٤٣ .

تَمَاثِيلِهِمْ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ الْمَوْجُودِ فِي الْمُشْرِكِينَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَفِي مُبْتَدِعَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ أَحْدَثُوا مِنْ الشِّرْكِ وَالْعِبَادَاتِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى)[١] . ومنهم من انتهى به التوسل البدعي إلى ما هو أعظم من ذلك ؛ فدعا الميت أو الغائب نفسه ؛ كأن يقول : يا فلان أغثني أو انصرني ، وأطم من ذلك ، أن يقول : يا فلان اغفر لي وتب علي ؛ قال ابن تيمية : (لَا يَجُوزُ لِأَحَدِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِأَحَدِ مِنْ الْمَشَايِخِ الْغَائِبِينَ وَلَا الْمَيِّتِينَ ؛ مِثْلَ أَنْ يَقُولَ : يَا سَيِّدِي فُلَانًا أَغِثْنِي وَانْصُرْنِي وَادْفَعْ عَنِّي أَوْ أَنَا فِي حَسْبِك وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ بَلْ كُلُّ هَذَا مِنْ الشِّرْكِ الَّذِي حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَتَحْرِيمُهُ مِمَّا يُعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ ، وَهَؤُلَاءِ الْمُسْتَغِيثُونَ بِالْغَائِبِينَ وَالْمَيِّتِينَ عِنْدَ قُبُورِهِمْ وَغَيْرِ قُبُورِهِمْ – لَمَّا كَانُوا مِنْ جِنْسِ عُبَّادِ الْأَوْثَانِ – صَارَ الشَّيْطَانُ يُضِلُّهُمْ وَيُغْوِيهِمْ ، كَمَا يَضِلُّ عُبَّادَ الْأَوْثَانِ وَيُغْوِيهِمْ ؛ فَتَتَصَوَّرُ الشَّيَاطِينُ فِي صُورَةِ ذَلِكَ الْمُسْتَغَاثِ بِهِ ، وَتُخَاطِبُهُمْ بِأَشْيَاءَ عَلَى سَبِيلِ الْمُكَاشَفَةِ كَمَا تُخَاطِبُ الشَّيَاطِينُ الْكُهَّانَ ، وَبَعْضُ ذَلِكَ صِدْقٌ لَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَذِبٌ ، بَلْ الْكَذِبُ أَغْلَبُ عَلَيْهِ مِنْ الصِّدْقِ)[٢].

خامسا : التعطيـــــــــــل .

التعطيل يعني نفي صفات الكمال أو نفي بعضها . وقد حدث تعطيل الصفات أواخر عصر التابعين ، وأول من حفظت عنه مقالة التعطيل الجعد بن درهم ، ثم أخذها عنه الجهم بن صفوان فأظهرها وناظر عليها ، فنسبت المقالة إليه ، واشتهر المعطلة بلقب الجهمية ، ثم سرى التعطيل إلى المعتزلة وإلى كثير من الفرق التي جاءت من بعدهم[٣] .

والتعطيل من أسباب الشرك في العبادة ؛ لأن العبد لفقره وعجزه مضطر إلى من يقصده ويفزع إليه في حوائجه ورغائبه ومخاوفه ، فإذا نفى المعطل علو الله على عرشه ونفى أفعاله وسائر صفات كماله لم تجد القلوب على العرش إلها كاملا متكلما بما يشاء وفعالا لما يريد ؛ لتأله ، وتفزع إليه وحينئذ تفزع إلى غيره من المخلوقات التي تتوهم فيها صفات الكمال ! والذي جرهم لهذا الشرك هو التعطيل ؛ ونفي صفات الكمال ؛ قال ابن القيم :-

---

(١) المرجع السابق ١ / ١٥٨ ، ١٥٩ (باختصار وتصرف) .

(٢) المرجع السابق ١ / ٣٥٩ . وانظر منه أيضا : ١ / ٢٤١ ، ٢٦٥ ، ٣٢٩ ، ٣٥٠- ٣٥٦ ، ٣٧٠ .

(٣) انظر : حقيقة المثل الأعلى وآثاره ، ص (١٢٥- ١٣٧) .

واعلم بأن الشرك والتعطيل مذ ... كانا هما لاشك مصطحبان

أبدا فكل معطل هو مشــــرك ... حتما وهذا واضح التبيــــان

فالعبد مضطر إلى من يكشف ... البلوى ويغني فاقة الإنسان

وإليه يصمد في الحوائج كلها ... وإليه يفزع طالب لأمـــان

فإذا انتفت أوصافه وفعالـــه ... وعلوه من فوق كل مكان

فزع العباد إلى سواه وكان ذا ... من جانب التعطيل والنكران[(١)]

وقد أفرد المؤلف لهذا السبب بابا في كتاب التوحيد ؛ بعنوان (باب من جحد شيئا من الأسمـــاء والصفات) ؛ نبه فيه إلى أمرين مهمين :-

١- أن جحود شيء من الأسماء الحسنى يعتبر كفرا ؛ قال تعالى :﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ﴾الرعد: ٣٠ ؛ فإن قريشا لما سمعت رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا اسم الرحمن فأنزل الله فيهم هذه الآيـــة ؛ فعلم أن إنكار أي اسم من الأسماء الحسنى يعتبر كفرا ! وهذا من أخطر الأمور علـــى معطلـــة الأسماء ، وكذلك معطلة الصفات ؛ لأن جحود معنى الاسم كجحود لفظه[(٢)] ولكن عند الحكـــم على المعين لابد من التفريق بين إنكار التكذيب وإنكار التأويل ؛ فيكفـــر الأول دون الثـــاني إذا كان لتأويله مسوغ في اللغة ووجه في العلم[(٣)] .

٢- أن نصوص الصفات من العلم الذي يجب نشره في الناس ؛ لأنه طريق معرفة الله تعالى وعبادته ، خلافا لمن زعم أن هذه النصوص مما ينبغي كتمانه عن العامه ؛ فإن هذه المقولة (مـــن بـــدع الجهمية وأتباعهم ؛ الذين ينفون صفات الرب تبارك وتعالى ، فلما رأوا أحاديث الصفات مبطلة لمذاهبهم ، قامعة لبدعهم ، تواصوا بكتمانها عن عوام المؤمنين ؛ لئلا يعلمـــوا ضـــلالهم وفســـاد اعتقادهم)[(٤)] ، وقد كان السلف على خلاف طريقتهم ينشرون هذا العلم في الناس ، وينكرون على من أنكره ؛ روى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس رضـــي الله

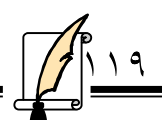
---

(١) النونية بشرح الهراس ١/ ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

(٢) انظر : قرة عيون الموحدين ، ص (١٩٨) .

(٣) انظر : فتح الباري ١٢ / ٣٠٤ ، القول المفيد ٢ / ٢٩١ .

(٤) تيسير العزيز الحميد ، ص (٥٧٧) .



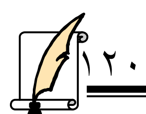
عنهما : (أنه رأى رجلا انتفض لما سمع حديثا عن النبي ﷺ في الصفات ؛ استنكارا لذلك فقال: ما فرق هؤلاء ؟ يجدون رقة عند محكمه ، ويهلكون عند متشابهه) ؛ قال الشيخ سليمان بن عبد الله : (ما فرق هؤلاء يحتمل وجهين ؛ أحدهما : أن تكون ما استفهامية إنكارية ، وفرق بفتح الفاء والراء ؛ وهو الخوف والفزع ؛ أي ما فزع هذا وأضرابه من أحاديث الصفات واستنكارهم لها ؟ والمراد الانكار عليهم ؛ فإن الواجب على العبد التسليم والاذعان والإيمان بما صح عن الله وعن رسوله ﷺ وإن لم يحط به علما . والثاني : أن يكون بفتح الفاء وتشديد الراء ويجوز تخفيفها وما نافية ؛ أي ما فرق هذا واضرابه بين الحق والباطل ، ولا عرفوا ذلك ؛ فلهذا قال يجدون رقة ؛ وهي ضد القسوة ؛ أي لينا وقبولا للمحكم ، ويهلكون عند متشابهه ؛ أي ما يشتبه عليهم فهمه ؛ لا أن آيات الصفات هي المتشابه كما تقوله الجهمية ونحوهم)[١]. وقال الذهبي : حدث وكيع عن إسرائيل بحديث : (إذا جلس الرب على الكرسي) فاقشعر رجل عند وكيع ، فغضب وكيع وقال : أدركنا الأعمش و سفيان يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها[٢] ؛ فعلم أن هدي السلف بث نصوص الصفات في الناس ؛ لأنها أعظم وأكثر ما في القرآن ، ولو كانت من المتشابه كما تزعم الجهمية لكان القرآن متشابها في أكثر وأشرف ما فيه ، ولكن قد يقال : إن الدقيق من مسائل الصفات لا ينبغي ذكره للعامة ؛ كمسألة نزول الرب دون أن يخلو منه العرش[٣] لأن عقولهم لا تحتمل ذلك ، وقد يكذبون بما لم يحيطوا به علما ؛ قال علي رضي الله عنه : (حدثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله) رواه البخاري ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : (ما أنت محدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) رواه مسلم .

إنكار القـــــــدر

إنكار القدر وثيق الصلة بالتعطيل ؛ فالقدرية الأولى أنكروا العلم السابق ؛ فمقولتهم إنما هي قدح في عموم صفة العلم ، والقدرية الثانية أنكروا خلق أفعال العباد ؛ فمقولتهم تتضمن القدح في عموم صفة الخلق والإرادة ، وقد نبه أئمة السلف إلى ارتباط القدر الوثيق بالتوحيد والصفات ؛

---

(١) المرجع السابق ، ص (٥٧٨ ، ٥٧٩) ، (بتصرف يسير) .
(٢) فتح المجيد ، ص (٤٢٢) .
(٣) انظر : القول المفيد ٢ / ٣٠٢ .



قال ابن عباس : القدر نظام التوحيد ، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده . وقال الإمام أحمد : القدر قدرة الرحمن[١] ؛ يشير إلى أن من أنكر القدر فقد أنكر قدرة الله[٢]. ويمكن اعتبار مقالة القدرية الأولى إرهاصا لمقالة التعطيل ؛ فقد ظهرت قبلها ؛ في أواخر عصر الصحابة ، وأنكرها من بلغته من الصحابة ؛ كابن عمر ، وابن عباس وغيرهم[٣]؛ روى مسلم بسنده عن يحيى بن يعمر قال كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر ، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي ، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي فقلت : أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ، ويتقفرون العلم وذكر من شأنهم ، وأنهم يزعمون : أن لا قدر ، وأن الأمر أنف ! قال : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم برآء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر) ، وروى أبوداود بسند صحيح[٤] عن ابن الديلمي قال أتيت أبي بن كعب رضي الله عنه فقلت له : (وقع في نفسي شيء من القدر[٥] ؛ فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه من قلبي ، قال : لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم كانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم ، ولو أنفقت مثل أحد ذهبا في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا لدخلت النار ! قال : ثم أتيت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال مثل ذلك . قال : ثم أتيت حذيفة بن اليمان رضي الله عنه فقال مثل ذلك . قال ثم أتيت زيد بن ثابت رضي الله عنه فحدثني عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك) ، ويروى عن ابن عباس مثل ذلك[٦] ؛ فإذا كان هذا تغليظ الصحابة على من قدح

(١) فتح المجيد ، ص (٤٩٥) .
(٢) انظر : حاشية ابن قاسم ، ص (٣٦٧) .
(٣) انظر : قرة عيون الموحدين ، ص (٢٠١) .
(٤) النهج السديد ، ص (٢٦٤ ، ٢٦٥) .
(٥) لم يفصح عن ذلك ، والظاهر أنه شك بسبب بدعة القدرية . انظر : القول المفيد ٣/ ١٨٩ .
(٦) انظر : شرح الطحاوية ، ص (٢٥٠) .



في عموم بعض الصفات ؛ كالعلم والمشيئة والقدرة والخلق فكيف بمن أنكر الصفات من أصلها ؛ فنفى علو الله واستواءه على عرشه وكلامه ورؤيته وعلمه وقدرته وسائر صفات كماله ! لاشك أن هذا المعطل أولى بالتغليظ من القدرية ؛ لأنه قد حال بين القلوب وبين أعظم طريق لمعرفة الله وعبادته ؛ فهم حقا كما قيل : قطاع الطريق إلى الله !

سادسا : اجتيال الشياطين .

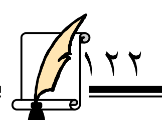
روى مسلم بسنده عن عياض بن حمار المجاشعي ﷺ أنّ رسولَ الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربّه ﷻ : (إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا) ؛ والاجتيال هو الذّهاب بالشيء وسوقه وإزالته عن مكانه وتحويله عن قصده ؛ قال النووي : (في نسخ بلادنا فاجتالتهم بالجيم ؛ وهي رواية الأكثرين ، وعن رواية الحافظ أبي عليّ الغسّاني فاختالتهم بالخاء المعجمة . والأول أصحّ وأوضح ، أي استخفّوهم فذهبوا بهم وساقوهم وأزالوهم عمَّا كانوا عليه فجالوا معهم في الضّلال وتركوا القصد والهدى ، ومعنى رواية من رواه بالخاء ؛ أي حبسوهم عن دينهم وصدّوهم عنه)[١] ؛ فاجتيال الشَّياطين أو إضلالهم كما وقع في رواية عند الإمام أحمد بإسناد صحيح[٢] من أهمّ أسباب الشرك في العبادة ؛ ولهذا الاجتيال أمثلة كثيرة ، منها :-

١- الإيقاع في الشرك أوفي طرقه ؛ ففي الصحيح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال في قول الله تعالى : (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) قال : (هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت) ، وقد بث عمرو بن لحي هذه الأصنام في العرب بوحي من الشيطان ، فقد كان كاهنا وله رئي من الجن وكان يكنى أبا ثمامة فقال له : عجل المسير والظعن من تهامة بالسعد والسلامة ائت جدة تجد فيها أصناما معدة ، فأوردها تهامة ولا تهب ، ثم ادع العرب إلى عبادتها تجب ، فأتى نهر جدة فاستثارها ثم حملها حتى ورد تهامة وحضر الحج فدعا

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٧ / ١٩٧ (بتصرف) .

(٢) تخريج أحاديث مسند الشاميين ، ح (٦٦٣) .



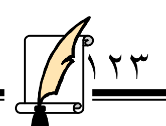
العرب إلى عبادتها فأجابوا دعوته ، ففرق فيهم هذه الأصنام ، و لم تزل تعبد ، حتى بعث النبي ﷺ فهدمها وكسرها[1] . وذكر أهل السير أن التلبية من عهد إبراهيم عليه السلام لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ، حتى كان عمرو بن لحي الخزاعي فبينما هو يلبي تمثل له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه فقال : لبيك لا شريك لك ، فقال الشيخ : إلا شريكا هو لك . فأنكر ذلك عمرو وقال ما هذا ؟ فقال الشيخ : تملكه وما ملك . فإنه لا بأس بهذا. فقالها عمرو . فدانت بها العرب[2] .

٢- تحسين الشرك لأهله لئلا يرجعوا عنه ؛ قال ابن تيمية :(الْمُسْتَغِيثُونَ بِالْغَائِبِينَ وَالْمَيِّتِينَ عِنْدَ قُبُورِهِمْ وَغَيْرِ قُبُورِهِمْ – لَمَّا كَانُوا مِنْ جِنْسِ عُبَّادِ الْأَوْثَانِ – صَارَ الشَّيْطَانُ يُضِلُّهُمْ وَيُغْوِيهِمْ كَمَا يَضِلُّ عُبَّادَ الْأَوْثَانِ وَيُغْوِيهِمْ فَتَتَصَوَّرُ الشَّيَاطِينُ فِي صُورَةِ ذَلِكَ الْمُسْتَغَاثِ بِهِ وَتُخَاطِبُهُمْ بِأَشْيَاءَ عَلَى سَبِيلِ الْمُكَاشَفَةِ كَمَا تُخَاطِبُ الشَّيَاطِينُ الْكُهَّانَ وَبَعْضُ ذَلِكَ صِدْقٌ لَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَذِبٌ بَلْ الْكَذِبُ أَغْلَبُ عَلَيْهِ مِنْ الصِّدْقِ . وَقَدْ تَقْضِي الشَّيَاطِينُ بَعْضَ حَاجَاتِهِمْ وَتَدْفَعُ عَنْهُمْ بَعْضَ مَا يَكْرَهُونَهُ فَيَظُنُّ أَحَدُهُمْ أَنَّ الشَّيْخَ هُوَ الَّذِي جَاءَ مِنْ الْغَيْبِ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ أَوْ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى صَوَّرَ مَلَكًا – عَلَى صُورَتِهِ – فَعَلَ ذَلِكَ وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ : هَذَا سِرُّ الشَّيْخِ وَحَالُهُ وَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ تَمَثَّلَ عَلَى صُورَتِهِ لِيُضِلَّ الْمُشْرِكَ بِهِ الْمُسْتَغِيثَ بِهِ كَمَا تَدْخُلُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَصْنَامِ وَتُكَلِّمُ عَابِدِيهَا وَتَقْضِي بَعْضَ حَوَائِجِهِمْ كَمَا كَانَ ذَلِكَ فِي أَصْنَامِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَهُوَ الْيَوْمَ مَوْجُودٌ فِي الْمُشْرِكِينَ مِنْ التُّرْكِ وَالْهِنْدِ وَغَيْرِهِمْ ؛ وَأَعْرِفُ مِنْ ذَلِكَ وَقَائِعَ كَثِيرَةً فِي أَقْوَامٍ اسْتَغَاثُوا بِي وَبِغَيْرِي فِي حَالِ غَيْبَتِنَا عَنْهُمْ فَرَأَوْنِي أَوْ ذَاكَ الْآخَرَ الَّذِي اسْتَغَاثُوا بِهِ قَدْ جِئْنَا فِي الْهَوَاءِ وَدَفَعْنَا عَنْهُمْ وَلَمَّا حَدَّثُونِي بِذَلِكَ بَيَّنْت لَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ إنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ تَصَوَّرَ بِصُورَتِي وَصُورَةِ غَيْرِي مِنْ الشُّيُوخِ الَّذِينَ اسْتَغَاثُوا بِهِمْ لِيَظُنُّوا أَنَّ ذَلِكَ كَرَامَاتٌ لِلشَّيْخِ فَتَقْوَى عَزَائِمُهُمْ فِي الِاسْتِغَاثَةِ بِالشُّيُوخِ الْغَائِبِينَ وَالْمَيِّتِينَ وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْأَسْبَابِ الَّتِي بِهَا أَشْرَكَ الْمُشْرِكُونَ وَعَبَدَةُ الْأَوْثَانِ . وَكَذَلِكَ الْمُسْتَغِيثُونَ مِنْ النَّصَارَى بِشُيُوخِهِمْ الَّذِينَ يُسَمُّونَهُمْ العلامس يَرَوْنَ أَيْضًا مَنْ يَأْتِي عَلَى صُورَةِ ذَلِكَ الشَّيْخِ النَّصْرَانِيِّ الَّذِي اسْتَغَاثُوا بِهِ فَيَقْضِي بَعْضَ حَوَائِجِهِمْ . وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ

---

(١) انظر : إغاثة اللهفان ٢ / ٢٠٦- ٢٠٩ .

(٢) قرة عيون الموحدين ، ص (١١٥) .



يَسْتَغِيثُونَ بِالْأَمْوَاتِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالشُّيُوخِ وَأَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ غَايَةُ أَحَدِهِمْ أَنَّ يُجْرَى لَهُ بَعْضُ هَذِهِ الْأُمُورِ أَوْ يُحْكَى لَهُمْ بَعْضُ هَذِهِ الْأُمُورِ فَيَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ كَرَامَةٌ وَخَرْقُ عَادَةٍ بِسَبَبِ هَذَا الْعَمَلِ . وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَأْتِي إلَى قَبْرِ الشَّيْخِ الَّذِي يُشْرِكُ بِهِ وَيَسْتَغِيثُ بِهِ فَيَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنْ الْهَوَاءِ طَعَامٌ أَوْ نَفَقَةٌ أَوْ سِلَاحٌ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يَطْلُبُهُ فَيَظُنُّ ذَلِكَ كَرَامَةً لِشَيْخِهِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ الشَّيَاطِينِ . وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الَّتِي عُبِدَتْ بِهَا الْأَوْثَانُ)[1] . وقال ابن القيم عن طائفة من عباد النار : (تبلغ بهم عبادتهم لها إلى أن يقربوا أنفسهم وأولادهم لها وهؤلاء أكثر ملوك الهند وأتباعهم ولهم سنة معروفة في تقريب نفوسهم وإلقائهم فيها فيعمد الرجل الذي يريد أن يفعل ذلك بنفسه أو بولده أو حبيبه فيجمله ويلبسه أحسن اللباس وأفخر الحلي ويركبه أعلى المراكب وحوله المعازف والطبول والبوقات فيزف إلى النار أعظم من زفافه ليلة عرسه حتى إذا ما قابلها ووقف عليها وهي تأجج طرح نفسه فيها فضج الحاضرون ضجة واحدة بالدعاء له وغبطته على ما فعل فلا يلبث إلا يسيرا حتى يأتيهم الشيطان في صورته وشكله وهيأته لا ينكرون منه شيئا فيأمرهم بأمره ويوصيهم بما يوصيهم به ويوصيهم بالتمسك بهذا الدين ويخبرهم أنه صار إلى جنة ورياض وأنهار وأنه لم يتألم بمس النار له فلا يهولنهم ذلك ولا يمنعهم عن أن يفعلوا مثله)[2] . وقال : (ومن أسباب عبادة الأوثان أن الشياطين تدخل فيها وتخاطبهم منها وتخبرهم ببعض المغيبات وتدلهم على بعض ما يخفى عليهم وهم لا يشاهدون الشياطين فجهلتهم وسقطهم يظنون أن الصنم نفسه هو المتكلم المخاطب وعقلاؤهم يقولون إن تلك روحانيات الأصنام وبعضهم يقول إنها الملائكة وبعضهم يقول إنها العقول المجردة وبعضهم يقول هي روحانيات الأجرام العلوية وكثير منهم لا يسأل عما عهد بل إذا سمع الخطاب من الصنم اتخذه إلها ولا يسأل عما وراء ذلك)[3] .

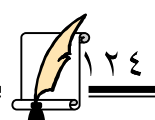
٣- الإضلال عن الحق ؛ قال ابن تيمية : (مِنْ العباد من يَرَى الْكَعْبَةَ تَطُوفُ بِهِ وَيَرَى عَرْشًا عَظِيمًا وَعَلَيْهِ صُورَةٌ عَظِيمَةٌ وَيَرَى أَشْخَاصًا تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ فَيَظُنُّهَا الْمَلَائِكَةَ وَيَظُنُّ أَنَّ تِلْكَ الصُّورَةَ

---

(١) مجموع الفتاوى ١ / ٣٥٩- ٣٦١ . وانظر أيضا من نفس المرجع ص (١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ٣٥٠) .

(٢) إغاثة اللهفان ٢ / ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

(٣) إغاثة اللهفان ٢ / ٢٢٤ ، ٢٢٥ . (بتصرف يسير) .



هِيَ اللَّهُ – تَعَالَى وَتَقَدَّسَ – وَيَكُونُ ذَلِكَ شَيْطَانًا . وَقَدْ جَرَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ لِغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ النَّاسِ فَمِنْهُمْ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ وَعَرَفَ أَنَّهُ الشَّيْطَانُ كَالشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ فِي حِكَايَتِهِ الْمَشْهُورَةِ حَيْثُ قَالَ : كُنْت مَرَّةً فِي الْعِبَادَةِ فَرَأَيْت عَرْشًا عَظِيمًا وَعَلَيْهِ نُورٌ فَقَالَ لِي : يَا عَبْدَ الْقَادِرِ أَنَا رَبُّك وَقَدْ حَلَلْت لَك مَا حَرَّمْت عَلَى غَيْرِك . قَالَ : فَقُلْتُ لَهُ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ ؟ اخْسَأْ يَا عَدُوَّ اللَّهِ ! قَالَ فَتَمَزَّقَ ذَلِكَ النُّورُ وَصَارَ ظُلْمَةً وَقَالَ يَا عَبْدَ الْقَادِرِ نَجَوْت مِنِّي بِفِقْهِك فِي دِينِك وَعِلْمِك وَبِمُنَازَلَاتِك فِي أَحْوَالِك . لَقَدْ فَتَنْت بِهَذِهِ الْقِصَّةِ سَبْعِينَ رَجُلًا . فَقِيلَ لَهُ : كَيْفَ عَلِمْت أَنَّهُ الشَّيْطَانُ ؟ قَالَ بِقَوْلِهِ لِي حَلَلْت لَك مَا حَرَّمْت عَلَى غَيْرِك وَقَدْ عَلِمْت أَنَّ شَرِيعَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا تُنْسَخُ وَلَا تُبَدَّلُ ؛ وَلِأَنَّهُ قَالَ أَنَا رَبُّك وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَقُولَ أَنَا اللَّهُ الَّذِي لَا إلَهَ إلَّا أَنَا . وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ الْمَرْئِيَّ هُوَ اللَّهُ وَصَارَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ اللَّهَ تَعَالَى فِي الْيَقَظَةِ وَمُسْتَنَدُهُمْ مَا شَاهَدُوهُ . وَهُمْ صَادِقُونَ فِيمَا يُخْبِرُونَ بِهِ وَلَكِنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الشَّيْطَانُ . وَهَذَا قَدْ وَقَعَ كَثِيرًا لِطَوَائِفَ مِنْ جُهَّالِ العباد يَظُنُّ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَرَى اللَّهَ تَعَالَى بِعَيْنِهِ فِي الدُّنْيَا لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ رَأَى مَا ظَنَّ أَنَّهُ اللَّهُ وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ)[١] .

سابعا : إجمال باقي الأسباب .

للشرك أسباب سوى مافصل القول فيه ، أجمل أهم مابقي منها فيما يلي :-

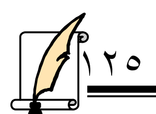
١- الجهل بما بعث به الرسل من تحقيق التوحيد ، وقطع أسباب الشرك ، فاستجاب كثير منهم لدعاة الشرك بحسب ماعندهم من الجهل ، وعصموا منهم بقدر مامعهم من العلم[٢] .

٢- الأحاديث المكذوبة ؛ كحديث إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور ، وحديث لو حسن أحدكم الظن بحجر لنفعه ! وأشباه ذلك من الأحاديث التي وضعها المقابرية ، وراجت على الجهال[٣] ! وقد يكون بعضها من إلقاء الشيطان ؛ روى مسلم بسنده عن ابن مسعود ﷺ قال : (إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب فيتفرقون

(١) مجموع الفتاوى ١ / ١٧١ ، ١٧٢ (بتصرف يسير) .

(٢) انظر : إغاثة اللهفان ١ / ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٣) انظر : إغاثة اللهفان ١ / ٢١٥ .



فيقول الرجل منهم : سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدث)[١] ، وروى بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قَالَ : (إِنَّ فِي الْبَحْرِ شَيَاطِينَ مَسْجُونَةً أَوْثَقَهَا سُلَيْمَانُ ، يُوشِكُ أَنْ تَخْرُجَ فَتَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ قُرْآنًا)[٢] .

٣- الحكايات التي تحكى عن الصالحين ؛ فيقال إن فلانا استغاث بفلان ففرج عنه ، أو دعا به في حاجة فقضيت ، ومن ذلك مايحكى عن الإمام الشافعي أنه كان يقول : إذا نزلت بي شدة أجيء فأدعو عند قبر أبي حنيفة فأجاب ! وهي حكاية باطلة ، عند المقابرية من أشباهها شيء كثير[٣] .

٤- الأئمة المضلين ؛ كما يذكر عن بعضهم أنه كان يقول لأصحابه : من كان له حاجة فليأت إلى قبري ؛ فإني أقضيها له ، ولاخير في رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب[٤] ! روى أبوداود بسند صحيح[٥] عن ثوبان ﷺ مرفوعا : (إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين) .

٥- المنامات ؛ وهي باب واسع لتلاعب الشياطين ؛ وكثير من المقابرية يستندون في تعيين قبور الصالحين على الرؤى ، ثم يتجاوزون ذلك إلى تعظيم مكان القبر ، وتحري الدعاء والعبادة عنده ، وقد يصل بهم الحال إلى دعائه وعبادته من دون الله ؛ قال ابن تيمية : (عَامَّةُ الْقُبُورِ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدُ إمَّا مَشْكُوكٌ فِيهَا وَإِمَّا مُتَيَقَّنٌ كَذِبُهَا مِثْلُ الْقَبْرِ الَّذِي بِكْرك الَّذِي يُقَالُ : إنَّ بِهِ نُوحٌ وَالَّذِي بِظَاهِرِ دِمَشْقَ الَّذِي يُقَالُ إنَّهُ قَبْرُ أبي بْنِ كَعْبٍ وَالَّذِي مِنْ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى الَّذِي يُقَالُ إنَّهُ قَبْرُ أُوَيْسٍ القرني وَالْقُبُورُ الَّتِي هُنَاكَ الَّتِي يُظَنُّ أَنَّهَا قَبْرُ عَائِشَةَ أَوْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ أُمِّ حَبِيبَةَ أَوْ قَبْرُ عَلِيٍّ الَّذِي بِبَاطِنَةِ النَّجَفِ أَوْ الْمَشْهَدُ الَّذِي يُقَالُ إنَّهُ عَلَى الْحُسَيْنِ بِالْقَاهِرَةِ وَالْمَشْهَدُ الَّذِي بِحَلَبِ وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ ؛ فَهَذِهِ كُلُّهَا كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ . وَأَمَّا الْقَبْرُ الَّذِي يُقَالُ إنَّهُ قَبْرُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ بحمص وَالَّذِي يُقَالُ إنَّهُ قَبْرُ أَبِي مُسْلِمٍ الخولاني بداريا وَأَمْثَالُ ذَلِكَ فَهَذِهِ مَشْكُوكٌ فِيهَا وَقَدْ نَعْلَمُ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةِ أَنَّ الْمَيِّتَ قَدْ تُوُفِّيَ بِأَرْضِ وَلَكِنْ لَا يَتَعَيَّنُ أَنَّ تِلْكَ الْبُقْعَةَ مَكَانُ قَبْرِهِ ؛ كَقَبْرِ بِلَالٍ وَنَحْوِهِ بِظَاهِرِ دِمَشْقَ وَكَقَبْرِ فَاطِمَةَ بِالْمَدِينَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَعَامَّةُ مَنْ

---

(١) مقدمة صحيح مسلم ، باب النهي عن الرواية عن الضعفاء ، ح (٧) .

(٢) المرجع السابق .

(٣) انظر : إغاثة اللهفان ١ / ٢١٥ ، التبرك ، أنواعه وأحكامه ، ص (٣٣٦ ، ٤٠٩ ، ٤٣٦ ، ٤٩٢) .

(٤) انظر : فتح المجيد ، (٢٨٢) .

(٥) انظر : النهج السديد ، ص (١٢٩) .



يُصَدِّقُ بِذَلِكَ يَكُونُ عَلِمَ بِهِ إِمَّا مَنَامًا وَإِمَّا نَقْلًا لَا يُوثَقُ بِهِ وَإِمَّا غَيْرَ ذَلِكَ)[1] .

٦- التبرك الممنوع ؛ فقد كان من أسباب عبادة الأوثان عند العرب أن الواحد منهم كان إذا أراد سفرا حمل معه حجرا من حجارة الحرم ؛ تبركا به وتعظيما له حتى آل بهم الأمر إلى عبادة الأوثان جاء في كتاب الأصنام لابن الكلبي : (أن إسماعيل بن إبراهيم صلى الله عليهما لما سكن مكة وولد له بها أولاد كثير حتى ملأوا مكة ونفوا من كان بها من العماليق ، ضاقت عليهم مكة ووقعت بينهم الحروب والعداوات واخرج بعضهم بعضاً ، فتفسحوا في البلاد والتماس المعاش . وكان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم وصبابةً بمكة . فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمناً منهم بها وصبابةً بالحرم وحبا له . وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتمرون ، على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم)[2] .

٧- الفرق الضالة ؛ فأول من أدخل بدعة تعظيم القبور ، واتخاذها مزارات ومشاهد الشيعة الروافض زمن الدولة العبيدية أواخر المائة الثالثة ، ثم تبعهم على ذلك أصحاب الطرق الصوفية فأشاعوها بين المسلمين[3] .

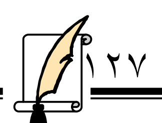
******

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٧ / ١٧٠ . وانظر : فتح المجيد ، ص (١٥٠) .

(٢) الأصنام ، ص (٦) . وانظر : التبرك ، أنواعه وأحكامه ، ص (٤٨٦) .

(٣) انظر : التبرك ، أنواعه وأحكامه ، ص (٣٩١) .



أنواع الشرك الأكبر

للشرك تقسيمات باعتبارات متعددة ؛ فينقسم باعتبار محله إلى شرك قلبي ، وشرك قولي ، وشرك عملي . وينقسم باعتبار متعلقه إلى شرك في الربوبية وشرك في الألوهية وشرك في الأسماء والصفات . وينقسم باعتبار الظهور وعدمه إلى شرك جلي وشرك خفي . وينقسم باعتبار حكمه إلى أكبر يخرج من الملة وأصغر لا يخرج منها[1] . والشرك الأكبر في توحيد العبادة أنواع كثيرة ؛ منها :-

أولا : الشرك في الذبح .

وهو الذبح لغير الله تعالى تقربا له ؛ سواء أهل باسمه أو لم يهل ؛ كالذبح للأوثان ، أو المشاهد ، أو الكواكب ، أو الجن ، أو غير ذلك . وقد دل الشرع على هذا الشرك وعلى التحـــذير منـــه بطرق متعددة ؛ منها : -

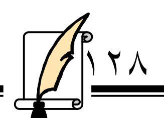
١- أن الله تعبدنا بإخلاص النسك كما تعبدنا بإخلاص الصلاة ؛ قال تعالى :﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ الأنعام: ١٦٢، والنسك هو الذبح مطلقا كما قال سعيد بـــن جـــبير والضحاك ، أو الذبح في الحج والعمرة ، كما قال مجاهد . وقال تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾ الكوثر: ٢ ، أي اجعل صلاتك ونحرك لله وحده ؛ فمن ذبح لغير الله فقد أشرك ، كما أن من صلى لغير الله فقد أشرك . قال ابن سعدي : (إذا ثبت أن الذبح لله من أجل العبادات وأكبر الطاعات فالذبح لغير الله شرك أكبر مخرج عن دائرة الإسلام ؛ فإن حد الشرك الأكبر وتفسيره الذي يجمع أنواعه وأفراده أن يصرف العبد نوعا أو فردا من أفراد العبادة لغير الله ؛ فكل اعتقاد أو قـــول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص ، وصرفه لغيره شرك وكفر ؛ فعليك بهذا الضابط للشرك الأكبر الذي لا يشذ عنه شيء)[2] .

٢- أن النبي ﷺ ابتدأ بلعن من ذبح لغير الله ؛ تغليظا لجرمه وتحذيرا من فعله ؛ روى مسلم بسنده عن أبي الطفيل قال : (سئل علي رضي الله عنه أخصكم رسول الله ﷺ بشيء ؟ فقال : ما خصنا رسول الله ﷺ بشيء لم يعم به الناس كافة إلا ما كان في قراب سيفي هذا قـــال : فـــأخرج صـــحيفة

---

(١) انظر : الوعد الأخروي ٢ / ٨١٤ .

(٢) القول السديد ، ص (٥١ ، ٥٢) .



مكتوب فيها : لعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من سرق منار الأرض ، ولعن الله من لعن والده ، ولعن الله من آوى محدثا) .

٣- أن الذبح لغير الله تعالى من أسباب دخول النار ، والخلود فيها ؛ قال تعالى :﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ المائدة: ٧٢ ، وروى الإمام أحمد بسند صحيح[1] عن سلمان ﷺ موقوفا : (دخل الجنَّةَ رجلٌ في ذُبابٍ ، ودخل النارَ رجلٌ في ذُبابٍ ، قالوا: كيف ذلك يا رسولَ الله ؟ قال: مر رجلان على قومٍ لهم صنمٌ لا يجوزُه أحدٌ حتى يقربَ له شيئًا ، فقالوا لأحدِهما : قربْ فقال : ليس عندي شيءٌ أقرِّبُ ، قالوا له : قرِّبْ ولو ذُبابًا ، فقرَّبَ ذبابًا ، فخلوا سبيلَه فدخل النارَ ، وقالوا للآخرِ: قرِّبْ فقال : ما كنتُ لأقرِّبَ لأحدٍ شيئًا دون الله عزَّ وجلَّ فضربوا عنقَه فدخل الجنَّةَ) ؛ فإذا كان هذا فيمن قرب ذبابا ، فكيف بمن يستسمن الإبل والبقر والغنم ليتقرب بذبحها لمشهد أو غيره[2] . وقد استشكل على هذا الحديث بقوله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ النحل: ١٠٦ ؛ فالآية نص في إعذار المكره خلافا لما يظهر من دلالة الحديث في عدم إعذاره ؟ وقد اختلفت طرق أهل العلم في رفع هذا التعارض ؛ فمنهم من ضعف الحديث بالإرسال ، وعنعنة الأعمش ، ومنهم من اعتبر الإكراه عذرا في القول دون العمل ، ومنهم من رأى ألا تعارض أصلا بين الآية والحديث ؛ لأن هذا الرجل الذي قرب ذبابا شرح بالكفر صدرا ؛ قال ابن عثيمين : (ظاهر القصة أن الرجل ذبح بنية التقرب ؛ لأن الأصل أن فعلا بني على طلب أن يكون موافقا لهذا الطلب)[3] . وهذا هو الأصح ، والله أعلم .

٤- أن النبي ﷺ منع من الذبح لله في كل مكان أعد للذبح لغير الله ؛ سدا لذريعة الشرك ، وتركا لمشابهة المشركين ، ومشاركتهم في إحياء وتعظيم مشاعر الشرك ؛ روى أبو داود بسند صحيح[4] عن ثابت بن الضحاك ﷺ قال : (نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلا ببوانة فأتى

---

(١) انظر : النهج السديد ، ص (٦٨) .

(٢) انظر : قرة عيون الموحدين ، ص (٨٠) .

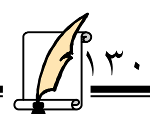
(٣) القول المفيد ١ / ٢٢٨ .

(٤) انظر : النهج السديد ، ص (٧٣) .

النبي ﷺ فقال : إني نذرت أن أنحر إبلا ببوانة فقال النبي ﷺ : هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالوا : لا . قال : هل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا . قال رسول الله ﷺ : أوف بنذرك ؛ فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم) ؛ وهذا النهي لا يختص بالذبح ، بل يعم كل عبادة شرط أن تكون صورة الفعلين واحدة ؛ قال عبد الرحمن بن حسن : (فيه المنع من اتخاذ آثار المشركين محلا للعبادة ؛ لكونها صارت محلا لما حرم الله من الشرك والمعاصي ، والحديث وإن كان في النذر فيشمل كل ما كان عبادة لله ؛ إذ لا فرق ؛ فلا تفعل في هذه الأماكن الخبيثة التي اتخذت محلا لما يسخط الله تعالى ... وقد استشكل جعل محل اللات بالطائف مسجدا . والجواب والله أعلم : أنه لو ترك هذا المحل في هذه البلدة لكان يخشى أن تفتتن به قلوب الجهال فيرجع إلى جعله وثنا ، كما كان يفعل فيه أولا فجعله مسجدا والحالة هذه ينسى ما كان يفعل فيه ويذهب فيه أثر الشرك بالكلية ، فاختص هذا المحل لهذه العلة وهي قوة المعارض)[(١)] . فإن اختلفت صورة الفعل فلا حرج ؛ لانتفاء المشاركة حينئذ ؛ فقد كان ابن عباس يصلي في البيعة إلا بيعة فيها تماثيل[(٢)] ؛ قال ابن عثيمين : (بالنسبة للصلاة في الكنيسة ، فإن الصلاة تخالف صلاة أهل الكنيسة ، فلا يكون الإنسان متشبهاً بهذا العمل ، بخلاف الذبح في مكان يذبح فيه لغير الله ، فإن الفعل واحد بنوعه وجنسه ، ولهذا لو أراد إنسان أن يصلي في مكان يذبح فيه لغير الله لجاز ذلك ، لأنه ليس من نوع العبادة التي يفعلها المشركون في هذا المكان)[(٣)]، وقال صالح آل الشيخ : (نهي النبي ﷺ عن الصلاة في مسجد الضرار ، وعن الذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله إنما هو لأن صورة العبادة واحدة ؛ فصورة الذبح من الموحد ، ومن المشرك واحدة ، وهي إمرار السكين وهي آلة الذبح على الموضع من البهيمة المراد ذبحها ، وإهراق دمها في ذلك المكان ، والصورة الحاصلة من الموحد ومن المشرك واحدة ، ولهذا فإنه لا تمييز بين الصورتين – من حيث الظاهر – وإن اختلفت مقاصدهما فكذلك صلاة النبي ﷺ والصحابة في مسجد الضرار فيها مشابهة من حيث الصورة لصلاة المنافقين ، فرجع الاختلاف إلى

---

(١) قرة عيون الموحدين ، ص (٨٣ ، ٨٤) .
(٢) انظر : فتح الباري ١ / ٥٣١ .
(٣) القول المفيد ١ / ٢٤٢ .



اختلاف ما في القلب ؛ والنيات ، ومقاصد القلوب مما تخفى على الناس ، ولهذا تقع المفسدة من حيث اشتباه الصورة الظاهرة ، ولا يحصل بذلك الفعل ولو مع خلوص النية مصلحة وأما الصلاة في الكنيسة ، فإن صورة الفعل مختلفة ؛ لأن صلاة النصارى ليست على هيئة وصورة صلاة المسلمين ، فيعلم من رأى المسلم يصلي أنه لا يصلي صلاة النصارى فليس في فعله إغراء بصلاة النصارى ، ومشاركتهم فيها)[1] . ومما يحسن ذكره هنا فتوى شيخ الإسلام في حكم الصلاة في الكنيسة ؛ فقد سئل عن الصلاة فِي الْبِيَعِ وَالْكَنَائِسِ مَعَ وُجُودِ الصُّوَرِ ؟ وَهَلْ يُقَالُ : إنَّهَا بُيُوتُ اللَّهِ أَمْ لَا ؟ فقال : (الْجَوَابُ : لَيْسَتْ بُيُوتَ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا بُيُوتُ اللَّهِ الْمَسَاجِدُ ، بَلْ هِيَ بُيُوتٌ يُكْفَرُ فِيهَا بِاَللَّهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُذْكَرُ فِيهَا ، فَالْبُيُوتُ بِمَنْزِلَةِ أَهْلِهَا ، وَأَهْلُهَا كُفَّارٌ ، فَهِيَ بُيُوتُ عِبَادَةِ الْكُفَّارِ . وَأَمَّا الصَّلَاةُ فِيهَا فَفِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ لِلْعُلَمَاءِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ : الْمَنْعُ مُطْلَقًا ؛ وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ . وَالْإِذْنُ مُطْلَقًا وَهُوَ قَوْلُ بَعْضِ أَصْحَابِ أَحْمَدَ . وَالثَّالِثُ : وَهُوَ الصَّحِيحُ الْمَأْثُورُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَغَيْرِهِ ، وَهُوَ مَنْصُوصٌ عَنْ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ ، أَنَّهُ إنْ كَانَ فِيهَا صُوَرٌ لَمْ يُصَلَّ فِيهَا ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ ، وَلِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَدْخُلْ الْكَعْبَةَ حَتَّى مُحِيَ مَا فِيهَا مِنْ الصُّوَرِ ، وَكَذَلِكَ قَالَ عُمَرُ : إنَّا كُنَّا لَا نَدْخُلُ كَنَائِسَهُمْ وَالصُّوَرُ فِيهَا . وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الْمَسْجِدِ المبني عَلَى الْقَبْرِ ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ ذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَنِيسَةٌ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ، وَمَا فِيهَا مِنْ الْحُسْنِ وَالتَّصَاوِيرِ ، فَقَالَ : أُولَئِكَ إذَا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا ، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ التَّصَاوِيرَ ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَأَمَّا إذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا صُوَرٌ فَقَدْ صَلَّى الصَّحَابَةُ فِي الْكَنِيسَةِ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ)[2] .

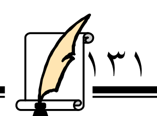
ثانيا : النذر والاستعاذة .

النذر مصدر نذر ينذر ؛ أي أوجب على نفسه شيئا لم يكن واجبا بأصل الشرع ؛ تعظيما للمنذور له . والنذر لغير الله قد يكون للأصنام والأوثان والكواكب والمشاهد التي على القبور وغير ذلك ؛ وصفته الغالبة أن يقول لصاحب مشهد : يا سيدي فلان إن شفى الله مريضي أو رد

---

(١) التمهيد ، ص (١٥٣ ، ١٥٤) .

(٢) مجموع الفتاوى ٢٢ / ١٦٣ ، ١٦٣ . وانظر في شرك الذبح : فتح المجيد ، ص (١٥٣ – ١٦٨) ، حاشية ابن قاسم ، ص (٩٦ –١٠٧) ، القول المفيد ١ / ٢١٥ – ٢٤٤ .



غائبي أو قضى حاجتي فلك كذا وكذا ! أو يقول لهذا المشهد أو الهيكل علي نذر ، وما أشبه ذلك ؛ والفرق بين الصورتين أن الناذر في الصورة الأولى اعتقد أن المنذور له مجرد وسيط وشفيع في قضاء حاجته ، وفي الثانية اعتقد أنه مستقل بذلك ، والصورة الأولى هي الغالبة حتى على المشركين الأولين ؛ قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ ، وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣ . وقد استدل العلماء على شرك النذر بأدلة كثيرة ؛ منها : –

١– قوله تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ الإنسان: ٧ ؛ فمدح الأبرار وأثابهم على الوفاء بالنذر ، فدل على أنه عبادة ؛ فمن فعلها لغير الله فقد أشرك ، وخالف قوله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ النساء: ٣٦ .

٢– قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ﴾ البقرة: ٢٧٠ ؛ فأخبر بعلمه المستلزم لجزائه على كل نفقة ونذر ، وترتيب الجزاء على الفعل دليل على أنه عباده ؛ فعلها لله وحده قربة وتوحيد ، وصرفها لغيره شرك وتنديد .

٣– قوله تعالى : ﴿ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ ﴾ الحج: ٢٩ ؛ فأمر بالوفاء بالنذر ؛ وكل ما أمر به شرعا من غير اقتضاء عقلي ولا اطراد عرفي فهو عبادة ؛ فمن نذر لغير الله فقد أشرك في العبادة ؛ سواء اعتقد أن المنذور له مستقل بقضاء حاجته ، أو مجرد وسيط وشفيع .

٤– وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت قال النبي ﷺ : (من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه) ؛ فأمر بالوفاء بنذر الطاعة ؛ فدل على أنه عبادة ؛ وما كان عبادة فصرفه لغير الله شرك ؛ قال عبد الرحمن بن حسن : (العبادة إذا صرفت لغير الله صار ذلك شركا بالله ؛ لالتفاته إلى غيره تعالى فيما يرغب فيه أو يرهب ، فقد جعله شريكا لله في العبادة ، فيكون قد أثبت ما نفته (لا إله إلا الله) من إلهية غير الله ، ولم يثبت ما أثبتته من الإخلاص)[1] .

وأما الاستعاذة فهي الالتجاء والاعتصام ؛ وحقيقتها الهرب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه ،

(١) قرة عيون الموحدين ، ص (٨٥) . وانظر : فتح المجيد ، ص (١٦٨ – ١٧٣) ، حاشية ابن قاسم ، ص (١٠٧ – ١٠٩) ، القول المفيد ١/ ٢٤٥ – ٢٥١) .

فالعياذ لدفع الشر ، واللياذ لطلب الخير . وقد شرع الله لعباده الاستعاذة بأسمائه وصفاته ؛ فمن استعاذ بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد أشرك في العبادة ؛ والأدلة على ذلك كثيرة ؛ منها :-

١- قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ الجن: ٦ ؛ فحكى الله عن مؤمني الجن أنهم ذكروا أشياء من الشرك كانوا عليها في الجاهلية من جملتها استعاذة الإنس بالجن ؛ وذلك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى بواد قفر وخاف على نفسه من الجن قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه ؛ فلما رأت الجن خوف الإنس منهم زادوهم خوفا وذعرا ؛ ليبقى الإنس على هذا الشرك !

٢- قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ فصلت: ٣٦ ، وقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ ﴾ الفلق: ١ ، وقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ ﴾ الناس: ١ ؛ فأمر تعالى بالاستعاذة به وحده ؛ وكل ما أمر الله به فهو عبادة ؛ فمن صرف شيئا منها لغير الله فقد أشرك .

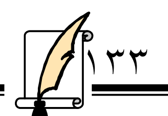
٣- قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ الأنعام: ١٢٨ ؛ فأخبر تعالى عن مآل هؤلاء الغاوين من الجن والإنس الذين أشركوا في العبادة ؛ ليستمتع بعضهم ببعض ؛ واستمتاع الإنسي بالجني في قضاء حوائجه ، وامتثال أوامره ، وإخباره بشيء من المغيبات ، واستمتاع الجني بالإنسي تعظيمه إياه ، واستعاذته به ، وخضوعه له .

٤- وروى مسلم بسنده عن خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول (مَن نزل مَنْزِلًا فقال : أعوذُ بِكلماتِ اللهِ التَّامَّاتِ من شرِّ ما خَلقَ ، لَم يَضرَّهُ شَيءٌ حتى يَرْحلَ مَن مَنْزِلِه ذلك) . ووجه الاستدلال بالحديث على أن الاستعاذة بغير الله من الشرك كما قال المؤلف في المسائل : أن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة ؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك[1] . وهذا الحكم ليس على إطلاقه ؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق تجوز بشروط : -

أ- أن تكون بحي حاضر فيما يقدر عليه ؛ فإن استعاذ بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله كان مشركا الشرك الأكبر .

---

(١) كتاب التوحيد ، مع القول السديد ، ص (٥٧) .



ب- ألا يركن قلبه على من استعاذ به من المخلوقات ؛ لأن تعلق القلب خوفا ورجاء لا يكون إلا بالله وحده .

ت- أن يراعي الصيغة الشرعية عند الاستغاثة ؛ فإن قال : أعوذ بالله وبك ولو فيما يقدر عليه المخلوق فقد أشرك . وقد رأى بعض أهل العلم أن الاستعاذة بالمخلوق شرك بإطلاق ؛ لأن حقيقتها تعلق واعتماد قلبي على المخلوق ، واعتماد القلب لا يكون إلا على الله وحده . وهذا الإطلاق يخالف دلالة الأحاديث ؛ فإنها صريحة في جواز الاستعاذة بالمخلوق فيما يقدر عليه ؛ روى مسلم بسنده عن أبي هريرة ﵁ قال قال رسول الله : ﷺ (ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، من تشرف لها تستشرفه ، ومن وجد فيها ملجأ فليعذ به) ، وعن أبي مسعود ﵁ (أنه كان يضرب غلامه فجعل يقول : أعوذ بالله ، قال فجعل يضربه فقال: أعوذ برسول الله فتركه . فقال رسول الله ﷺ : والله ، لله أقدر عليك منك عليه قال : فأعتقه)[1] .

ثالثا : الدعاء والاستغاثة .

الدعاء نوعان ؛ دعاء عبادة ، ودعاء مسألة ؛ ودعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر . ودعاء العبادة هو عبادة الله بأي نوع من أنواع العبادة ؛ كالذكر والقراءة والتسبيح ؛ وهو وإن لم يكن فيه صيغة سؤال وطلب إلا أن العابد طالب في المعنى ؛ فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، كما أن كل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة ؛ لأن السائل أخلص سؤاله لله ؛ وذلك من أفضل العبادات . والاستغاثة طلب الغوث ؛ وهو إزالة الشدة ؛ والفرق بين الاستغاثة والدعاء أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب ، والدعاء يكون من المكروب وغيره ؛ فبينهما عموم وخصوص مطلق . وقد شرع الله لعباده الدعاء ، وحض عليه ، ونهى عن دعاء غير الله ، وحذر منه بطرق كثيرة ؛ منها :-

١- النهي عن دعاء غير الله تعالى صراحة ، لأن الإلهية حق لله وحده ؛ فمن صرف شيئا منها لغير الله فقد أشرك ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ يونس:

---

(١) انظر : فتح المجيد ، ص (١٧٣- ١٧٦) ، حاشية ابن قاسم ، ص (١١٠- ١١٢) ، القول المفيد ١ / ٢٥١- ٢٦٠ ، التمهيد ، ص (١٦٩ ، ١٧٠) .

١٠٦ ؛ أي من المشركين ، لأن الظلم في هذه الآية بمعنى الشرك ، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ لقمان: ١٣ ، وقال : ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ القصص: ٨٨ ، وقال : ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ المؤمنون: ١١٧ .

٢– النهي عن دعاء غير الله ضمنا ؛ وذلك بالنص على انفراد الله تعالى بالضر والنفع ، والعطاء والمنع ، والأمر بدعاء الله وحده ، لأن هذه المعاني تستلزم النهي عن دعاء غير الله تعالى ؛ قال تعالى :﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ العنكبوت: ١٧ ، وقال : ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ النمل: ٦٢ .

٣– الإنكار على من دعا غير الله ؛ والحكم عليه بأنه أضل الناس ؛ لأنه ليس له إلا الخسران في الدنيا والآخرة ؛ قال تعالى :﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ الأحقاف: ٥ - ٦ ، وقال : ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ الرعد: ١٤ .

٤– أن الله نص على أن دعاءه وحده عبادة ، ودعاء غيره شرك ؛ قال تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ غافر: ٦٠ ، وقال : ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ مريم: ٤٨ - ٤٩ ، وقال : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ فاطر: ١٣ - ١٤ ؛ ففي قوله تعالى : (يكفرون بشرككم) ، وقوله : (وكانوا بعبادهم كافرين) نص صريح على أن دعاء غير الله شرك في العبادة ؛ وضابط هذا الشرك دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ؛ وهذا أصل الشرك في العالم ؛ فمن دعا ميتا أو غائبا أو حاضرا أو استغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد أشرك ؛ كأن يقول : ياسيدي فلان انصرني ، أو أغثني ، أو ارزقني ، ونحو هذه الأقوال ، وهو كثير في أصحاب المدائح النبيوية ؛ كالبوصيري والبرعي وغيرهم ! وأما دعاء غير الله أو الاستغاثة به فيما يقدر عليه فإنها ليست من الشرك ؛ قال تعالى : ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ القصص: ١٥ ؛ قال ابن عثيمين : (طلب الاستغاثة ممن يقدر على إزالة الشدة ليس من الشرك ... وإذا طلبت من أحد الغوث وهو



قادر عليه فإنه يجب عليك ؛ تصحيحا لتوحيدك أن تعتقد أنه مجرد سبب ، وأنه لا تأثير له مباشر في الغوث ؛ لأنك ربما تعتمد عليه وتنسى خالق السبب ، وهذا قادح في كمال التوحيد)[١]. فإن قيل يشكل على ذلك مارواه الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق فقال النبي ﷺ : إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله) ؛ فنهى عن الاستغاثة به مع أنه قادر على كف أذى هذا المنافق ؟ فالجواب أن في إسناد الحديث مقال ، وعلى التسليم بصحته فهو محمول على الإرشاد إلى حسن اللفظ حماية لجانب التوحيد ، وسدا لذرائع الشرك ، وأدبا وتواضعا لله تبارك وتعالى . والله أعلم[٢] .

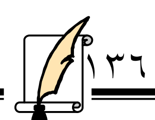
رابعا : المحبة والخوف .

الشرك في المحبة من أنواع الشرك الأكبر ؛ وهو أصل الشرك العملي ؛ فكل من اتخذ ندا من دون الله ؛ يدعوه رغبا ورهبا فشركه ناشئ عن محبة الند كمحبة الله ؛ قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ البقرة: ١٦٥ - ١٦٧ ؛ فذمهم الله تعالى ، وحكم بخلودهم في نار جهنم ؛ لإشراكهم في المحبة التي يجب إخلاصها لله وحده ؛ وهي محبة التأله والتعظيم ؛ المستلزمة للذل والخضوع والطاعة والإيثار ؛ فمن جعل لله ندا في هذه المحبة فقد أشرك الشرك الأكبر ! فخرج بذلك المحبة المشتركة بجميع أنواعها ؛ وهي المحبة الطبيعية ؛ كمحبة الظمآن للماء ، ومحبة الرحمة والإشفاق ؛ كمحبة الوالد لولده ، ومحبة الأنس والألفة ، كمحبة الصديق لصديقه ؛ فهذه لا تستلزم التعظيم ، ولا تقدح في المحبة الخاصة إلا إذا قدمت على محبة الله ورسوله ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ التوبة: ٢٤ ؛ قال ابن تيمية : (عَامَّةُ النَّاسِ إذَا أَسْلَمُوا بَعْدَ كُفْرٍ أَوْ وُلِدُوا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْتَزَمُوا شَرَائِعَهُ وَكَانُوا مِنْ أَهْلِ

---

(١) القول المفيد ١ / ٢٦١ .

(٢) انظر : فتح المجيد ، ص (١٧٦– ١٩٢) ، حاشية ابن قاسم ، ص (١١٣ – ١١٧) ، القول المفيد ١ / ٢٦١ – ٢٨٤ .

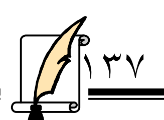


الطَّاعَةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فَهُمْ مُسْلِمُونَ وَمَعَهُمْ إِيمَانٌ مُجْمَلٌ ، وَلَكِنَّ دُخُولَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ إِلَى قُلُوبِهِمْ إِنَّمَا يَحْصُلُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، إِنْ أَعْطَاهُمْ اللَّهُ ذَلِكَ ، وَإِلَّا فَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ لَا يَصِلُونَ لَا إلَى الْيَقِينِ وَلَا إلَى الْجِهَادِ ؛ وَلَوْ شُكِّكُوا لَشَكُّوا ، وَلَوْأُمِرُوا بِالْجِهَادِ لَمَا جَاهَدُوا ! وَلَيْسُوا كُفَّارًا وَلَا مُنَافِقِينَ ، بَلْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمِ الْقَلْبِ وَمَعْرِفَتِهِ وَيَقِينِهِ مَا يَدْرَأُ الرَّيْبَ ، وَلَا عِنْدَهُمْ مِنْ قُوَّةِ الْحُبِّ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ مَا يُقَدِّمُونَهُ عَلَى الْأَهْلِ وَالْمَالِ ! وَهَؤُلَاءِ إنْ عُوفُوا مِنْ الْمِحْنَةِ وَمَاتُوا دَخَلُوا الْجَنَّةَ ، وَإِنْ اُبْتُلُوا بِمَنْ يُورِدُ عَلَيْهِمْ شُبُهَاتٍ تُوجِبُ رَيْبَهُمْ فَإِنْ لَمْ يُنْعِمْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يُزِيلُ الرَّيْبَ وَإِلَّا صَارُوا مُرْتَابِينَ وَانْتَقَلُوا إلَى نَوْعٍ مِنْ النِّفَاقِ ، وَكَذَلِكَ إذَا تَعَيَّنَ عَلَيْهِمْ الْجِهَادُ وَلَمْ يُجَاهِدُوا كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْوَعِيدِ ؛ وَلِهَذَا لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ أَسْلَمَ عَامَّةُ أَهْلِهَا ، فَلَمَّا جَاءَتْ الْمِحْنَةُ وَالِابْتِلَاءُ نَافَقَ مَنْ نَافَقَ ، فَلَوْ مَاتَ هَؤُلَاءِ قَبْلَ الِامْتِحَانِ لَمَاتُوا عَلَى الْإِسْلَامِ وَدَخَلُوا الْجَنَّةَ ، وَلَمْ يَكُونُوا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا ؛ الَّذِينَ اُبْتُلُوا فَظَهَرَ صِدْقُهُمْ)[1] .

وأما شرك الخوف فهو أن يخاف من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ؛ كأن يخاف طاغوتا أن يصيبه بمرض ، أو فقر ، أو ضر بقدرته ومشيئته ؛ ويخشاه خشية التعظيم التي لا تكون إلا لله وحده ! وهذا هو الواقع من المشركين ؛ فإنهم كانوا يخافون الأوثان والطواغيت ويخوفون بها المؤمنين ؛ قال تعالى عن قوم هود عليه السلام : ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾هود: ٥٤ ، وقال : ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ الزمر: ٣٦ ؛ ويسمى هذا الخوف بخوف السر ؛ وهو الذي ينافي أصل التوحيد ؛ فخرج بذلك نوعان من الخوف :-

١- ترك بعض الواجبات خوفا من الناس ؛ فهذا نوع من الشرك المنافي لكمال التوحيد ؛ قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ آل عمران: ١٧٥ ؛ أي يخوفكم بأوليائه ؛ لئلا تجاهدوهم ، ولا تأمروهم بمعروف ، أو تنهوهم عن منكر ؛ قال ابن القيم : (من كيد عدو الله تعالى أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه ؛ فلا يجاهدوهم ولا يأمروهم بالمعروف ولا ينهوهم عن المنكر ، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان ، وقد أخبرنا الله تعالى سبحانه عنه بهذا قال : (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) ؛ المعنى عند جميع المفسرين : يخوفكم بأوليائه ، قال قتادة : يعظمهم في صدوركم ؛ ولهذا قال : فلا

(١) مجموع الفتاوى ٧ / ٢٧١ . وانظر : فتح المجيد ، ص (٣٤٥ - ٣٥٨) ، القول المفيد ٢ / ١٤٠- ١٦٤ .



تخافوهم وخافوني إن كنتم مؤمنين ؛ فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان ، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم)[١] . وكثير من الناس فيه شعبة أو أكثر من هذا الخوف ؛ وأكثرها في الناس مداهنة الخلق في الحق ؛ وهي خلة مذمومة العاقبة ؛ فعن معاوية ﷺ أنه كتب إلى عائشة رضي الله عنها: (أن اكتبي إلي كتابا ؛ توصيني فيه ، ولا تكثري . فكتبت : سلام عليك ، أما بعد : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من التمس رضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس ! والسلام عليك)[٢] .

وقد يتجارى خوف الناس بصاحبه إلى الكفر ؛ عياذا بالله ؛ قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ العنكبوت: ١٠ .

٢- الخوف الطبيعي ؛ وهو خشية المحاذير الدنيوية ؛ كالخوف من عدو ، أو سبع ، أو غير ذلك ؛ فهذا لا يذم صاحبه إذا كان خوفه محققا قد انعقدت أسبابه ؛ قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾ هود: ٧٠ ، وقال : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ القصص: ٢١ ، وقال : ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ طه: ٦٧ ؛ وإن كان الخوف الطبيعي خوفا وهميا ؛ كالخوف الذي ليس له سبب ، أو له سبب ضعيف ؛ فهذا خوف مذموم ، وهو من الجبن الذي تشرع الاستعاذة منه ؛ روى البخاري بسنده عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي طَلْحَةَ : (الْتَمِسْ لَنَا غُلَامًا مِنْ غِلْمَانِكُمْ يَخْدُمُنِي ؛ فَخَرَجَ بِي أَبُو طَلْحَةَ يُرْدِفُنِي وَرَاءَهُ ؛ فَكُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كُلَّمَا نَزَلَ ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ)[٣] .

خامسا : شـرك الإرادة .

لابد أن يكون قصد العبد في أعماله الصالحة ابتغاء وجه الله وثوابه . وهذا القصد لا يهتدي لتجريده إلا الموفق من عباد الله ؛ فالناس في هذا المقام أربعة أقسام :-

---

(١) إغاثة اللهفان ١ / ١١٠ .

(٢) رواه الترمذي وغيره ، وإسناده صحيح . انظر : النهج السديد ، ص (١٨٩) .

(٣) انظر : فتح المجيد ، ص (٣٥٨ - ٣٦٦) ، القول السديد ، ص (١١٦) ، القول المفيد ٢ / ١٦٤ - ١٨٤ .

١- من يريد ربه ويريد ثوابه ؛ وهؤلاء خواص الخلق ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ الإسراء: ١٩ ؛ فأخبر أن السعي المشكور سعي من أراد الآخرة ؛ وإرادة الآخرة عبارة عن إرادة الله تعالى وثوابه !

٢- من يريد من الله ولا يريد الله ؛ وهذا حال أكثر المتكلمين ؛ فإنهم إنما يريدون نعيم الجنة المخلوق من الأكل والشرب والنكاح واللباس ، وينكرون ما وراء ذلك مما هو أكبر كرؤية الله وسماع كلامه ؛ قال ابن القيم : (الجنة ليست اسما لمجرد الأشجار والفواكه والطعام والشراب والحور العين والأنهار والقصور ، وأكثر الناس يغلطون في مسمى الجنة ؛ فإن الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل ، ومن أعظم نعيم الجنة التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم ، وسماع كلامه وقرة العين بالقرب منه وبرضوانه ، فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبدا ، فأيسر يسير من رضوانه أكبر من الجنان وما فيها من ذلك كما قال تعالى : ورضوان من الله أكبر ، وأتى به منكرا في سياق الإثبات ؛ أي أي شيء كان من رضاه عن عبده فهو أكبر من الجنة ... وفي الحديث الصحيح حديث الرؤية : فو الله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إلى وجهه ، وفي حديث آخر : أنه سبحانه إذا تجلى لهم ورأوا وجهه عيانا نسوا ما هم فيه من النعيم ، ... ولا ريب أن الأمر هكذا ، وهو أجل مما يخطر بالبال ، أو يدور في الخيال)[١] .

٣- من يريد الله ولا يريد منه ؛ ويزعم أنه يعبد الله محبة له لا خوفا من عقابه ولا طمعا في ثوابه ! كما يحكى عن أبي يزيد أنه قيل له : ما تريد ؟ قال : أريد أن لا أريد ! ويرد هذا المسلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ الأنبياء: ٩٠ ، ونظائره مما فيه الثناء على خواص الخلق برجاء الثواب وخوف العقاب !

٤- من لا يريد ربه ولا يريد ثوابه ؛ وإنما يريد الحياة الدنيا وزينتها[٢] ؛ قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ هود: ١٥ - ١٦ ، وقال : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٨٠ .

(٢) انظر : مدارج السالكين ٢ / ٨١- ٨٤ .

جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ الإسراء: ١٨ ، وقــال : ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ الشورى: ٢٠ ؛ فهذه ثلاث مواضع من القرآن يشبه بعضها بعضا ، ويصـــدق بعضها بعضا ، وتجتمع على معنى واحد ؛ وهو أن من كانت الدنيا مراده ولها يعمل فى غاية سعيه لم يكن له فى الاخرة نصيب ، ومن كانت الاخرة مراده ولها عمل وهى غاية سعيه فهى لــه[1] ؛ فمن كانت إرادته قاصرة على الدنيا فليس بمؤمن ؛ كما يدل لذلك سياق الآية الأولى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ هود: ١٦ ؛ وهـــذا حكـــم الكافر في الآخرة ! ولكن قد تعرض إرادة الدنيا للمسلم في بعض أعماله لا في كلها ؛ كمن يعمل (العمل الصالح من صدقة وصلاة وإحسان إلى الناس ، وترك ظلم ، ونحو ذلك ؛ ليجازيه اللّــه بحفظ ماله وتنميته ، أو حفظه أهله وعياله ، أو إدامة النعم عليهم ، ولا همة له في طلب الجنـــة ، والهرب من النار ، وهذا النوع ذكره ابن عباس . وكمن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالا مثل أن يحج لمال يأخذه ، أو يهاجر لدنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، أو يجاهد لأجل المغنم ، فقـــد ذكر أيضًا هذا النوع في تفسير هذه الآية . وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم ، أو رياستهم ، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة ؛ لأجل وظيفة المسجد ، كما هـــو واقـــع كثيرًا)[2] . وهذه الإرادة التي تعرض للمسلم في بعض أعماله الصالحة لها أثران :-

أ- أثر على الإيمان ؛ فإرادة الدنيا ببعض الأعمال الصالحة تنافي كمال الإيمان لا أصله ؛ وهذا على قواعد أهل السنة والجماعة ؛ فيجوز أن تجتمع إرادة الدنيا والآخرة في المعين ؛ كما يجوز أن يجتمع فيه كفر وإيمان وشرك وتوحيد وتقوى وفجور ؛ قال ابن القيم : (الله تعالى قد علـــق الســـعادة بإرادة الآخرة والشقاوة بإرادة الدنيا ؛ فإذا تجردت الإرادتان تجرد موجبـــهما ومقتضـــاهما ، وان اجتمعتا فحكم اجتماعهما حكم اجتماع البر والفجور والطاعة والمعصية والإيمـــان والشـــرك في العبد وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريـــد الآخـــرة) ؛ وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة ، و لم يكن فيهم منافق ؛ ولهذا قال عبد الله بن مسعود ﷺ ما شعرت أن أحد أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى كان يوم أحد ونزلت هـــذه الآيـــة ؛

---

(١) انظر : عدة الصابرين ، ص (٢٠٧) .

(٢) فتح المجيد ، ص (٣٩٠ ، ٣٩١) (باختصار) .



والذين أريدوا فى هذه الآية هم الذين أخلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه ؛ وهم من خيار المسلمين، ولكن هذه إرادة عارضة حملتهم على ترك المركز والإقبال على كسب الغنائم بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها ؛ فهذه الإرادة لون وإرادة هؤلاء لون)[١] . وهذه الإرادة العارضة تقوى في المسلم وتضعف بحسب إيمانه ؛ وكلما ضعف الإيمان اتسعت هذه الإرادة حتى يكون صاحبها عبدا للمال والعرض ؛ روى البخاري بسنده عن أبي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ ؛ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ ؛ تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ) ؛ وهذه الجمل الثلاث يحتمل أن تكون خبراً منه ﷺ عن حال هذا الرجل ، وأنه في تعاسة وانتكاس وعدم خلاص من الأذى ، ويحتمل أن يكون من باب الدعاء على من هذه حاله ؛ فدعا عليه أن يهلك ، وأن لا يصيب من الدنيا شيئاً ، وأن لا يتمكن من إزالة ما يؤذيه[٢] .

ب- أثر على العمل الصالح ؛ فإرادة الدنيا تؤثر على العمل الصالح بحسب نية العامل ؛ فإن كان الحامل على العمل الصالح ابتغاء عرض من الدنيا فالعمل باطل ؛ روى البخاري بسنده عن عمر بن الخطاب ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ؛ فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) ؛ قال ابن رجب : (سائر الأعمال كالهجرة في هذا المعنى ؛ فصلاحها وفسادها بحسب النية الباعثة عليها كالجهاد والحج وغيرهما)[٣] .

وإن كان الحامل على العمل الصالح إرادة الدنيا والآخرة فظاهر النصوص يدل على أنه باطل أيضا ؛ روى أبوداد بسند حسن[٤] عن أبي هريرة ﷺ أن رجلا قال : (يا رسول الله ! رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من عرض الدنيا ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا أجر له ! فأعظم ذلك الناس ! وقالوا للرجل : عد لرسول الله ﷺ ؛ فلعلك لم تفهمه . فقال يا رسول الله :

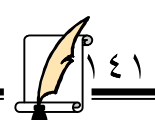
---

(١) عدة الصابرين ، ص (٢٠٨) .

(٢) انظر : القول المفيد ٢ / ٢٥٠ .

(٣) جامع العلوم والحكم ، ص (١٢) .

(٤) صحيح وضعيف سنن أبي داود ، ح (٢٥١٦) .

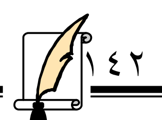


رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من عرض الدنيا ؟ فقال : لا أجر له ! فقالوا للرجل : عد لرسول الله ﷺ فقال له الثالثة فقال له : لا أجر له !!) ، ورأى بعض أهل العلم أن هذه الإرادة تنقص الأجر ولا تبطله ؛ وحملوا الحديث على من لم يكن له غرض في الجهاد إلا الدنيا ، والله أعلم[1] .

وإن كان الحامل على العمل الصالح ابتغاء وجه الله ثم ترتب على ذلك شيء من الدنيا فظاهر النصوص يدل على نقصان أجر العامل بما نال من الدنيا ؛ روى مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ، ويبقى لهم الثلث ، وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم) ، وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (مثل المجاهد في سبيل الله ، والله أعلم بمن يجاهد في سبيله ،كمثل الصائم القائم ، وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالما مع أجر أو غنيمة) ؛ قال ابن حجر : (أي مع أجر خالص إن لم يغنم شيئا ، أو مع غنيمة خالصة معها أجر ، وكأنه سكت عن الأجر الثاني الذي مع الغنيمة ؛ لنقصه بالنسبة إلى الأجر الذي بلا غنيمة)[2] ؛ ولهذا كان السلف يخشون نقصان أجر الأعمال الخالصة بما ينالون من الدنيا ؛ روى مسلم بسنده عن خباب بن الأرت ﷺ قال : (هاجرنا مع رسول الله ﷺ في سبيل الله ؛ نبتغي وجه الله ، فوجب أجرنا على الله ؛ فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئا ؛ منهم مصعب بن عمير ؛ قتل يوم أحد فلم يوجد له شيء يكفن فيه إلا نمرة ، فكنا إذا وضعناها على رأسه خرجت رجلاه ، وإذا وضعناها على رجليه خرج رأسه ، فقال رسول الله ﷺ : ضعوها مما يلي رأسه ، واجعلوا على رجليه الإذخر ؛ ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها) ؛ وروى ابن أبي الدنيا بسند جيد[3] عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (لا يصيب عبد من الدنيا شيئا إلا نقص من درجاته ، وان كان عند الله كريما) . وقد أنكر كثير من العلماء نقصان أجر العمل الخالص بما نال صاحبه من الدنيا ؛ واحتجوا بتمدح النبي

---

(١) انظر : جامع العلوم والحكم ، ص (١٥) .
(٢) فتح الباري ٦ / ٨ .
(٣) انظر : فتح الباري ١١ / ٢٨٠ .



ﷺ بحل الغنيمة ، فلو كانت تنقص الأجر ما وقع التمدح بها ، وبأن الله جعل في الأموال الشرعية جزأ لمن يقوم بالوظائف الدينية والدنيوية ؛ ولهذا تأولوا الحديث بتأويلات كثيرة[1]. وفيما ذهبوا إليه نظر ؛ لأن كل ما احتجوا به إنما يدل على الحل ، ولا يلزم من ثبوت الحل وفاء الأجر[2] . والله أعلم .

سادسا : شرك الطاعة .

وهو طاعة الخلق في تبديل شرع الخالق ؛ قال تعالى :﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ التوبة: ٣١ ؛ روى الترمذي بسند حسن[3] عن عدي بن حاتم ﷺ قال أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال : (يا عدي اطرح عنك هذا الوثن ، وسمعته يقرأ في سورة براءة (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه) ؛ قال ابن تيمية : (وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا حَيْثُ أَطَاعُوهُمْ فِي تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَتَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ يَكُونُونَ عَلَى وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) : أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ بَدَّلُوا دِينَ اللَّهِ فَيَتْبَعُونَهُمْ عَلَى التَّبْدِيلِ فَيَعْتَقِدُونَ تَحْلِيلَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَتَحْرِيمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ ؛ اتِّبَاعًا لِرُؤَسَائِهِمْ مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ خَالَفُوا دِينَ الرُّسُلِ ؛ فَهَذَا كُفْرٌ وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ شِرْكًا – وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا يُصَلُّونَ لَهُمْ وَيَسْجُدُونَ لَهُمْ – فَكَانَ مَنْ اتَّبَعَ غَيْرَهُ فِي خِلَافِ الدِّينِ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُ خِلَافُ الدِّينِ وَاعْتَقَدَ مَا قَالَهُ ذَلِكَ دُونَ مَا قَالَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؛ مُشْرِكًا مِثْلَ هَؤُلَاءِ . وَالثَّانِي : أَنْ يَكُونَ اعْتِقَادُهُمْ وَإِيمَانُهُمْ بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ وَتَحْلِيلِ الْحَرَامِ ثَابِتًا لَكِنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ كَمَا يَفْعَلُ الْمُسْلِمُ مَا يَفْعَلُهُ مِنْ الْمَعَاصِي الَّتِي يَعْتَقِدُ أَنَّهَا مَعَاصٍ ؛ فَهَؤُلَاءِ لَهُمْ حُكْمُ أَمْثَالِهِمْ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ)[4] . وقال صالح الفوزان : (إذا كان هذا فيمن أطاع العلماء والعباد في التحليل والتحريم الذي يخالف شرع

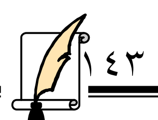
---

(١) انظر : فتح الباري ٦ / ٨- ١٠ ، القول السديد (١٢٨ ، ١٢٩) .

(٢) انظر : فتح الباري ٦ / ٩ . وانظر في شرك الإرادة : فتح المجيد ، ص (٣٨٧- ٣٩٨) ، حاشية ابن قاسم ، ص (٢٦٩- ٢٧٥) ، القول المفيد ٢/٢٤١- ٢٥٤ .

(٣) صحيح وضعيف الترمذي ، ح (٣٠٩٥) .

(٤) مجموع الفتاوى ٧ / ٧٠ .



الله ، وهو يعلم هذه المخالفة مع أنهم أقرب إلى العلم والدين ، وقد يكون خطؤهم عن اجتهاد لم يصيبوا فيه الحق وهم مأجورون عليه ، فكيف بمن يطيع أحكام القوانين الوضعية ؛ التي هي من صنع الكفار والملحدين يجلبها إلى بلاد المسلمين ويحكم بها بينهم ! فلا حول ولا قوة إلا بالله ! إن هذا قد اتخذ الكفار أربابا من دون الله ؛ يشرعون له الأحكام ، ويبيحون له الحرام ، ويحكمون بين الأنام)[١] ، وقال : (من هذا طاعة الحكام والرؤساء في تحكيم القوانين الوضعية المخالفة للأحكام الشرعية في تحليل الحرام ؛ كإباحة الربا والزنا وشرب الخمر ومساواة المرأة للرجل في الميراث وإباحة السفور والاختلاط ، أو تحريم الحلال ؛ كمنع تعدد الزوجات ، وما أشبه ذلك من تغيير أحكام الله ، واستبدالها بالقوانين الشيطانية ؛ فمن وافقهم على ذلك ، ورضي به واستحسنه فهو مشرك كافر ، والعياذ بالله)[٢] .

ويخشى شرك الطاعة على فئات كثيرة ؛ منها : -

١- بعض أهل التقليد ؛ وهم الذين يقلدون إمامهم في كل ما قاله حتى لو خالف الدليل ؛ روى الإمام أحمد بسند صحيح[٣] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ؛ أقول : قال رسول الله ﷺ ، وتقولون: قال أبو بكر و عمر !) ، وقال الإمام أحمد : (عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته ويذهبون إلى رأي سفيان ! والله تعالى يقول: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ النور: ٦٣ ، أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك ؛ لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك !) .

٢- أتباع أئمة البدعة ؛ فمن تابع صاحب بدعة فيما أحدثه في دين الله مع علمه بمخالفته للدين ففيه شعبة من هذا الشرك ؛ قال ابن تيمية : (من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين ، واعتقد ما قاله دون ما قاله الله ورسوله فهو مشرك مثل هؤلاء)[٤] ؛ أي الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ! ، وقال صالح الفوزان : (من اتخاذ الأحبار والرهبان

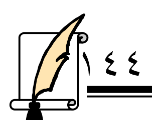
---

(١) عقيدة التوحيد ، ص (١٥١ ، ١٥٢) .

(٢) الإرشاد ، ص (٦٩) .

(٣) انظر : التمهيد ، ص (٤١٧) .

(٤) مجموع الفتاوى ٧ / ٧٠ .



أربابا طاعة علماء الضلال فيما أحدثوه في دين الله من البدع والخرافات والضلالات ؛ كإحياء الموالد ، والطرق الصوفية ، والتوسل بالأموات ودعائهم من دون الله)[١] ، وقال ابن عثيمين : (في المتعصبين لمشايخهم وكبرائهم ومذاهبهم من لا يقبل قرآناً ولا سنة في معارضة الشيخ أو الإمام ، حتى إن بعضهم يجعلهم معصومين ، كالرافضة ، والتيجانية ، وغيرهم ، فهم يرون أن إماماهم لا يخطئ ، والكتاب والسنة يمكن أن يخطئا . والواجب على المرء أن يكون تابعاً لما جاء به الرسول ﷺ ، و من خالفه من الكبراء والأئمة ، فإنهم لا يحتج بهم على الكتاب والسنة ، لكن يعتذر لهم عن مخالفة الكتاب والسنة إن كانوا أهلاً للاعتذار ، بحيث لم يعرف عنهم معارضة للنصوص ، فيعتذر لهم بما ذكره أهل العلم ، ومن أحسن ما ألف كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية رفع الملام عن الأئمة الأعلام ، أما من يعرف بمعارضة الكتاب والسنة، فلا يعتذر له)[٢].

الحكم بغير ما أنزل الله

الحكم بغير ما أنزل الله تعالى يتضمن في كثير من الحالات شرك الطاعة وزيادة ؛ وذلك لأنه لا يقتصر على التحليل والتحريم من دون الله ، وإنما يتجاوز ذلك إلى عزل الشريعة عن الحكم وإحلال أحكام الخلق مكان حكم الخالق ؛ كما هو الشأن في الياسق قديما والقانون الوضعي حديثا ! وهذا من أعظم الإفساد في الأرض ؛ فلا صلاح للعالم إلا بتوحيد الله وطاعته وتحكيم شريعته ؛ قال تعالى :﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ الأعراف: ٥٦ ، وقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ البقرة: ١١ – ١٢ ، ومن تدبر أحوال العالم وجد أن كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله[٣] ؛ ولهذا أنكر الله على من عدل عن تحكيم الشريعة إلى غيرها ؛ لأنه إنما عدل عن أحسن الأحكام ؛ المبنية على العلم والعدل إلى أحكام الجاهلية ؛ المبنية على الجهل والظلم ؛ قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ المائدة: ٥٠ ؛

---

(١) الإرشاد ، ص (٧١) .
(٢) القول المفيد ١ / ٣٦٤ (بتصرف يسير) .
(٣) فتح المجيد ، ص (٤١١) .

قال ابن كثير : (ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المُحْكَم المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات ، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات ، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان ، الذي وضع لهم الياسق ؛ وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى ، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية ، وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت في بنيه شرعًا متبعًا ، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله ، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ﷺ ؛ فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير)[1] .

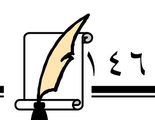
وللحكم بغير ما أنزل الله ثلاثة جوانب رئيسة : -

١- التشريع ؛ أي سن ما لم يأذن به الله من شرائع ودساتير ؛ ليسير عليها الناس في معاملاتهم وشئون حياتهم . وهذا شرك في الربوبية ؛ لأن الأمر كالخلق ؛ كلاهما من خصائص الله وحده ؛ قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ الأعراف: ٥٤ ، وقال : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾الشورى: ٢١ ؛ وقال : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ يونس: ٥٩ ؛ قال ابن عثيمين : (من وضع قوانين تشريعية مع علمه بحكم الله وبمخالفة هذه القوانين لحكم الله ، فهذا قد بدل الشريعة بهذه القوانين ، فهو كافر ؛ لأنه لم يرغب بهذا القانون عن شريعة الله إلا وهو يعتقد أنه خير للعباد والبلاد من شريعة الله)[2] . وذكر رحمه الله في تفسير سورة الشورى أن التشريع كفر بشرطين ؛ أحدهما : ألا يكون الحاكم متأولا ؛ كأن يضع قانونا يجيز العينة معتقدا أن إباحته لا تخالف الشريعة . والثاني : ألا يكون مضللا ؛ كمن أقنعه علماء السوء بأن التشريع الوضعي لا يخالف الشريعة ؛ بحجة قوله ﷺ : (أنتم أعلم بأمور دنياكم) . والحديث الذي ذكره رواه مسلم بسنده عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ مر بقوم يلقحون فقال : لو لم تفعلوا لصلح ، فخرج شيصا ، فمر بهم فقال : ما لنخلكم ؟

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٦٧ .

(٢) القول المفيد ٢ / ٢٦٨ .



قالوا : قلت كذا وكذا ، قال : أنتم أعلم بأمر دنياكم) ؛ وهذا فيما أمر به رأيا لا دينا وتشريعا[1] ؛ كما يدل لذلك ما رواه مسلم بسنده عن رافع بن خديج ﷺ قال : (قدم نبي الله ﷺ المدينة ، وهم يأبرون النخل ؛ يقولون يلقحون النخل ، فقال : ما تصنعون ؟ قالوا : كنا نصنعه ، قال لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا ، فتركوه ، فنفضت أو فنقصت . فذكروا ذلك له ، فقال : إنما أنا بشر ؛ إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر) .

٢- الحكم بين الناس بغير شرع الله ؛كالقوانين والعادات والتقاليد ؛ وقد وصف الله من حكم بغير ما أنزل الله بثلاثة أوصاف ؛ قال تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ المائدة: ٤٤ ، وقال : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ المائدة: ٤٥ ، وقال : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ المائدة: ٤٧ ؛ وقد اختلف أهل العلم في هذه الأوصاف ؛ هل هي لموصوف واحد ؛ بمعنى أن كل من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر ظالم فاسق ، أو أنها لموصوفين متعددين ؛ بحسب الحامل لهم على عدم الحكم بما أنزل الله ؟ هذا هو الأقرب ؛ لأن الحكم بغير ما أنزل الله يكون تارة كفرا ، وتارة ظلما أو فسقا ، وتارة خطأ مغفور ا ؛ بحسب حال الحاكم ؛ فيكون كفرا في الحالات التالية : -

أ- إذا اعتقد أن حكم غير الله أحسن من حكمه ؛ لأنه مكذب لقوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ المائدة: ٥٠ .

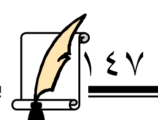
ب- إذا جحد الحاكم وجوب حكم الله ورسوله ؛ لأن من جحد أصلا من أصول الدين أو فرعا مجمعا عليه خرج من الملة .

ج- إذا اعتقد أن حكم غير الله يماثل حكمه ؛ لما في ذلك من تسوية المخلوق بالخالق .

د- إذا اعتقد جواز الحكم بغير ما أنزل الله ؛ لأن كل من استباح ما علم تحريمه بالضرورة كفر إجماعا .

هـ- إذا استهان بحكم الله مع تيقنه أنه حكم الله ؛ لأن الاستهانة بحكم الله تنافي إيمان القلب ؛

(١) انظر : شرح صحيح مسلم ١٥ / ١١٦ .



فلو كان في قلبه شيء من تعظيم الله لمنعه من الاستخفاف بحكم الله .

و- ألا يلتزم بحكم الله ورسوله ، بل يحكم بما يخالفه من القوانين والعادات والتقاليد ؛ لأن كل من امتنع عن الالتزام بحكم معلوم من الدين بالضرورة كفر إجماعا.

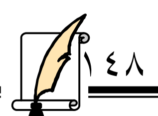
وأما من التزم بحكم الله ورسوله ثم عدل عن مقتضى التزامه في وقائع معينة ؛ لرشوة أو محاباة أو ما أشبه ذلك فهو ظالم أو فاسق وليس بكافر ؛ لأنه لم ينقض أصل التزامه بحكم الله ورسوله ، وإن أخطأ فحكم بغير ما أنزل الله في واقعة معينة بعد أن بذل جهده واستفرغ وسعه في معرفة حكم الله فمعذور وله أجر الاجتهاد[1] ؛ لقوله ﷺ : (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر) رواه البخاري و مسلم .

٣- التحاكم ؛ أي التقاضي في فصل الخصومات إلى غير شرع الله ؛ قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ النساء: ٦٠ – ٦١ ؛ فمن حاكم إلى غير الكتاب والسنة مختارا فهو منافق وإن زعم أنه مؤمن ؛ لأن الإيمان الصادق يقتضي تحكيم شرع الله في موارد النزاع ؛ قال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ النساء: ٦٥ ؛ وأما إن اضطر لذلك فحكم الآية لا يعمه ؛ لأنه معلق بإرادة التحاكم إلى الطاغوت ؛ قال صالح آل الشيخ : (قوله : (يريدون) هذا ضابط مهم ، وشرط في نفي أصل الإيمان عمن تحاكم إلى الطاغوت ، فإن من تحاكم إلى الطاغوت قد يكون بإرادته – وهي الطواعية والاختيار والرغبة في ذلك وعدم الكراهة – ، وقد يكون بغير إرادته ، بأن يكون مجبرا على ذلك ، وليس له في ذلك اختيار ، وهو كاره لذلك ، فالأول هو الذي ينتفي عنه الإيمان ، إذ لا يجتمع الإيمان بالله وبما أنزل إلى النبي ﷺ وما أنزل من قبله مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت ، فالإرادة شرط ؛ لأن الله – جل وعلا – جعلها في ذلك مساق الشرط)[2]. وعلى المضطر إلى التحاكم إلى غير شرع

---

(١) انظر : شرح الطحاوية ، ص (٣٢٣ ، ٣٢٤) ، تحكيم القوانين ، ص (٥- ٨) ، القول المفيد ٢ / ٢٢٦- ٢٦٩ ، المجموع الثمين ١ / ٣٥ ، ٣٦ ، الوعد الأخروي ٢ / ٨٨٤- ٨٨٦ .

(٢) التمهيد ، ص (٤٢٦) .



الله أن يعتقد أهم بمترلة الشرط لا بمترلة الحكام ؛ فيحاكم إليهم لأخذ الحق لا لاعتقاد أهم على حق . ووجوب التحاكم إلى الكتاب والسنة لا يختص بفصل الخصومات ، بل يعم جميع موارد التراع ؛ فيجب على كل مسلم عند الاختلاف في الأقوال أو المذاهب أو الحقوق التحاكم إلى شرع الله ؛ قال ابن سعدي : (الإيمان لا يصح ولا يتم إلا بتحكيم الله ورسوله في أصول الدين وفروعه ، وفي كل الحقوق)[١] ؛ قال تعالى : ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾ النساء: ٥٩ ؛ فقوله في شيء نكرة في سياق الشرط ؛ وهي من صيغ العموم ؛ فتعم كل موارد التراع مما قل أو جل[٢] .

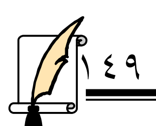
سابعا : إجمال أنواع الشرك .

أنواع الشرك الأكبر في توحيد العبادة لا تنحصر فيما ذكر ، فكل من صرف نوعا من العبادة لغير الله فقد فقد وقع في شرك هذا الشرك ، وقد أجمل الشيخ سليمان بن عبد الله أهم أنواع الشرك في العبادة ؛ فقال : (جميع أنواع العبادة يجب إخلاصها لله تعالى فمن أشرك بين الله تعالى وبين غيره في شيء فليس بمسلم ؛ **فمنها المحبة** فمن أشرك بين الله تعالى وبين غيره في المحبة التي لا تصلح إلا لله فهو مشرك ،كما قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبوهم كحب الله الى قوله تعالى وما هم بخارجين من النار) . **ومنها التوكل** فلا يتوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ، قال الله تعالى : (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) ، (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) ؛ والتوكل على غير الله فيما يقدر عليه شرك أصغر . **ومنها الخوف** فلا يخاف خوف السر إلا من الله ، ومعنى خوف السر هو أن يخاف العبد من غير الله تعالى ان يصيبه مكروه بمشيئته و قدرته وإن لم يباشره فهذا شرك أكبر ؛ لأنه اعتقاد للنفع والضر في غير الله قال الله تعالى : (فأياي فارهبون) ، وقال تعـــالى : (فلا تخشوا الناس واخشون) ، وقال تعالى : (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) . **ومنها الرجاء** فيما لا يقدر عليه إلا الله ؛كمن يدعو الأموات أو غيرهم راجيا حصول مطلوبه من جهتهم فهذا شرك أكبر قال الله تعالى : (ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا

---

(١) القول السديد ، ص (١٣٣ ، ١٣٤) .

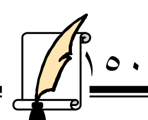
(٢) انظر : فتح المجيد ، ص (٤٠٧- ٤١٧) ، حاشية ابن قاسم ، ص (٢٨٣- ٢٩١) ، القول المفيد ٢ / ٢٧٥- ٢٩٠ .



في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) ، وقال علي رضي الله عنه : لا يرجون عبد إلا ربه . **ومنها الصلاة والركوع والسجود** قال الله تعالى : (فصل لربك وانحر) ، وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم الاية) . **ومنها الدعاء** فيما لا يقدر عليه إلا الله ؛ سواء كان طلبا للشفاعة أو غيرها من المطالب ، قال الله تعالى : (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم) ، وقال تعالى : (وقال ربكم ادعوني استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) ، وقال تعالى : (ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين) ، وقال تعالى : (ام اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا الآية) . **ومنها الذبح** قال الله تعالى : (قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له الآية) ؛ والنسك الذبح . **ومنها النذر** قال الله تعالى : (وليوفوا نذورهم) وقال تعالى : (يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا) . **ومنها الطواف** فلا يطاف إلا ببيت الله قال الله تعالى : (وليطوفوا بالبيت العتيق) . **ومنها التوبة** فلا يتاب إلا لله قال الله تعالى : (ومن يغفر الذنوب الا الله) وقال تعالى : (وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون) . **ومنها الاستعاذة** فيما لا يقدر عليه إلا الله ، قال الله تعالى : (قل اعوذ برب الفلق) ، وقال تعالى: (قل اعوذ برب الناس) . **ومنها الاستغاثة** فيما لا يقدر عليه إلا الله قال الله تعالى :(إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) . فمن أشرك بين الله تعالى وبين مخلوق فيما يختص بالخالق تعالى من هذه العبادات ، أو غيرها فهو مشرك وإنما ذكرنا هذه العبادات خاصة ؛ لأن عباد القبور صرفوها للاموات من دون الله تعالى ، أو أشركوا بين الله تعالى وبينهم فيها ، وإلا فكل نوع من انواع العبادة من صرفه لغير الله أو شرك بين الله تعالى وبين غيره فيه فهو مشرك قال الله تعالى واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا)[1].

---

(١) تيسير العزيز الحميد ، ص (٣٩- ٤٢) . (بتصرف يسير) .



الشرك الأصغر

وهو كل ماورد في النصوص أنه شرك و لم يصل إلى درجة الشرك الأكبر . وهو يختلف عن الشرك الأكبر في الحكم والحد ؛ قال ابن قاسم : (الشرك قسمان : أكبر وأصغر ، وبينهما فرق في الحكم والحد ، فالأكبر : أن يسوي غير الله بالله فيما هو من خصائص الله كالمحبة ، وحكمه أنه لا يغفر لصاحبه أبدا إلا بالتوبة ، وأنه يحبط جميع الأعمال ، وأن صاحبه خالد مخلد في النار . والأصغر هو ما أتي في النصوص أنه شرك ، و لم يصل إلى حد الشرك الأكبر ، وحكمه أنه لا يغفر لصاحبه إلا بالتوبة لعموم (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) ، وأنه يحبط العمل الذي قارنه[١] ، ولا يوجب التخليد في النار ، ولا ينقل عن الملة ، ويدخل تحت الموازنة ، إن حصل معه حسنات راجحة على ذنوبه دخل الجنة وإلا دخل النار)[٢] . وهذا كلام جيد إلا أن في الاستدلال بالآية على عدم مغفرة الشرك الأصغر نظر ؛ لأن الشرك إذا أطلق فالمراد به الأكبر ؛ كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾المائدة: ٧٢ ، ولعل هذا سبب اختلاف كلام شيخ الإسلام في هذه المسألة ؛ قال ابن عثيمين : (شيخ الإسلام ابن تيمية المحقق في هذه المسائل اختلف كلامه في هذه المسألة ، فمرة قال : الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر ، ومرة قال : الشرك الذي لا يغفره الله هو الشرك الأكبر)[٣] . وللشرك الأصغر أنواع كثيرة[٤] ؛ منها :-

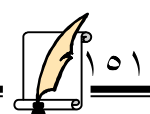
أولا : الريـــــــاء .

الرياء مشتق من الرؤية ؛ وهو إظهار العبادة ليراها الناس ويحمدون صاحبها ! ويدخل في ذلــك السمعة ، والتحدث بالعمل الصالح . والفرق بين الرياء والسمعة أن الرياء لما يرى من العمــل ؛ كالصلاة ، والسمعة لما يسمع ؛ كالقراءة[٥] .

والرياء ينافي الإخلاص ؛ فالإخلاص أن يخلص العمل من الشرك الجلي والخفي ، أو استواء أعمال

---

(١) هذا خاص بما يحبط العمل من أنواع الشرك الأصغر ؛ كالرياء ؛ فلا يعم كل أنواع الشرك الأصغر ؛ كالحلف بغير الله .
(٢) حاشية ابن قاسم ، ص (٥٠ ، ٥١) . وانظر : القول المفيد ١ / ٢٠٦- ٢٠٩ ، ٢/ ١٢٣ ، ١٢٤ ،
(٣) القول المفيد ١ / ١١٠ .
(٤) انظر : فتح المجيد ، ص (٨٩ ، ٣٨٧) ، حاشية ابن قاسم ، ص (٥٢ ، ٥٣) .
(٥) انظر : فتح المجيد ، ص (٣٨٣) .



العبد في الظاهر والباطن ، والصدق في الإخلاص أن يكون باطنه أعمر من ظاهره ؛ والرياء أن يكون ظاهره خيرا من باطنه[1] ! فهو نقيض الصدق والإخلاص ، أي أنه مناف لروح العبادة ؛ ولهذا كثرت أدلة تحريمه وتنوعت ؛ فمن ذلك : -

١- النهي عن الشرك ؛ نهيا يعم الرياء وغيره ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾الكهف: ١١٠ ؛ فكلمة (أحدا) نكرة في سياق نهي ؛ والنكرة في سياق النهي من صيغ العموم ؛ فيكون حكم الآية عاما في الشرك الأكبر والأصغر .

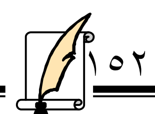
٢- الأمر بإخلاص الدين وإسلام الوجه ؛ وهو إخلاص القصد والعمل لله[2] ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾الزمر: ٢ ، وقال : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾البقرة: ١١٢ ؛ والأمر بالإخلاص يستلزم النهي عن ضده ؛ وهو الرياء و الشرك بجميع أنواعه .

٣- بيان شدة خطر الرياء على الصالحين ؛ روى ابن ماجة بإسناد حسن[3] عن أبي سعيد ﷺ قال : (خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر المسيح الدجال ، فقال : ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ! قلنا : بلى . فقال : الشرك الخفي ؛ أن يقوم الرجل يصلي ، فيزين صلاته ؛ لما يرى من نظر رجل) ؛ فإذا كان النبي يخافه على سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم فغيرهم من باب أولى[4] .

٤- وصف الرياء بالشرك الخفي ، أو شرك السرائر ، أو الشرك الأصغر ؛ روى البيهقي بإسناد صحيح[5] عن يعلى بن شداد عن أبيه ﷺ قال : (كنا نعد الرياء في زمن النبي ﷺ الشرك الأصغر) ، وروى ابن خزيمة بسند حسن[6] عن محمود بن لبيد ﷺ قال : (خرج النبي ﷺ

---

(١) انظر : مدارج السالكين ٢ / ٩١ .
(٢) انظر : المرجع السابق ٢ / ٨٩ ، ٩٠ .
(٣) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٢٦٠٧) .
(٤) انظر : فتح المجيد ، ص (٣٨٧) .
(٥) انظر : صحيح الترغيب والترهيب ، ح (٣٥) .
(٦) انظر : صحيح الترغيب والترهيب ، ح (٣١) .



فقال : يا أيها الناس إياكم وشرك السرائر ! قالوا : يا رسول الله وما شرك السرائر ؟ قال : يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهدا ؛ لما يرى من نظر الناس إليه فذلك شرك السرائر) .

٥- بيان شدة وعيد الرياء في الآخرة ؛ عن أبي هريرة ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ؛ فأتي به فعرفه نعمته ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال هو جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ، حتى ألقي في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ؛ فأتي به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال ، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار) رواه مسلم .

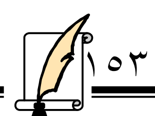
٦- أن الرياء من أسباب الفضيحة على رؤوس الأشهاد ؛ عن جندب بن عبد الله ﷺ قال قال النبي ﷺ : (من سمع سمع الله به ، ومن يراء يراء الله به) ، رواه البخاري ومسلم ، وعن أبي هند الداري ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول : (من قام مقام رياء وسمعة راءى الله به يوم القيامة وسمع) رواه أحمد بإسناد جيد[١] ، وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من سمع الناس بعمله سمع الله به مسامع خلقه وصغره وحقره) ، رواه الطبراني في الكبير بأسانيد أحدها صحيح[٢] .

٧- أن الرياء مبطل للعمل ؛ روى مسلم بسنده عن هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ) ، وروى ابن ماجة وغيره بسند صحيح[٣] عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :

(١) انظر : صحيح الترغيب والترهيب ، ح (٢٤) .

(٢) انظر : صحيح الترغيب والترهيب ، ح (٢٥) .

(٣) انظر : صحيح الترغيب والترهيب ، ح (٣٤) .



قال الله عز وجل : (أنا أغنى الشركاء عن الشرك ؛ فمن عمل لي عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء ، وهو للذي أشرك) ، وروى الترمذي وغيره بسند حسن[١] عن أبي سعيد بن أبي فضالة ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ليوم لا ريب فيه ، نادى مناد من كان أشرك في عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عنده ؛ فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك) ، وروى أحمد بإسناد جيد[٢] عن محمود بن لبيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ! قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ؛ يقول الله عز وجل إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء) ؛ وقد ذكر ابن رجب تفصيلا مهما لأثر الرياء في إبطال العمل ؛ فإن كان العمل رياء محضا فهذا العمل حابط وصاحبه مستحق لوعيد المرائين . وإن كان العمل لله وشاركه الرياء من أصله فالأحاديث صريحة في بطلانه ؛ كحديث أبي هريرة المذكور آنفا ! وكحديث أبي أمامة الباهلي ﷺ قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : (أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا شيء له ، فأعادها ثلاث مرات ، يقول له رسول الله ﷺ لا شيء له ! ثم قال : إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتغي به وجهه) ، رواه النسائي بإسناد جيد[٣] . وأما إن كان أصل العمل لله ثم طرأ عليه نية الرياء فإن كان خاطرا ثم دفعه فلا يضره بلا خلاف ، وإن استرسل معه ؛ فإن كان العمل يرتبط آخره بأوله كالصلاة فالظاهر أن عمله لا يبطل وأنه يجازى بنيته الأولى ، وإن كان لا يرتبط ؛ كالقراءة ؛ فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة ، ويحتاج إلى تجديد نية. فأما إذا إذا عمل العمل خالصا لله ثم ألقى الله له الثناء الحسن ففرح بذلك واستبشر فليس ذلك من الرياء ، بل من عاجل بشرى المؤمن[٤] ، روى مسلم بسنده عن أبي ذر ﷺ قال : (قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنْ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ ؟ قَالَ : تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ) .

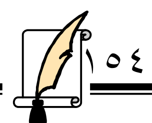
---

(١) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٤٨٢) .

(٢) انظر : صحيح الترغيب والترهيب ، ح (٣٢) .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ؛ (٨) .

(٤) انظر : جامع العلوم والحكم ، ص (١٣- ١٦) .



خطورة الريـــاء .

ليست خطورة الشرك قاصرة على آثاره وأحكامه ، ولكنها تتسع فتشمل طرقه ومداخله فهـــي أخفى من دبيب النمل ؛ روى البخاري في الأدب المفرد بسند صحيح[١] عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : (انطلقت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى النبي ﷺ ؛ فقال : يا أبا بكر ! للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل . فقال أبو بكر : وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلهاً آخر ؟ فقال الـــنبي ﷺ : والذي نفسي بيده ، للشرك أخفى من دبيب النمل ، ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهـــب عنـــك قليله و كثيره ؟ قال : قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم) والرياء من أعظم أبواب الشرك خفاء ، حتى إن النبي ﷺ سماه الشرك الخفي ، وخافه على أصحابه مع قوة إيمانهم وعلمهم ؛ روى ابن ماجة بسند حسن[٢] عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعا : (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟ الشرك الخفي ؛ أن يقوم الرجل فيصلي فيـــزين صلاته لما يرى من نظر رجل) ؛ ولهذا كان الرياء من أعظم ما يتوقاه السلف ؛ قال سفيان : كان ربيعة بن أبي عبد الرحمن يوما جالسا ، فغطى رأسه ، ثم اضطجع وبكى ، فقيل : ما يبكيـــك ؟ فقال : رئاء ظاهر ، وشهوة خفية ! وكان منصور بن المعتمر يقوم الليل يبكي ، فإذا أصبح كحل عينيه ، ودهن رأسه ، وبرق شفتيه ، وخرج للناس[٣] ! وقال يوسف بن الحسين : أعز شـــيء في الدنيا : الإخلاص وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي فكأنه ينبت على لون آخر[٤]. ولكن لا ينبغي أن يحمل خوف الرياء على ترك العمل ؛ قال الفضيل : ترك العمل من أجل الناس ريـــاء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما[٥] . ويخشى أن يصل الغلـــو في الخوف من الرياء إلى طرق تخالف هدي السلف ؛ كما فعلت (الطائفة الملامتيه ؛ وهـــم الـــذين يظهرون مالا يمدحون عليه ويسرون ما يحمدهم الله عليه ، عكس المرائين المنافقين ، وهؤلاء طائفة معروفة يزعمون أنهم يحتملون ملام الناس لهم على ما يظهرونه من الأعمال ؛ ليخلص لهـــم مـــا

---

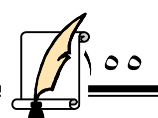
(١) صحيح الأدب المفرد ، ح (٥٥٤) .

(٢) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٢٦٠٧) .

(٣) انظر : صفة الصفوة ٢ / ١٥٢ ، ٣ / ١١٢ .

(٤) انظر : مدارج السالكين ٢ / ٩٢ .

(٥) انظر : المرجع السابق ٢ / ٩١ .



يبطنونه من الأحوال ، ويحتجون بقوله تعالى : (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) ؛ وهذا يحمد في حال ويذم في حال ، ويحسن من رجل ويقبح من آخر ؛ فيحمد إذا أظهر ما يجوز إظهاره ولا نقص عليه فيه ولا ذم من الله ورسوله ؛ ليكتم به حاله وعمله ، كما إذا أظهر الغنى وكتم الفقر والفاقة وأظهر الصحة وكتم المرض ، وأظهر النعمة وكتم البلية ؛ فهذا كله من كنوز الستر ، وله في القلب تأثير عجيب يعرفه من ذاقه ! وأما الحال التي يذم فيها فأن يظهر مالا يجوز إظهاره ؛ ليسيء به الناس الظن ، فلا يعظموه ، كما يذكر عن بعضهم : أنه دخل الحمام ثم خرج وسرق ثياب رجل ومشى رويدا حتى أدركوه فأخذوها منه وسبوه ! فهذا حرام ، لا يحل تعاطيه ، ويقبح أيضا من المتبوع المقتدى به ذلك ، بل وما هو دونه ؛ لأنه يغر الناس ويوقعهم في التأسي بما يظهره من سوء ! فالملامتية نوعان ؛ ممدوحون أبرار ، ومذمومون جهال ؛ فالأولون الذين لا يبالون بلوم اللوم في ذات الله ، والقيام بأمره والدعوة إليه ، وهم الذين قال الله فيهم : (يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) ؛ فأحب الناس إلى الله من لا تأخذه في الله لومة لائم ، وكان عمر بن الخطاب ﷺ لا تأخذه في الله لومة لائم ! والنوع الثاني المذموم ؛ هو الذي يظهر ما يلام عليه شرعا من محرم أو مكروه ؛ ليكتم بذلك حاله ، وقد قال النبي ﷺ : لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه)[1] .

علاج الرياء

الرياء داء خفي وقوي يحتاج علاجه لصبر ومصابرة ومرابطة ، وعناية بالأدوية النافعة التي وردت في النصوص ، أو ذكرها علماء السلف ؛ فمن ذلك : -

١- الدعاء ؛ وهو من أعظم الأدوية ؛ عن أبي بكر ﷺ مرفوعا (الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل ، و سأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك و كباره تقول : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك و أنا أعلم ، و أستغفرك لما لا أعلم) ، رواه الحكيم الترمذي بسند صحيح[2] ،

(١) مدارج السالكين ٣ / ١٧٧- ١٧٩ (باختصار) . والحديث الذي ذكره رواه أحمد وغيره بسند صحيح ؛ ولفظه : (لاينبغي لمؤمن أن يذل نفسه ؛ يتعرض للبلاء لما لايطيق) . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٧٧٩٧) .

(٢) صحيح الجامع الصغير ، ح (٣٧٣١) .



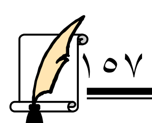
وعن أبي علي رجل من بني كاهل قال : (خطبنا أبو موسى الأشعري ﷺ فقال : يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك ؛ فإنه أخفى من دبيب النمل ! فقام إليه عبد الله بن حزن وقيس بن المضارب فقالا : والله لتخرجن مما قلت أو لنأتين عمر مأذونا لنا أو غير مأذون ! فقال : بل أخرج مما قلت ؛ خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك ؛ فإنه أخفى من دبيب النمل ! فقال له من شاء الله أن يقول : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه) . قال المنذري : رواه أحمد والطبراني ورواته إلى أبي علي محتج بهم في الصحيح ، وأبو علي وثقه ابن حبان و لم أر أحدا جرحه . ورواه أبو يعلى بنحوه من حديث حذيفة إلا أنه قال فيه يقول كل يوم ثلاث مرات[(١)] .

٢- معرفة فضل الإخلاص ؛ فالإخلاص له فضائل كثيرة ؛ تقدم ذكر كثير منها في باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب ؛ فمن عرفها لم يفرط فيها لأجل مدح الناس وثنائهم ! وأشير هنا إلى أمر مهم لم يتقدم له ذكر هناك ؛ وهو أن الإخلاص من أسباب طهارة القلب من الغل ؛ (في الصحيح من حديث أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم ؛ إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم ؛ أي لا يبقى فيه غل ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة ، بل تنفي عنه غله ، وتنقيه منه وتخرجه عنه ؛ فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل ، وكذلك يغل على الغش ، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة ؛ فهذه الثلاثة تملؤه غلا ودغلا ! ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه بتجريد الإخلاص والنصح ومتابعة السنة)[(٢)]. ولعل هذه الطهارة سبب حكمة المخلصين قال مكحول : ما أخلص عبد قط أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)[(٣)]

٣- العناية بما ورد في ذم الرياء بالعموم أو الخصوص أو المنطوق أو المفهوم ؛ ودراسته دراسة علمية إيمانية ، تورث صاحبها الحذر التام ، والاحتياط البالغ من شرك هذا الشرك الذي كان

---

(١) الترغيب والترهيب ١ / ٧٦ .
(٢) مدارج السالكين ٢ / ٩٠ .
(٣) المرجع السابق ٢ / ٩٢ .



يخشاه النبي ﷺ حتى على خيرة هذه الأمة مع علو درجاتهم في مقامات الإيمان !

إعجاب المرء بعمله

الابتلاء في العمل لا ينحصر في فساد القصد ؛ فقد يقع العمل بقصد صحيح ثم يبتلى المرء برؤية عمله بعين الاستحسان والاستعظام ، مع نسيان نعمة الله عليه وتوفيقه له ، وهذا هو العجب ؛ قال ابن منظور : (العجب الزهو ، ورجل معجب مزهو بما يكون منه حسنا أو قبيحا)[1] . وهذا الداء فتنة كثير من العلماء والعباد ؛ وهو من الثلاث المهلكات ، بل إنه أشدهن ؛ روى البزار بسند جيد[2] عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر منه العجب) ، وللبيهقي بسند حسن[3] : (لو لم تكونوا تذنبون لخفت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب ، العجب) ، وروى البيهقي أيضا بإسناد حسن[4] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ثلاث منجيات ، وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات ؛ فتقوى الله في السر والعلانية ، والقول بالحق في الرضى والسخط ، والقصد في الغنى والفقر . وأما المهلكات ؛ فهوى متبع ، وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه ؛ وهي أشدهن) ؛ وينسب إلى عيسى عليه السلام قوله : (كم سراج قد أطفأته الريح ، وكم عابد أفسده العجب) ؛ وقد يصاحب العجب دعوى استحقاق الثواب عوضا عن العمل ، أو ازدراء العالم أو العابد غيره من العلماء والعابدين ، أو تأل وإقسام على الله ؛ وهو من أخطر أنواع العجب ؛ روى الإمام أحمد بسند حسن[5] عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : (كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلَانِ ، كَانَ أَحَدُهُمَا مُجْتَهِدًا فِي الْعِبَادَةِ ، وَكَانَ الْآخَرُ مُسْرِفًا عَلَى نَفْسِهِ ، فَكَانَا مُتَآخِيَيْنِ فَكَانَ الْمُجْتَهِدُ لَا يَزَالُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى ذَنْبٍ فَيَقُولُ : يَا هَذَا أَقْصِرْ! فَيَقُولُ : خَلِّنِي وَرَبِّي ، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا ! إِلَى أَنْ رَآهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ اسْتَعْظَمَهُ فَقَالَ لَهُ : وَيْحَكَ ، أَقْصِرْ ! قَالَ : خَلِّنِي وَرَبِّي ، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا ، قَالَ :وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَبَدًا ! فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمَا مَلَكًا ؛ فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا ، وَاجْتَمَعَا فَقَالَ لِلْمُذْنِبِ :

---

(١) لسان العرب ١ / ٥٨٢ . وانظر : فيض القدير ٣ / ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

(٢) صحيح الترغيب واترهيب ، ح (٢٩٢١) .

(٣) صحيح الجامع الصغير ، ح (٥٣٠٣) .

(٤) مشكاة المصابيح ، ح (٥١٢٢) .

(٥) تخريج شرح الطحاوية ، ح (٣٦٤) .

اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي ! وَقَالَ لِلْآخَرِ : أَكُنْتَ بِي عَالِمًا أَكُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي خَازِنًا ! اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ !) . وقد وقع فيما يشبه هذا العجب أو الزهو بعض من ينتسب إلى الإسلام حتى قال بعضهم : ما تحت خضر السماء مثلي ! وقال آخر : أسرجت وألجمت وطفت في أقطار الأرض وقلت : هل من مبارز ؟ فلم يخرج أحد[1] !! والذي يخلص المرء من بلية العجب (مشاهدته لمنة الله عليه وفضله وتوفيقه له ، وأنه بالله لا بنفسه ، وأنه إنما أوجب عمله مشيئة الله لا مشيئته هو ؛ كما قال تعالى : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) ، وأنه لو خلي ونفسه لم يكن من فعله الصالح شيء ألبتة ؛ فإن النفس جاهلة ظالمة ؛ طبعها الكسل وإيثار الشهوات والبطالة ؛ وهي منبع كل شر ومأوى كل سوء ! وما كان هكذا لم يصدر منه خير ولا هو من شأنه ؛ فالخير الذي يصدر منها إنما هو من الله و به ، لا من العبد ولا به ؛ كما قال تعالى : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء) ، وقال أهل الجنة : (الحمد لله الذي هدانا لهذا) ، وقال تبارك وتعالى لرسوله ﷺ : (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا) ، وقال تعالى : (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم الآية) ؛ فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله ومنته وإحسانه ونعمته ؛ وهو المحمود عليه ! فالذي يخلص العبد من هذه الآفة معرفة ربه ومعرفة نفسه ! والذي يخلصه من دعوى استحقاق الثواب عوضا عن العمل علمه بأنه عبد محض ، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضا ولا أجرة ؛ إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته ، فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه وإحسان إليه وإنعام عليه لا معاوضة كما تزعم المعتزلة !! والذي يخلصه من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران ؛ أحدهما : مطالعة عيوبه وآفاته وتقصيره فيه ، وما فيه من حظ النفس ونصيب الشيطان ؛ فقل عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب وإن قل ! وللنفس فيه حظ ! الثاني : علمه بما يستحقه الرب جل جلاله من حقوق العبودية وآدابها الظاهرة والباطنة وشروطها ، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقها)[2] .

---

(١) انظر : فيض القدير ٣ / ٣٠٧ .

(٢) مدارج السالكين ٢ / ٩٢- ٩٤ (باختصار وتصرف) .

ثانيا : شرك الألفاظ .

من أجمع ما ورد عن السلف في شرك الألفاظ ما رواه ابن أبي حاتم بسند حسن[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في تفسير قوله تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ البقرة: ٢٢ ؛ (الأنداد : هو الشرك ، أخفى من دبيب النمل ، على صفاة سوداء في ظلمة الليل ، وهو أن تقول : والله وحياتك يا فلان ، وحياتي ، وتقول : لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص ، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص . وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت . وقول الرجل : لولا الله وفلان ، لا تجعل فيها فلانا ، هذا كله شرك) . فقد تضمن هذا الأثر ثلاثا من صور الشرك في الألفاظ :-

١- الحلف بغير الله ؛ كقول الرجل : والله وحياتك يا فلان ، وحياتي . فمن حلف بغير الله مع الله ، أو حلف بغير الله استقلالا فقد أشرك ؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما : (أنه سمع رجلا يقول : لا والكعبة ، فقال ابن عمر : لا يحلف بغير الله ؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) ، رواه الترمذي وغيره ، وإسناده صحيح[2] . وروى الطبراني بإسناد صحيح[3] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغيره وأنا صادق) ؛ فرجح الحلف بالله كاذبا على الحلف بغيره صادقا ؛ لأن الحلف بالله توحيد والحلف بغيره شرك وإن قدر الصدق في الحلف بغير الله فحسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق وسيئة الكذب أسهل من سيئة الشرك[4]. وقد ورد في النهي عن الحلف بغير الله تعالى عدة نصوص ؛ فروى البخاري وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت) ، وروى ابن ماجه بسند حسن[5] عن بريدة رضي الله عنه قال : (سمع النبي ﷺ رجلا يحلف بأبيه فقال : لا تحلفوا بآبائكم ، من حلف بالله فليصدق ، ومن حلف له بالله فليرض ، ومن لم يرض بالله فليس من الله) ، وروى أبو

---

(١) انظر : النهج السديد ، ص (٢٢٢) .
(٢) انظر : النهج السديد ، ص (٢٢٣) .
(٣) انظر : النهج السديد ، ص (٢٢٧) .
(٤) تيسير العزيز الحميد ، ص (٥٩٤) .
(٥) انظر : النهج السديد ، ص (٢٢٨) .



داود بسند صحيح[١] عن بريدة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (من حلف بالأمانة فليس منـــا) .
وأما ما رواه مسلم وغيره بلفظ (أفلح وأبيه إن صدق) فالظاهر أنه كان قبل تحريم الحلف بغـــير الله تعالى ؛ قال ابن حجر : (فإن قيل : ما الجامع بين هذا وبين النهي عن الحلف بالآباء ؟ أجيب بأن ذلك كان قبل النهي ، أو بأنها كلمة جارية على اللسان لا يقصد بها الحلف ، كما جـــرى على لسانهم عقرى ، حلقى وما أشبه ذلك ، أو فيه إضمار اسم الرب كأنه قال : ورب أبيـــه ، وقيل : هو خاص . ويحتاج إلى دليل ، وحكى السهيلي عن بعض مشايخه أنه قال : هو تصحيف ، وإنما كان والله ، فقصرت اللامان . واستنكر القرطبي هذا وقال : إنه يجزم الثقـــة بالروايـــات الصحيحة . وغفل القرافي فادعى أن الرواية بلفظ : وأبيه لم تصح ؛ لأنها ليست في الموطأ ، وكأنه لم يرتض الجواب فعدل إلى رد الخبر ، وهو صحيح لا مرية فيه ، وأقوى الأجوبة الأولان)[٢].

٢- تعليق نفع على فعل مخلوق ؛ كقول الرجل : لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص ، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص . فهذا من شرك الألفاظ ؛ لأن نعمة الحفظ من اللصوص كغيرها من الـــنعم التي يجب أن تضاف إلى المنعم الحقيقي دون غيره ؛ قال تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ النحل: ٨٣ ؛ قال عون بن عبد الله : إنكارهم إياها أن يقول الرجل : لولا فلان ما كان كذا وكذا ، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا[٣]. وروى مسلم بسنده عن زيد بن خالد الجهني ﷺ قال صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر السماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل علـــى الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ! قال قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ؛ فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأمـــا من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب) ؛ قال ابن تيمية : (هَذَا كَـــثِيرٌ جِدًّا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ؛ يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إنْعَامَهُ إلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُهُ بِهِ)[٤]. وأما إذا كان المراد بتعليق النعمة على فعل مخلوق مجرد الإخبار بسبب النعمة لا نسبتها إليه فلا حرج في ذلك[٥]

---

(١) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٦٢٠٣) .
(٢) فتح الباري ١/ ١٠٧ ، ١٠٨ . وانظر : تيسير العزيز الحميد ، ص (٥٩١- ٥٩٣) ، القول المفيد ٢ / ٣٢٦ ، ٣٢٩ .
(٣) فتح المجيد ، ص (٤٢٧) . وانظر : تيسير العزيز الحميد ، ص (٥٨٥ ، ٥٨٨) ، قرة عيون الموحدين ، ص (٢٠٣) .
(٤) مجموع الفتاوى ٨ / ٣٣ .
(٥) انظر : القول المفيد ٢ / ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٢٢ .



؛ لما رواه مسلم بسنده عن العباس بن عبد المطلب ﷺ أنه قال :(يا رسول الله ! هل نفعت أبا طالب بشيء ؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك . قال : نعم ، هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار) ، وروى مسلم أيضا بسنده عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : (لما اعتزل نبي الله ﷺ ... الحديث ، وفيه : فدخلت على حفصة بنت عمر فقلت لها : يا حفصة أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ ! والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك ، ولولا أنا لطلقك رسول ﷺ) .

٣- تسوية المخلوق بالخالق في اللفظ ؛ كقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت . أولولا الله وفلان ، روى أبو داود بسند صحيح[١] عن حذيفة ﷺ مرفوعا : (لا تقولوا : ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان)، وروى النسائي بسند صحيح[٢] عن قتيلة (أن يهوديا أتى النبي ﷺ فقال : إنكم تنددون وإنكم تشركون ؛ تقولون : ما شاء الله وشئت ، وتقولون : والكعبة . فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة ، ويقولون : ما شاء الله ثم شئت) ، وروى النسائي بسند صحيح[٣] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (جاء رجل إلى النبي ﷺ فراجعه في بعض الكلام ؛ فقال : ما شاء الله وشئت ! فقال رسول الله ﷺ : أجعلتني مع الله عدلا (وفي لفظ : ندا) ؟ ! لا بل ما شاء الله وحده) ، وروى ابن ماجة بسند صحيح[٤] عن الطفيل ﷺ أخي عائشة لأمها قال : (رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود ، قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : عزير ابن الله ! قالوا : وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد . ثم مررت بنفر من النصارى ، فقلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : المسيح ابن الله . قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد . فلما أصبحت ، أخبرت بها من أخبرت ، ثم أتيت النبي ﷺ ، فأخبرته ، قال : هل أخبرت بها أحداً ؟ قلت نعم قال : فحمد الله ، وأثني عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإن طفيلاً رأي رؤيا

---

(١) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٧٤٠٦) .
(٢) انظر : النهج السديد ، ص (٢٢٩) .
(٣) انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (١٣٩) .
(٤) انظر : النهج السديد ، ص (٢٣٠) .

أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها ، فلا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله وحده) ؛ ففي هذه النصوص الثابتة دلالة صريحة على تحريم عطف المخلوق على الخالق بحرف الواو ، لما في ذلك من التسوية والتنديد ؛ بخلاف العطف بثم التي تقتضي الترتيب والتعقيب ، وفيها مع ذلك دلالة على عدة أمور ؛ منها :-

أ- نص النبي ﷺ على أن هذه الكلمة من التنديد ، وإقرار اليهودي على اعتبارها من الشرك دليل على خطورة هذه الكلمة وما يجري مجراها ؛ لأن المحرمات الشركية أغلظ من غيرها ؛ ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه (لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغيره وأنا صادق) .

ب- أن هذا الحكم لا يختص بهذه الألفاظ ، بل يعم كل ما تضمن تسوية وتنديدا مثلها ؛ قال إبراهيم النخعي : (يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك ، ويجوز أن يقول : أعوذ بالله ثم بك . ويقول : لولا الله ثم فلان ، لا تقولوا : لولا الله وفلان)[1] . والكراهة في كلام السلف بمعنى التحريم . وهذه الأدلة تدل بطريق الأولى على تحريم ما هو أعظم من هذه الكلمة في تسوية المخلوق بالخالق ؛ قال ابن القيم : (ومن الشرك به سبحانه الشرك به في اللفظ ؛ كالحلف بغيره ، وقول القائل للمخلوق : ما شاء الله وشئت ، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال له رجل : ما شاء الله وشئت قال : أجعلتني لله ندا ! قل : ما شاء الله وحده ! وهذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله لمن شاء منكم أن يستقيم فكيف من يقول : أنا متوكل على الله وعليك ، وأنا فى حسب الله وحسبك ، ومالى إلا الله وأنت ، وهذا من الله ومنك ، وهذا من بركات الله وبركاتك ، والله لى فى السماء وأنت لي فى الأرض ، ويقول : والله وحياة فلان ، أو يقول : نذرا لله ولفلان ، وأنا تائب لله ولفلان ، أو أرجوا الله وفلانا ، ونحو ذلك ، فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل : ما شاء الله وشئت ، ثم انظر أيهما أفحش يتبين لك أن قائلها أولى لجواب النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة ، وأنه إذا كان قد جعله ندا لله بها فهذا قد جعل من لا يداني رسول الله ﷺ في شيء من الأشياء ، بل لعله أن يكون من أعدائه ندا لرب العالمين !)[2] . وقد نبه المؤلف إلى فحوى هذه النصوص فقال في مسائل الباب : قوله ﷺ : أجعلتني لله ندا ، فكيف بمن قال : مالي من ألوذ به

---

(١) فتح المجيد ، ص (٤٣٣) .

(٢) الجواب الكافي ، ص (٩٣) باختصار يسير .

سواك ، والبيتين بعده [١]!

ج- لا تعارض بين ما ذكره المؤلف من روايات ؛ فحديث (قولوا : ما شاء الله وحده) محمول على الأكمل ، وحديث : (قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان) لبيان الجواز .

د- في هذه الأحاديث دلالة واضحة على أن شرك الألفاظ من الشرك الأصغر ؛ إذ لو كانت من الأكبر لأنكرها من أول مرة قالوها[٢]. وقد نبه المصنف لذلك بقوله في مسائل الباب : (هذا ليس من الشرك الأكبر ؛ لقوله يمنعني كذا وكذا)[٣] . ولكن ينبغي التنبه إلى أن هذه الألفاظ قد يقترن بها ما يجعلها من الشرك الأكبر ؛ كمن كان الحلف بغير الله جهد يمينه ؛ قال سليمان بن عبد الله : (الذي يفعله عباد القبور إذا طلبت من أحدهم اليمين بالله أعطاك ما شئت من الإيمان ، صادقا أو كاذبا ، فإذا طلبت منه اليمين بالشيخ أو تربته أو حياته ونحو ذلك لم يقدم على اليمين بـــه إن كان كاذبا ، فهذا شرك أكبر بلا ريب ؛ لأن المحلوف به عنده أخوف وأجل وأعظم مـــن الله ، وهذا ما بلغ إليه شرك عباد الأصنام ؛ لأن جهد اليمين عندهم هو الحلف بالله ، كما قـــال تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) ؛ فمن كان جهد يمينه الحلف بالشـــيخ أو بحياته أو تربته فهو أكبر شركا منهم)[٤] .

******

(١) كتاب التوحيد مع فتح المجيد ، ص (٤٤٠) .
(٢) انظر : تيسير العزيز الحميد ، ص (٦٠٦) .
(٣) كتاب التوحيد مع فتح المجيد ، ص (٤٤٠) .
(٤) انظر : تيسير العزيز الحميد ، ص (٥٩٣ ، ٥٩٤) .

مظاهر الشرك

للشرك مظاهر في المجتمع ، وصور في الواقع ، قد لا يعلم كثير من الناس شدة خطرها وعظم ضررها ، وربما التبست على بعضهم فظن أنها من الحق لا من الباطل ؛ كما في كثير من صور الرقى ومظاهر التبرك ، أو ظن أنها من كرامات أولياء الرحمن لا من خوارق أولياء الشيطان ، وأعمال السحرة والكهان . وقد عني المؤلف رحمه الله بتتبع هذه المظاهر الشركية فذكر من ذلك الأمور التالية :-

أولا : الرقى الممنوعة والتمائم .

الرقى جمع رقية ؛ وهي عوذ ودعوات تقرأ على المريض ، أو تقرأ في ماء ، أوتكتب ثم تمحى بماء يسقاه المريض . وقد دلت النصوص على جوازها إذا تجردت من الشرك ؛ روى مسلم بسنده عن عوف بن مالك ﷺ مرفوعا : (اعرضوا علي رقاكم ، لابأس بالرقى مالم يكن فيها شـــرك) .

واشترط العلماء تحقيقا للبراءة من الشرك ثلاثة شروط لجواز الرقية :-

١- أن تكون بكلام الله تعالى ، أو بأسمائه وصفاته ؛ لتكون بريئة من الشرك . والأولى الاقتصار على الأدعية المأثورة .

٢- أن تكون باللسان العربي المفهوم ، أو بما يعرف معناه من غيره . قـــال ابـــن حجـــر : (دل حديث عوف أنه مهما كان من الرقى يؤدي إلى الشرك يمنع ، وما لايعقل معنـــاه لا يـــؤمن أن يؤدي إلى الشرك فيمنع احتياطا)[1] .

٣- أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها ، بل بتقدير الله تعالى ؛ فتأثيرها منوط بمشيئة الله ، إن شـــاء أبقى تأثيرها ؛ لبيان كمال حكمته ، وإن شاء صرفها لبيان كمال قدرته .

وعلى هذا فالرقى الممنوعة ما تخلف فيها شرط أو أكثر من هذه الشـــروط ؛ كـــالرقي بأسمـــاء الشياطين ، أو بلغة غير مفهومة ، وكالرقى التي يصاحبها اعتماد قلبي على الرقية ، أو اعتقاد بأنها ذاتية التأثير .

وأما التمائم فهي اسم جامع لكل مايعلقه الإنسان على نفسه أو غيره ؛ لرفع الـــبلاء أو دفعـــه ؛

---

(١) فتح الباري ١٠/ ١٩٥ .

كالودع ، والأوتار ، والحلق ، والخرز ، والخيوط ، وغير ذلك مما يعلق ؛ لدفع أو رفع العين ، أو أذى الجن أو المرض ونحو ذلك . والتمائم نوعان :-

١- نوع مختلف في حكمه ؛ وهو ما كان من القرآن ، أو بأسماء الله وصفاته ، فقد ذهب عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما إلي جواز هذه التمائم وهو ظاهر ما نقل عن عائشة رضي الله عنها ، وبه قال أحمد في رواية ؛ قياسا على الرقية فكما أن الرقية تجوز بالقرآن والسنة فكذلك التميمة . وذهب حذيفة وابن مسعود وابن عباس وعقبه بن عامر رضي الله عنهم إلى المنع . وعلى هذا أصحاب ابن مسعود ﷺ ، قال إبراهيم النخعي : (كانوا يكرهون التمائم كلها ، من القرآن وغير القرآن) ؛ أي أصحاب بن مسعود ؛كعلقمه والأسود وعبيدة السلماني ، وهو الأظهر لعموم قوله ﷺ : (إن الرقى والتمائم والتوله شرك)[1] ، ولأن الرقى قد خص الدليل من عموم تحريمها كل رقيه خلت من الشرك بخلاف التميمة فلا مخصص لعموماتها ، وأيضا صيانة للقرآن ، وسدا لذريعة الشرك .

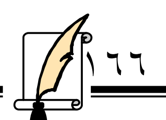
٢- نوع متفق على تحريمه ؛ وهو كل تعليق اشتمل على شرك أو احتمله . وقد دلت النصوص على تحريم هذا النوع ، وذمه والتحدير منه بطرق كثيرة ؛ منها :-

أ- نصوص تدل على إبطال تعلق القلب بغير الله تعالى في جلب نفع أو دفع ضر ؛كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ الزمر: ٣٨ ، فدلت الآية بمنطوقها على بطلان الشرك الأكبر ، وبمفهومها الموافق على بطلان الشرك الأصغر ، بما في ذلك لبس التمائم بانوعها ، ولهذا كان السلف يستدلون بما نزل في الشرك الأكبر على الأصغر .

ب- نصوص تدل على معاملة صاحب التميمة بنقيض قصده روى الإمام أحمد بسند جيد[2] عن عقبة بن عامر ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له) ؛ أي لاجعله في دعة وسكون ، بل حرك عليه كل مؤذ ؛ معاملة له بنقيض قصده ، لأن صاحب هذه التعاليق يوكل إليها ؛ كما في حديث عبد الله بن عكيم ﷺ

(١) رواه أحمد وغيره بسند صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (١٦٣٢) .

(٢) انظر : الترغيب والترهيب ٤ / ٣٠٦ .



مرفوعا : (من تعلق شيئا وكل إليه)[١] ؛ فمن تعلق بالله كفاه ويسر له كل عسير ، ومن تعلق بغيره أو سكن إلى دواءه وتمائمه وكله الله إلى ذلك وخذله[٢] .

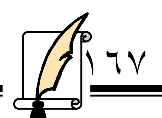
ج- أن تعليق التمائم من الشرك ؛ روى الإمام أحمد بسند حسن[٣] عن عقبة بن عامر ﷺ مرفوعا : (من تعلق تميمة فقد أشرك) ، وروى أبوداود وغيره بسند صحيح[٤] عن ابن مسعود ﷺ مرفوعا : (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) . أي شرك أصغر ؛ ومحل ذلك إذا اعتقد صاحبها أنها سبب للسلامة من العين أو الجن ونحو ذلك ، فإن اعتقد أنها تنفع وتضر من دون الله ، أو اشتملت تميمته على استغاثه بأسماء الجن أو الشياطين فهي من الشرك الأكبر .

د- أن التمائم من المنكرات التي ينبغي محاربتها والتغليظ في إنكارها واحتساب الأجر العظيم في إنقاذ الناس من شركها ؛ ففي الصحيح عن أبي بشير الأنصاري ﷺ أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره فأرسل رسولا : (أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر ، أو قلادة إلا قُطِعَتْ) ، وروى الإمام أحمد بسند صحيح[٥] عن رويفع ﷺ قال : قال لي رسول الله ﷺ : (يا رويفع ، لعل الحياة تطول بك ، فأخبر الناس أن من عقد لحيته ، أو تقلد وترا ، أو استنجى برجيع دابة ، أو عظم ، فإن محمدا بريء منه) ، وقال سعيد ابن جبير : (من قطع تميمة من إنسان كان كَعِدْل رقبة) ، وذلك لأنه مستعبد للشيطان فإذا قطعها فقد أعتقه من رق الشيطان[٦] .

ثانيا : التبرك الممنوع .

التبرك يعني التماس البركة ، وطلبها فيما يعتقد أنه مبارك من المعاني والأعيان . والبركة تعني حصول الخير ، وثبوته ، وكثرته وزيادته . والبركة أو الخير كلها بيد الله وحده ؛ قال تعالى :
﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

(١) رواه أحمد وغيره بسند حسن . انظر : النهج السديد ، ص (٦٢) .
(٢) فتح المجيد ، ص (١٤١) (باختصار) .
(٣) انظر : النهج السديد ، ص (٥٧) .
(٤) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (١٦٣٢) .
(٥) انظر :النهج السديد ، ص (٦٢) .
(٦) انظر في الرقى والتمائم : فتح المجيد ، ص (١٢٧- ١٤٤) ، حاشية ابن قاسم ، ص (٧٤- ٨٩) ، القول السديد ، ص (٤١- ٤٧) ، القول المفيد ١ / ١٥٩- ١٩٠ ، الوعد الأخروي ٢ / ٨٣٤- ٨٤٩ .



قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ آل عمران: ٢٦ ، وقال ﷺ : (لبيك وسعديك ، والخير كله في يديك) رواه مسلم ، وعن ابن مسعود ﷺ (كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقل الماء ، فقال : اطلبوا فضلة من ماء ، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل ، فأدخل يده في الإناء ، ثم قال : حي على الطهور المبارك ، والبركة من الله ، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ) رواه البخاري ؛ ولهذا فإن البركة لا تطلب إلا من الله وحده ، ولا ترجى إلا فيما جعله الله مباركا ، وبالطريقة الشرعية ؛ والمبارك من المعاني والأعيان على أنواع :-

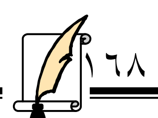
الأول : ذكر الله وكلامه ؛ فذكر الله تعالى أعظم ما تلتمس منه البركة ؛ قال تعالى : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ الأنعام: ١٥٥ ، وقال : ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ الأنبياء: ٥٠ ، وقال : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ص: ٢٩ ، وقال ﷺ : (اجتمعوا على طعامكم ، واذكروا اسم الله عليه ، يبارك لكم فيه)[1]. والتبرك بكلام الله تعالى يكون بقراءته وتدبره واتباعه والاستشفاء به بالطرق الشرعية . فيخرج عن دائرة التبرك المشروع بكلام الله تعليق التمائم التي من القرآن على الراجح من قولي العلماء ، وكذلك وضع المصحف في مكان من البيت تبركا به ، وكتابة آيات من القرآن على الجدران أو الثياب تبركا بها. وأما كتابة آيات من القرآن على البدن فقد ذكر ذلك ابن القيم عن ابن تيمية ؛ وأنه كان يكتب للرعاف على الجبهة ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ هود: ٤٤ ، ويقول : كتبتها لغير واحد فبرأ . وذكر أنه يكتب للحزاز ﴿ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾البقرة: ٢٦٦ . وذكر كتبا أخرى للخراج وغيره ، فالله أعلم[2] .

الثاني : الرسول ﷺ . فالرسول ﷺ أعظم الخلق بركة ؛ وبركاته حسية ومعنوية ؛ فالمعنوية كعموم رسالته ، وكثرة آياته وأتباعه ، ويسر شريعته ، وتفضيل أمته على الأمم . والحسية إما في أفعاله أو ذاته أو آثاره ؛ فالبركة في أفعاله ؛ كنبع الماء من بين أصابعه ، وإجابة دعائه في تكثير الطعام وشفاء الأسقام وغير ذلك . روى مسلم بسنده عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد ﷺ شك الأعمش قال : (لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة قالوا : يا رسول الله ،

---

(١) رواه أبوداود وغيره بسند حسن . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (١٤٢) .

(٢) انظر : زاد المعاد ٤ / ٣٥٨ ، ٣٥٩ .



لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا ، فأكلنا وادهنا فقال رسول الله : ﷺ افعلوا ، فجاء عمر فقال : يا رسول الله إن فعلت قل الظهر ، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك . فقال رسول الله ﷺ : نعم ، قال فدعا بنطع فبسطه ، ثم دعا بفضل أزوادهم ؛ فجعل الرجل يجيء بكف ذرة ، ويجيء الآخر بكف تمر ، ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير ! قال فدعا رسول الله ﷺ بالبركة ، ثم قال : خذوا في أوعيتكم ؛ فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملئوه ، فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة فقال رسول الله ﷺ : أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة) .

والتبرك بذات النبي ﷺ ؛ كما فعل الصحابة رضي الله عنهم ؛ فقد كانوا يتبركون بذاته ﷺ في حياته ، ويحرصون على مس أي موضع من جسده الشريف كلما أمكن ذلك ؛ روى البخاري بسنده عن أبي جحيفة ﷺ : (قال خرج رسول الله ﷺ بالهاجرة إلى البطحاء ، فتوضأ ثم صلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين ... الحديث ، وفيه : وقام الناس فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بها وجوههم ، فأخذت بيده فوضعتها على وجهي فإذا هي أبرد من الثلج ، وأطيب رائحة من المسك) . وروى مسلم بسنده عن أنس بن مالك ﷺ قال : (كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء ، فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيها ، فربما جاءوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها) .

أما التبرك بآثاره ﷺ ؛ كشعره ، وعرقه ، وفضل شرابه ، ووضوئه فدليله مارواه مسلم بسنده عن أنس ﷺ قال : (لقد رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه ، وأطاف به أصحابه فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل) ، وروى بسنده عن أنس بن مالك ﷺ قال : (كان النبي ﷺ يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها وليست فيه ، فجاء ذات يوم فنام على فراشها فأتيت ، فقيل لها : هذا النبي ﷺ نام في بيتك على فراشك ، فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش ففتحت عتيدتها ، فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها ، ففزع النبي ﷺ فقال : ما تصنعين يا أم سليم ؟ فقالت : يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا . قال أصبت) ، وفي الصحيحين عن سهل بن سعد ﷺ (أن رسول الله ﷺ أتي بشراب ، وعن يمينه غلام وعن يساره أشياخ ، فقال للغلام : أتأذن لي أن أعطي هؤلاء ؟ فقال الغلام : لا والله لا أوثر بنصيبي منك أحدا ، فتله في يده) ، وفيهما أيضا عن أبي جحيفة ﷺ قال : (خرج علينا رسول الله ﷺ



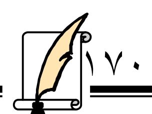
بالهاجرة ، فأتي بوضوء فتوضأ ، فجعل الناس يأخذون من فضل وضوئه ؛ فيتمسحون به) . وقد استمر التبرك بآثاره ﷺ بعد مماته زمنا طويلا ؛ ففي صحيح مسلم أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت : (هذه جبة رسول الله ﷺ فأخرجت إلي جبة طيالسة ، كسروانية ، لها لبنة ديباج وفرجيها مكفوفين بالديباج ، فقالت : هذه كانت عند عائشة حتى قبضت ، فلما قبضت قبضتها وكان النبي ﷺ يلبسها ، فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها) ، وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن موهب قال : (أرسلني أهلي إلى أم سلمة زوج النبي ﷺ بقدح من ماء.. فيه شعر من شعر النبي ﷺ ، وكان إذا أصاب الإنسان عين أو شيء بعث إليها مخضبه) ، وقد حرص السلف على اقتناء آثاره ، والتبرك بها ، وأوصى بعضهم أن تدفن معه ؛ لهذا ، ولكثرة الفتن ، وطول العهد فقد معظمها وكان من آخرها البردة والقضيب التي أحرقها التتار عندما غزوا بغداد ؛ قال ابن كثير : (توارث بنو العباس هذه البردة خلفا عن سلف ، كان الخليفة يلبسها يوم العيد على كتفيه ، ويأخذ القضيب في إحدى يديه ؛ فيخرج ، وعليه من السكينة والوقار ما يصدع به القلوب ، ويبهر به الأبصار)[1] .

وهذا الضابط في التبرك المشروع بالنبي ﷺ يخرج صورا من التبرك شاعت بين الناس وهي ليست بمشروعة ؛ منها : -

١- التبرك بمقامات النبي ﷺ ؛ وهي المواضع التي نزلها النبي ﷺ اتفاقا لا قصدا للعبادة فيها فإنه لا يشرع التبرك بها عند جماهير السلف ؛ عن المعرور بن سويد قال : (خرجنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فعرض لنا في بعض الطريق مسجد ، فابتدره الناس يصلون فيه ، فقال عمر : ما شأنهم ؟ فقالوا : هذا مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ فقال عمر : أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم مثل هذا حتى أحدثوها بيعا ، فمن عرضت له فيه صلاة فليصل ، ومن لم تعرض له فيه صلاة فليمض) ؛ قال ابن تيمية : (لما كان النبي ﷺ لم يقصد تخصيصه بالصلاة فيه بل صلى فيه لأنه موضع نزوله ، رأى عمر أن مشاركته في صورة الفعل من غير موافقة له في قصده ليس متابعة ، بل تخصيص ذلك المكان بالصلاة من بدع أهل الكتاب ؛ ففاعل ذلك متشبه بالنبي ﷺ في الصورة ، ومتشبه بأهل الكتاب في القصد ، والمتابعة في القصد أبلغ من المتابعة في صورة

---

(١) البداية والنهاية ٦ / ٨ .



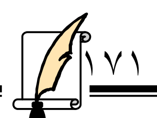
العمـــــل)[١] . وأما ما ثبت عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يتحرى قصد كل مكـــان صلى فيه النبي ﷺ فيصلي فيه فهذا حرص على بركة الاقتداء لا على بركة المكان ، وأين هذا مما يفعله كثير من الناس من تحر للدعاء ومسح وتقبيل لهذه المقامات المزعومة ؛ كما يفعل عند أثـــر القدم أو الكف أو المرفق أو مكان الولادة أو غير ذلك !! ولو سلمنا أن ابن عمـــر رضـــي الله عنهما قصد التبرك فقول الصحابي إذا خالفه نظيره فليس بحجة فكيف إذا انفرد به عن جمـــاهير الصحابة . فإن قيل شاركه سلمة بن الأكوع ﷺ في تحري هذه المواضع ! قلنـــا : هـــذا لـــيس بصحيح ؛ لأن سلمة كان يتحرى الصلاة في موضع تحرى النبي ﷺ الصلاة عنده و لم يصل فيـــه اتفاقا ؛ فعن يزيد بن أبي عبيد قال كنت آتي مع سلمة بن الأكوع ﷺ فيصلي عند الأســـطوانة التي عند المصحف ، فقلت : يا أبامسلم ، أراك تتحرى الصلاة عند هذه الأسطوانة ؟ قال : فإني رأيت النبي ﷺ يتحرى الصلاة عندها) رواه البخاري .

٢- التبرك بقبر النبي ﷺ فإنه لا يشرع التبرك به ؛ فلا يشرع تحري الدعاء أو الصلاة عنـــده ، أو التمسح بالقبر الشريف أو تقبيـــله ؛ ففي الصحيح عن عائشـــة رضي الله عنها عن النـــبي ﷺ أنه قال في مرضه الذي مات فيه : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مســـجدا) ؛ والصلاة عند القبر من ذلك ، إذ كل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدا ، وروى أبـــو داود بسند صحيح[٢] عن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : (لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبري عيدا ، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم) ؛ وتحري الدعاء عنـــد القـــبر الشريف من اتخاذه عيدا ؛ كما يدل لذلك ماورد عن علي بن الحسين (أنَّه رأَى رجلًا يَجيءُ إلى فُرجةٍ كانت عند قبرِ النَّبيِّ ﷺ فيدخلُ فيها فيدعو ، فدعاه فقال : ألا أُحدِّثُك بحديثٍ سمِعتُه مـــن أبي عن جدِّي رسولِ اللهِ ﷺ ؟ قال : لا تتَّخِذوا قبري عيدًا ، ولا بيوتَكم قبورًا ، وصلُّوا عليَّ ، فإنَّ صلاتَكم وتسليمَكم تبلُغُني حيثما كنتم) . وأما ماروي عن عائشة رضي الله عنها من فـــتح الكوة من قبره ﷺ إلى السماء ليترل المطر فمطروا ، وسمي ذلك العام عام الفتيـــق ؛ لأن الإبـــل

---

(١) مجموع الفتاوى ١ / ٢٨١ . (باختصار) .

(٢) صحيح الجامع الصغير ، ح (٧٢٢٦) .

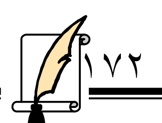


سمنت حتى تفتقت شحما !! ففي إسناده محمد بن زباله ، وهو ضعيف ، لا يعارض الثابت عن الصحابة في الاستسقاء ؛ قال ابن تيمية : (الصحابة في زمن عمر وغيره صلوا ، واستشفعوا بالعباس وغيره ، ولم يكشفوا عن قبره ، ولو كان مشروعا لما عدلوا عنه ، وهذا العلم العام المتفق عليه لا يعارض بما يرويه ابن زبالة وأمثاله ممن لا يجوز الاحتجاج به)[١] .

٣- التبرك بالصالحين ؛ قياسا على التبرك بالنبي ﷺ ؛ فقد رأى بعض أهل العلم أنه يشرع التبرك بذوات الصالحين وآثارهم قياسا على النبي ﷺ ! وذكروا أن الإمام الشافعي تبرك بغسالة ثوب الإمام أحمد !! وهذه القصة لا تصح عن الشافعي ؛ كما نص على ذلك الذهبي[٢] . وهي تخالف المعروف عن الصحابة رضي الله عنهم ؛ فإنهم لم يتبركوا بغير النبي ﷺ لا في حال حياته ولا بعد مماته ؛ فلم يفعلوا ذلك مع الخلفاء الراشدين ، ولا مع بقية العشرة المبشرين بالجنة ، ولامع غيرهم من كبار الصحابة ؛ لعلمهم أن ذلك خاص بالأنبياء والمرسلين لا يتعداهم إلى غيرهم ! وأيضا لا يشرع هذا التبرك سدا لذريعة الشرك ؛ فإن العامة لا تقتصر في ذلك على حد كما يصدق ذلك الواقع ؛ فقد انجر ذلك بكثير من العامة إلى الغلو فيمن يتبركون به من الصالحين ، واتسع الأمر حتى تبركوا بقبورهم ؛ كما يفعل عند قبر الحسين ، وأبي أيوب ، وأبي حنيفة وغيرهم ؛ من تحر للدعاء والعبادة ، وتمسح بها وتقبيل لها ، وعكوف عندها ، وطواف حولها ، واستشفاء بتربتها !! ومع ذلك فكثير من الناس يدافع عن هذا التبرك بحجة أن كثيرا ممن دعا الله عند هذه المشاهد استجيب له ! وذكروا عن الشافعي أنه كان يقول : إذا نزلت بي شدة أجيء فأدعو عند قبر أبي حنيفة فأجاب !! وهذا كذب على الشافعي فإنه لما قدم بغداد لم يكن آنذاك قبر أبي حنيفة ينتاب للدعاء عنده ألبتة !! وأما إجابة الدعاء فإنما يستجاب لهم في النادر ابتلاء واختبارا ، وقد يكون سببه اضطرار الداعي ، وصدق التجائه ، والله يجيب المضطر والمظلوم ولوكان فاجرا أوكافرا ! قال ابن أبي العز : (إجابة الله لدعاء العبد مسلما كان أو كافرا ، وإعطاؤه سؤله من جنس رزقه لهم ونصره لهم ، وهو مما توجبه الربوبية للعبد مطلقا ، ثم قد يكون ذلك فتنة في حقه ومضرة عليه

(١) الرد على البكري ١ / ٩١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢ / ٥٨٧ ، ٥٨٨ .



إذ كان كفره وفسوقه يقتضي ذلك)[١] .

الثالث : البقاع المباركة ؛ كمكة والمدينة والمسجد الأقصى والشام ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ آل عمران: ٩٦ ، وقال : ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾الأعراف: ١٣٧ ، وقال : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ الإسراء: ١ ، وقال ﷺ : (اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما بمكة من البركة) رواه مسلم ، وقال ﷺ : (اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا ، قالوا : وفي نجدنا ، قال : اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا ، قالوا : وفي نجدنا ، قال : هناك الزلازل والفتن ، وبها يطلع قرن الشيطان) رواه البخاري . وقد تجاوز كثير من الناس الحد المشروع في التبرك بالبقاع ، وأحدثوا التبرك ببقاع لم يرد بها دليل من كتاب ولا سنة ؛ كمسجد الراية ، والغمامة ، وكجبل حراء ، والطور ، وجبل لبنان ، وغيرها كثير[٢] .

الرابع : الأزمنة المباركة ؛كرمضان وليلة القدر وعشر ذي الحجة ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ ﴾ الدخان: ٣ ، وقال ﷺ : (أتاكم شهرُ رمضانَ ، شهرٌ مبارَكٌ ، فرض اللهُ عليكم صيامَه ، تفتحُ فيه أبوابُ الجنَّةِ ، و تُغلَق فيه أبوابُ الجحيم ، وتُغَلُّ فيه مَرَدَةُ الشياطينِ ، وفيه ليلةٌ هي خيرٌ من ألف شهرٍ ، من حُرِمَ خيرَها فقد حُرِمَ)[٣]. وقال ﷺ : (ما العمل في أيام أفضل منه في عشر ذي الحجة ؛ ولا الجهاد في سبيل الله ، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله ، فلم يرجع من ذلك بشيء)[٤] . وقد أحدث كثير من الناس التبرك بأزمنة لم يرد في التبرك بها كتاب ولا سنة ؛ كليلة المولد ، وليلة الإسراء والمعراج ، وذكرى الهجرة ، وغير ذلك[٥] .

الخامس : المبارك من النعم ؛كالمطر والزيتون والنخل والخيل والغنم والسحور ؛ قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ ﴾ ق: ٩ ، وقال : ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾ النور:

---

(١) شرح الطحاوية ، ص (٤٥٩) .
(٢) انظر : التبرك ، أنواعه وأحكامه ، ص (٤٢٦- ٤٦١) .
(٣) رواه أحمد وغيره بسند صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٥٥) .
(٤) رواه أبوداود وغيره بسند صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٥٥٤٨) .
(٥) انظر : التبرك ، أنواعه وأحكامه ، ص (٣٥٩- ٣٨١) .

٣٥ ، وقال ﷺ : (كُلوا الزيتَ وادَهِنوا به فإنه من شجرةٍ مباركةٍ)[١]، وقال ﷺ : (إن من الشجر لما بركته كبركة المسلم ... فقال النبي ﷺ هي النخلة) رواه البخاري ؛ وقال ﷺ : (البركة في نواصي الخيل) رواه البخاري ، وقال ﷺ : (اتخذوا الغنم فإنها بركة)[٢]، وقال ﷺ : (تسحروا فإن في السحور بركة)[٣]. وقد تنشأ البركة في النعم لدعوة مستجابة أو صفة محمودة ؛ قال ﷺ : (اللهم بَارك لأمتي في بكورها)[٤]، وقال ﷺ : (البَيِّعانِ بالخِيارِ ما لم يتفرَّقَا فإن صَدَقَا وبَيَّنَا بُورِكَ لهما في بيعِهما ، وإن كَتَمَا وكَذَّبَا مُحِقَتْ بركةُ بيعِهما) رواه البخاري ، وقال ﷺ : (إنَّ هذا المالَ خِضِرٌ حلوٌ ، فمن أخذَهُ بسخاوةِ نفسٍ بُورِكَ لهُ فيهِ ، ومن أخذَهُ بإشرافِ نفسٍ لم يُبَارَكْ لهُ فيهِ ، وكان كالذي يأكلُ ولا يشبَعُ) رواه البخاري .

فينبغي للمسلم أن يحرص على التماس البركة فيما دل الشرع على أنه مبارك من الأعيان والمعاني ، وبالصفة الشرعية التي شرعت في التبرك بكل واحد منها ، وقد أدى التفريط في هذا الجانب إلى كثير من البدع التي تدرج الشيطان بكثير من أهلها إلى شرك الجاهلية الأولى ؛ قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ النجم: ١٩ - ٢٠ ؛ قال عبدالرحمن بن حسن : (التبرك بقبور الصالحين كاللات ، وبالأشجار كالعزى ومناة من ضمن فعل أولئك المشركين مع تلك الأوثان ؛ فمن فعل مثل ذلك واعتقد في قبر أو حجر أو شجر فقد ضاهى عباد هذه الأوثان فيما كانوا يفعلونه معها من هذا الشرك)[٥]، وروى الترمذي بسند صحيح[٦] عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط ، يعلقون عليها أسلحتهم ، فقالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال النبي ﷺ سبحان الله ! هذا كما قال قوم موسى ؛ اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم) ؛ قال ابن تيمية : (أما العكوف والمجاورة عند شجرة أو حجر تمثال أو غير تمثال ،

---

(١) رواه الترمذي بسند صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٤٤٩٨) .
(٢) رواه الطبراني وغيره بسند صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٨٢) .
(٣) رواه أحمد وغيره بسند صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٢٩٤٣) .
(٤) رواه أحمد وغيره بسند صحيح . انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (١٣٠٠) .
(٥) فتح المجيد ، ص (١٤٧) .
(٦) انظر : النهج السديد ، ص (٦٤) .

أو العكوف والمجاورة عند قبر نبي أو غير نبي ، أو مقام نبي أو غير نبي فليس هذا من دين المسلمين بل هو من جنس دين المشركين)[١]، وقال : (وأما الأشجار والأحجار والعيون ونحوها مما ينذر لها بعض العامة ، أو يعلقون بها خرقا ، أو غير ذلك ، أو يأخذون ورقها يتبركون به ، أو يصلون عندها ، أو نحو ذلك ، فهذا كله من البدع المنكرة ، وهو من عمل أهل الجاهلية ، ومن أسباب الشرك بالله تعالى)[٢] .

ثالثا : التطير (التشاؤم) .

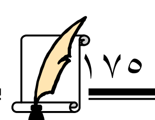
التطيّر هو التشاؤم بمرئيّ ، أو مسموع ، أو معلوم ؛ كطير ، أو بقعةٍ ، أو اسم ، أو لفظ ، أو يوم ، أو شهر . وأصله التطيّر بالسوانح والبوارح من الطّير والظِّباء ، وإنّما غلب اسم الطّير لأوليته ، أو لخفّته ، أو لأنّ ما كان يقع في قلوبهم بسببه أقوى ممّا كان يقع فيها بسبب الظِّباء . ثُمَّ كثر استعمال التطيّر ، وتوسّع في مدلوله حتَّى أصبح اسمًا لكلّ تشاؤم بقطع النّظر عن متعلّقه من طير أو غيره .

والطِّيَرَةُ من أمر الجاهليّة لا الإسلام ؛ قال تعالى : ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [النّمل : ٤٧] ، وقال : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣١] ، وقال : ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ [يس : ١٨ ــ ١٩] ؛ أي معتدون متجاوزون بجهلكم ما لم يكن حقّه أن يتجاوز من الإذعان للحقّ ، والإيمان بعموم القدر ، وإثبات أسباب الخير والشرّ كما هي في الواقع ونفس الأمر ؛ فالخير والشرّ ، واليُمن والشؤم ، والخصب والجدب ، والحسنات والسيئات كلّها من عند اللّه تعالى ؛ أي بما يقدّره على عباده بسبب أعمالهم لا بما يتوهّمونه ويتطيّرون به من الذّوات والمعاني ؛ ولهذا أضاف ما أصابهم لنفسه إضافة تقدير وخلق ، وأضافه إليهم إضافة سبب وفعل ؛ لأنّ طائر الباغي الظّالم معه تسبّبًا

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢ / ٨١٨ .

(٢) مجموع الفتاوى ٢٧ / ١٣٦ ، ١٣٧ . وانظر في موضوع التبرك : فتح المجيد ، ص (١٤٥- ١٥٣) ، حاشية ابن قاسم ، ص (٩٠- ٩٥) ، القول المفيد ١/ ١٩١- ٢١٤ ، وانظر : التبرك أنواعه وأحكامه كاملا ؛ فقد كان المرجع الرئيس في موضوع التبرك .



وكسبًا ، وإن كان من عند اللّه تقديرًا وخلقًا . وأمّا قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴾ [القمر : ١٩] ؛ فلا يناقض ما أبطلته هذه النّصوص من الطِّيَرَةِ ؛ لأنّ المراد بيان أنّ هذا اليوم كان نحسًا على قوم عاد بخصوصهم ؛ لكفرهم وكبرهم ، لا إثبات الشؤم في ذات اليوم ونفسه ، بحيث يستمرّ شؤمه على جميع الخلق في جميع الزّمن ؛ وإلاّ للزم أن تكون كلّ الأيّام شؤمًا ؛ لأنّ الرِّيح استمرّت عليهم ثمانية أيّام متتابعات ، وقد وصفت بما وصف به هذا اليوم ، قال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾ [فصّلت : ١٦] ؛ أي نحسات عليهم خاصّة لا على الخلق كافّة ، يقول ابن كثير : (معلوم أنّها ثمانية أيّام متتابعات ، فلو كانت نحسات في أنفسها لكانت جميع الأيّام السّبعة المندرجة فيها مشؤومة ، وهذا لا يقوله أحد ، وإنّما المراد في أيّام نحسات ؛ أي عليهم)[1] .

وكذلك الشأن فيما يذكر ويؤثر من أن مبتدأ عذاب عاد قوم هود كان يوم الأربعاء ؛ فهو لذلك يوم نحس مستمر ؛ إمّا مطلقًا ، أو بقيد كونه آخر أربعاء في الشّهر ! فهذا كلّه لا حجّة فيه على إثبات ما أبطلته النّصوص من الطِّيَرَة ؛ لأمرين : ـــ

أحدهما : أنّه ليس على ابتداء عذابهم دليل ثابت ، وإنّما هو مجرّد قول ذكره بعض المفسِّرين يعارضه قول من ذكر أن ابتداءه كان يوم الجمعة .

والثّاني : أنّ الأخبار الواردة في شؤم يوم الأربعاء تروى بأسانيد ضعيفةٍ أو واهية ، ومن العلماء من حكم على بعضها بالوضع ؛ كابن الجوزي ، وابن رجب ، وابن حجر ، وغيرهم .

وأهمّ ما يدلّ على بطلان هذه الأخبار وفساد الاستدلال على إثبات الشؤم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴾ [القمر : ١٩] منافاة ما يتوهّم من دلالاتها لما جاءت به الشّريعة من إثبات القدر خيره وشرّه ، وإبطال ما يعارضه من التطيّر بالمرئيات والمسموعات ، واعتباره شركًا ووهمًا في نفس المتطيّر لا حقيقة في عين المتطيّر به ، وأدلّة هذه الأصول المهمّة كثيرة ، منها : ـــ

١ – قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

---

(١) البداية والنهاية ١ / ١٢٨ .

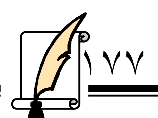
يَسِيرٌ﴾ [الحديد : ٢٢] ، يقول ابن عبد البرّ : (ما قد خطّ في اللّوح المحفوظ لم يكن منه بدّ ، وليست البقاع ، ولا الأنفس بصانعةٍ شيئًا من ذلك)[١] .

٢- روى البخاريّ بسنده عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا : (لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ وَلاَ هَامَةَ وَلاَ صَفَرَ) ، يقول ابن القيّم : (هذا محتمل أن يكون نفيًا وأن يكون نهيًا ؛ أي لا تتطيّروا . ولكن قوله في الحديث : ولا عدوى ، ولا صفر ، ولا هامة يدلّ على أنَّ المراد النفي ، وإبطال هذه الأمور الَّتي كانت الجاهليّة تعانيها ، والنّفي في هذا أبلغ من النّهي ؛ لأنّ النّفي يدلّ على بطلان ذلك وعدم تأثيره ، والنّهي إنّما يدلّ على المنع منه)[٢] ؛ وفائدة هذا النّفي : (ليرفع عن المتوقّع ما يتوقّعه من ذلك كلّه ، ويعلمه أنّ ذلك ليس يناله منه إلاّ ما كتب له)[٣] .

٣- روى مسلم بسنده عن مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ ﷺ قَالَ : (قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أُمُورًا كُنَّا نَصْنَعُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ؛ كُنَّا نَأْتِي الْكُهَّانَ ، قَالَ : فَلاَ تَأْتُوا الْكُهَّانَ . قُلْتُ : كُنَّا نَتَطَيَّرُ ، قَالَ : ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُهُ أَحَدُكُمْ فِي نَفْسِهِ فَلاَ يَصُدَّنَّكُمْ) ؛ يقول ابن القيّم : (أخبر أنّ تأذّيه وتشاؤمه بالتطيّر إنّما هو في نفسه وعقيدة لا في المتطيّر به ؛ فوهمه وخوفه وإشراكه هو الَّذي يطيره ويصدّه لا ما رآه وسمعه ؛ فأوضح ﷺ لأمّته الأمر ، وبيّن لهم فساد الطِّيَرَة ؛ ليعلموا أنّ اللَّه سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ، ولا فيها دلالة ، ولا نصبها سببًا لما يخافونه ويحذرونه ؛ لتطمئن قلوبهم ، ولتسكن نفوسهم إلى وحدانيّته تعالى الَّتي أرسل بها رسله ، وأنزل بها كتبه ، وخلق لأجلها السّموات والأرض ، وعمر الدارين ، الجنّة والنّار ، فبسبب التّوحيد ومن أجله جعل الجنّة دار التَّوحيد وموجباته وحقوقه ، والنَّار دار الشّرك ولوازمه وموجباته ، فقطع ﷺ علق الشرك من قلوبهم لئلا يبقى فيها علقة منها ، ولا يتلبّسوا بعمل من أعمال أهله ألبتة)[٤] . وفي هذه الكلمات الَّتي سطّرها يراع هذا الإمام هنا دليل على أنّه لا يرى الطيرة سببًا ظاهرًا أو خفيًّا أو دليلاً على حصول المكروه . وقد تكرّر النصّ على ذلك في كلامه على حديث (لا عدوى ولا

---

(١) التمهيد ٩ / ٢٨٥ .
(٢) مفتاح دار السعادة ٣ / ٢٣٤ .
(٣) التمهيد ٢٨٣/٩ .
(٤) مفتاح دار السعادة ٢ / ٢٣٤ .



طيرة) ؛ فقرّر أنّ النَّفي في الحديث يدلّ على بطلان التطيّر وعدم تأثيره[١] . ولكنّه قرّر في مواضع أخرى من كتبه أنّ حديث (لا عدوى ولا طيرة) لا ينفي أن تكون الطيرة سببًا للشرّ ، وإنّما ينفي ما كان المشركون يثبتونه تبعًا للطبائعيين والمنجّمين من سببيّة مطّردة لحصول المكروه على وجه لا يمكن إبطاله ولا معارضته ؛ وبناء على ذلك رأى أنّ حديث (الشؤم في المرأة والدار والفرس) يدل على إثبات نوع خفيّ من الأسباب لا يطّلع على تأثيره إلاّ بعد وقوع مسبّبه خلافًا للأسباب الظَّاهرة الَّتي تعلم مسبّباها قبل وقوعها ؛ أي أنّ هذه الأسباب الخفيّة أو الأعيان الثلاثة المذكورة في الحديث تؤثّر في حصول البلاء كما تؤثّر سائر الأسباب الظَّاهرة في مسبّباها بقدر اللَّه ومشيئته خلافًا لما يعتقده المشركون والطبائعيون وغيرهم من إثبات تأثيرها على وجه مطّرد لا يتخلّف ؛ وبهذا فرق بين ما جاءت به الأحاديث من شؤم هذه الأعيان وما كان عليه المشركون من الطيرة ؛ فإثبات تأثيرها في حصول المكروه على وجه خفيّ مرتبط بالقدر لون وما كان عليه المشركون من إثبات تأثيرها على وجه مطّرد لا يمكن معارضته ولا إبطاله لون آخر[٢]. وهذا القول غير مسلَّم ؛ لأنّ النّصوص اطّردت على إبطال التطيّر على أبلغ وجه ،كحديث : (لا عدوى ولا طيرة) ؛ والنّكرة في سياق النّفي أو النّهي من صيغ العموم الصّريحة[٣] ، فتدلّ على إبطال التطيّر على كلّ وجه ؛ فلا هو علّة ، ولا سبب ، ولا دليل على حصول المكروه . ثمّ إنَّ في هذا القول ذريعة لتوسّع العامّة في التطيّر حتَّى إنّه ربما انجرّ الأمر ببعضهم إلى اعتقاد التطيّر على وجه يضاهي ما كان عليه أهل الجاهليّة ؛ فيجب إغلاق هذا الباب وحسمه ؛ سدًّا لذريعة الشّرك وحفاظًا على عقيدة التّوحيد .

٤- روى أبو داود بسند صحيح[٤] عن ابن مسعود ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : (الطِّيَرَةُ شِرْكٌ الطِّيَرَةُ شِرْكٌ ثَلَاثًا) ، فتضمّن هذا النّص وما قبله من نصوص بيان حكم الطِّيَرَة ، وحدها ، وإبطال كونها علّة للمكروه ، أو سببًا له ، أو دليلاً عليه . ولكن هذا لا يمنع أن يصاب المتطيّر ببعض ما

---

(١) انظر : مفتاح دار السعادة ٢ / ٢٣٤ .

(٢) انظر : اعلام الموقعين ٢ / ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٤ / ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، مفتاح دار السعادة ٢ / ٢٥٧ .

(٣) انظر : شرح الكوكب المنير ٣ / ١٣٦- ١٣٨ ، إرشاد الفحول ، ص (١١٩) .

(٤) انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٤٢٩) .

يتوهّمه عقوبة على إشراكه ، وتعلّق قلبه بغير اللَّه ؛ لأنّ من تعلّق بغير اللَّه وكل إليه ، ومن خاف غير اللَّه سلّط عليه ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجنّ : ٦] ؛ أي خوفًا وإرهابًا وذعرًا ، وروى ابن حبّان بسند حسن[١] عن أنس بن مالك ﷺ مرفوعًا : (لاَ طِيَرَةَ ، والطِّيَرَةُ عَلَى مَنْ تَطَيَّر) ، يقول ابن القيّم : (قد يجعل اللَّه سبحانه تطيّر العبد وتشاؤمه سببًا لحلول المكروه به ، كما يجعل الثّقة والتوكّل عليه وإفراده بالخوف والرّجاء من أعظم الأسباب الّتي يدفع به الشرّ المتطيّر به . وسرّ هذا أنّ الطِّيَرَة لما تضمّنت الشِّرك باللَّه تعالى ، والخوف من غيره ، وعدم التوكّل عليه ، والثّقة به كان صاحبها غرضًا لسهام الشرّ والبلاء ، فيتسرع نفوذها فيه ؛ لأنّه لم يتدرّع من التّوحيد والتوكّل بجنّةٍ واقية ، وكلّ من خاف غير اللَّه سلّط عليه ، كما أنّ من أحبّ مع اللَّه غيره عذّب به ، ومن رجا مع اللَّه غيره خذل من جهته . وهذه أمور تجربتها تكفي عن أدلّتها) . وعلى هذا المعنى يمكن أن يحمل قول النّبيّ ﷺ : (الشُّؤْمُ فِي الدَّارِ ، وَالْمَرْأَةِ ، وَالْفَرَسِ) رواه مسلم ، وفي رواية له (إِنْ كَانَ الشُّؤْمُ فِي شَيْءٍ فَفِي الْفَرَسِ ، وَالْمَسْكَنِ ، وَالْمَرْأَةِ) ، وفي رواية له ثالثة : (إِنْ يَكُنْ مِنَ الشُّؤْمِ شَيْءٌ حَقٌّ فَفِي الْفَرَسِ ، وَالْمَرْأَةِ ، وَالدَّارِ) ؛ فيكون المراد إثبات الشؤم في حقّ من تطيّر بشيء من هذه الأعيان ؛ عقابًا له على إشراكه ، وضعف توكّله ، وتعلّق قلبه بغير إلهه وفاطره ؛ أي أنّ شؤمها حقّ في حقّ المتطيّر دون المتوكّل فإنّها لا تكون شؤمًا في حقّه ؛ لأنّ من توكّل على اللَّه وفوّض أمره إليه كفاه ، ومن تعلّق بغير اللَّه أو سكن إلى تطيّره وشركيّاته وكل إليها وسلّطت عليه ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطّلاق : ٣] ، وقال ﷺ : (مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ)[٢] ؛ أي ترك إلى ما تعلّقه ؛ فمن تعلّقت نفسه باللّه ، وفوّض أمره إليه كفاه كلّ مؤنةٍ ، وقرّب إليه كلّ بعيد ، ويسّر عليه كلّ عسير . ومن تعلّق بغيره ، أو سكن إلى الأسباب والأوهام وكله اللَّه إليها وخذله ، وسلَّط عليه كلّ ما يخافه ويحذره ؛ فالخوف قرين الشّرك ولازمه ، كما أنّ الأمن قرين التّوحيد وثمرته ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾

---

(١) انظر : الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ، ح (٦١٢٣) .

(٢) رواه الترمذي بسند حسن . انظر : تخريج أحاديث فتح المجيد للأرنؤط ، ص (١٣٧) .

[الأنعام : ٨٢] ، روى البخاريّ بسنده عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال : (لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام : ٨٢] قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَيُّنَا لا يَظْلِمُ نَفْسَهُ ؟ قَالَ : لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ ، لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ : بِشِرْكٍ ، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لابْنِهِ : ﴿ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣]) ؛ يقول ابن تَيْمِيَّة : (بيَّن النبيُّ ﷺ لهم ما دلّهم على أنّ الشّرك ظلم في كتاب اللَّه ، وحينئذ فلا يحصل الأمن والاهتداء إلاّ لمن يلبس إيمانه بهذا الظّلم ، ومن لم يلبس إيمانه به كان من أهل الأمن والاهتداء)(١) .

وذهب كثير من أهل العلم إلى أنّ إثبات الشؤم في الدّار والمرأة والفرس لا تراد حقيقته ، وإنّما هو كناية عن قلّة الموافقة ، وسوء الطِّباع ، فشؤم الدار ضيقها وسوء جيرانها ، وشؤم الدابّة منعها ظهرها وسوء طبعها ، وشؤم المرأة عقمها ، وسوء خلقها . قال معمر : (سمعت من يفسّر هذا الحديث يقول : شؤم المرأة إذا كانت غير ولود ، وشؤم الفرس إذا لم يغز عليه في سبيل اللَّه ، وشؤم الدار جار السوء)(٢) . وممّا يقوّي هذا القول في توجيه الحديث ما ذكره ابن حجر بقوله : (جاء في بعض الرِّوايات ما لعلّه يفسّر ذلك ؛ وهو ما أخرجه أحمد وصحّحه ابن حبّان والحاكم من حديث سعد مرفوعًا مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ ثَلاَثَةٌ ؛ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ ، وَالْمَسْكَنُ الصَّالِحُ ، وَالْمَرْكَبُ الصَّالِحُ ، وَمِنْ شَقَاوة ابْنِ آدَمَ ثَلاَثَةٌ ؛ الْمَرْأَةُ السُّوءُ ، وَالْمَسْكَنُ السُّوءُ ، وَالْمَرْكَبُ السُّوءُ . وفي رواية لابن حبّان المركب الهني ، والمسكن الواسع . وفي رواية للحاكم : وثلاثة من الشقاء ؛ المرأة تراها فتسوؤك ، وتحمل لسانها عليك ، والدابة تكون قطوعًا ؛ فإن ضربتها أتعبتك ، وإن تركتها لم تلحق أصحابك ، والدار تكون ضيّقة قليلة المرافق . وللطبراني من حديث أسماء : إنَّ من شقاء المرء في الدّنيا سوء الدار ، والمرأة ، والدابة)(٣) .

ولأهل العلم أجوبة كثيرة عن الحديث سوى ما ذكر ؛ كتغليط الرّاوي ، والقول بأنّه سمع آخر الحديث ولم يسمع أوّله ، أو القول بأنّ المحفوظ من الحديث رواية التَّعليق لا الجزم ، وأنّ رواية التَّعليق لا تدلّ على إثبات الشؤم أصلاً ، أو أنّها إلى نفيه أقرب من إثباته ، أو القول بأنّ الحديث

(١) مجموع الفتاوى ٧ / ٨٠ .
(٢) المصنف ، ح (١٩٥٢٧) .
(٣) فتح الباري ٩ / ١٣٨ .

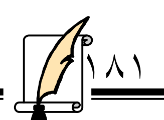
إخبار عمَّا كانت تعتقده العرب في الجاهلية . ثُمَّ نسخ ذلك ، وأبطله القرآن والسنن .
وهذه الأجوبة كلّها أجوبة غير مسلّمة ؛ لأنّ الحديث ثابت برواية الجزم والتعليق ، ولأنّه لم يتفرّد بروايته عن النبيِّ ﷺ راو واحد حتّى يقال : إنّه حفظ آخر الحديث و لم يحفظ أوّله ؛ فـــرواه أبـــو هريرة ، وابن عمر ، وسهل بن سعد السَّاعدي ، وجابر بن عبد اللَّه الأنصاري ، ورواياتهم ثابتة مشهورة مخرّجة في أصحّ كتب السنّة ، وأمّا دعوى النّسخ فشرط صحّتها تعذّر الجمع ، وتراخي النّاسخ ، والجمع هنا ممكن ، والنّفي مقارن للإثبات ؛ فالخبر مشتمل على نفي التطيّر ثُمَّ إثباته في الأعيان المذكورة .

وهذه الأجوبة وإن كانت غير مسلّمةٍ علميا إلاّ أنّ مقصودها صحيح عقديا ؛ وهو إبطال الطيرة في كلّ شيء بما في ذلك الدار والمرأة والفرس ، وما ذكر معها في بعـــض الرّوايـــات كالخـــادم والسّيف ؛ ولهذا ورد نفي التطيّر وإثباته في نصّ واحد ؛ فروى البخاريّ بسنده عن ابـــن عمـــر رضي اللَّه عنهما مرفوعًا : (لا عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ ، وَالشُّؤْمُ فِي ثَلاَثٍ ؛ فِي الْمَـــرْأَةِ ، وَالـــدَّارِ ، وَالدَّابَّةِ) ؛ فلو كان المراد إثبات الطيرة في هذه الأعيان الثلاثة لكان الحديث ينفي بعضه بعضًا ؛ لأنّ أوّله نفي للطيرة ، وآخره إيجاب لها ، يقول ابن عبد البر : (محال أن يظنّ بالنبيّ ﷺ مثل هذا من النّفي والإثبات في شيء واحدٍ ، ووقت واحد)[1] ؛ وبهذا يظهر ضعف ما جنح إليه ابن قتيبة والخطّابي والشوكاني وغيرهم من استثناء هذه الأعيان من حكم الطيرة ، يقول الشـــــــوكاني : (حديث الشؤم مخصص لعموم حديث لا طيرة ؛ فهو في قوّة لا طيرة إلاّ في هذه الثلاث ، وقـــد تقرّر في الأصول أنّه يبنى العام على الخاص مع جهل التَّاريخ . وادّعى بعضـــهم أنّـــه إجمـــاع ، والتَّاريخ في أحاديث الطيرة والشؤم مجهول)[2] .

وهذا القول لا شكّ في عدم صحّته إن كان المراد به أنّ لهذه الأعيان تأثيرًا في حصـــول المكـــروه على وجه العليّة ، أو السّببيّة ، أو الدلالة ؛ لما في ذلك من مخالفةٍ لأدلّة عموم المقادير ، ولأدلّة نفي الطِّيرة وإبطال تأثيرها بأصرح صيغ العموم ، ولما قد يفضي إليه هذا المعنى من فســـاد في اعتقـــاد العامّة حتَّى ينجرّ الأمر ببعضهم إلى اعتقاد أنّ ما يتوهّمون الشؤم فيه سبب حتمي ، أو مؤثّر ذاتي

---

(١) التمهيد ٩ / ٢٨٤ .
(٢) نيل الأوطار ٧ / ١٥٨ .



في حصول المكروه ، وهو لازم منكر ، تبرأ النّصوص من الدلالة عليه ، ويبرأ هؤلاء الأعلام من قصده ؛ يقول ابن القيم : (من اعتقد أنّ رسولَ اللَّه ﷺ نسب الطيرة والشؤم إلى شيء من الأشياء على سبيل أنّه مؤثّر بذلك دون اللَّه فقد أعظم الفرية على اللَّه وعلى رسوله وضلّ ضلالاً بعيدًا)[1] . وأمّا إن كان المراد باستثناء هذه الأعيان من حكم الطيرة إباحة تركها ، واستبدالها بغيرها ؛ حسمًا لمادّة الشّرك ، وسدًّا لذريعته ؛ لئلا يوافق وهم المتطيّر قدرًا فيعتقد صحّة الطيرة وتأثيرها فهو مقصد حسنٌ يلائم أصول الشّريعة ومقاصدها ، وعليه يمكن أن يحمل ما رواه الصنعاني بسند صحيح[2] عن عبد اللّه بن شدّاد أنّ امرأة من الأنصار قالت : (سكنّا دارنا هذه ، ونحن كثير فهلكنا ، وحسن ذات بيننا فساءت أخلاقنا ، وكثيرة أموالنا فافتقرنا ؟ قال : أفلا تنتقلون عنها ذميمة) ، وفي رواية : (ذَرُوهَا ذَمِيمَةً)[3] ؛ فأباح لهم التحوّل عن دارهم سدًّا لذريعة الشّرك ، ورأفةً بهم ، ومراعاة لما جعله اللَّه في تركيبة البشر من استثقال ما نالهم الشرّ فيه وإن كان ليس سببًا في حصوله . واللَّه أعلم[4] .

رابعا : السحر .

السحر لغة عبارة عما خفي ولطف سببه ؛ وسمي السحر سحرا ؛ لأنه يقع خفيا آخر الليل ، أو لأنه بأمور خفية لا تدرك بالبصر . ويدخل في اسم السحر لا في حكمه أمور كثيرة ؛ للطافة مداركها ، أو لأن آثارها تشبه آثار السحر ؛ ومن ذلك :

١- الشعبذة ؛ وهي التي تقع بخدع وتخييلات تعتمد على خفة اليد لا على الاستعانة بالشياطين .

٢- السحر المجازي ؛ وهو الذي يتم عن طريق أدوية وعقاقير تشبه السحر في آثاره وتأثيره ؛ فهذا يحكم على صاحبه بحسب إفساده أو عدوانه .

٣- النميمة ؛ وهي نقل الكلام على وجه الإفساد ؛ روى مسلم بسنده عن عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ مرفوعا : (أَلَا أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ ؛ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ) ؛ فجعل

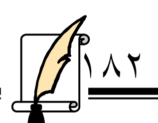
---

(١) مفتاح دار السعادة ٢ / ٢٥٧ .

(٢) انظر : فتح الباري ٦ / ٦٢ .

(٣) رواه أبوداود وغيره بإسناد حسن . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (٧٩٠) .

(٤) انظر في التطير : فتح المجيد ، ص (٣١٧- ٣٢٩) ، دراسات في دلالات المثلات ، ص (٢٥٧- ٢٧٠) .



النميمة من العضه ؛ وهو السحر ؛ لأن نقل الكلام بين الناس يعمل عمل السحر في التفريق بين قلوبهم ؛ قال يحيى بن كثير : (يفسد النمام والكذاب في ساعة مالا يفسد الساحر في سنة) .

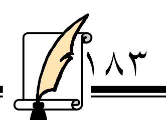
٤- بعض البيان ؛ لقوله ﷺ : (إِنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا) رواه البخاري ؛ وهو البيان الذي يظهر الحق في قالب الباطل ، والباطل في قالب الحق ؛ فيؤثر في القلوب كتأثير السحر ؛ حتى تقبل على الباطل وتذر الحق ؛ قال صعصة بن صوحان : (صدق نبي الله ﷺ ؛ فإن الرجل يكون عليه الحق ، وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق ، فيسحر القوم ببيانه فيذهب الحق) . وهذا على تقدير أن الحديث خرج مخرج الذم ، ويحتمل أنه خرج مخرج المدح ، وهو الاحتمال الأظهر من سياق الحديث ؛ روى البخاري بسنده عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَدِمَ رَجُلَانِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَخَطَبَا فَعَجِبَ النَّاسُ لِبَيَانِهِمَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا) ؛ وأخرج البيهقي في الدلائل وغيره من طريق مقسم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : (جلس إلى رسول الله ﷺ الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وقيس بن عاصم ؛ ففخر الزبرقان فقال : يا رسول الله ، أنا سيد بني تميم ، والمطاع فيهم ، والمجاب ؛ أمنعهم من الظلم ، وآخذ منهم بحقوقهم ، وهذا يعلم ذلك ؛ يعني : عمرو بن الأهتم . فقال عمرو : إنه لشديد العارضة ، مانع لجانبه ، مطاع في أذنيه ، فقال الزبرقان : والله يا رسول الله لقد علم مني غير ما قال ، وما منعه أن يتكلم إلا الحسد . فقال عمرو : أنا أحسدك ! والله يا رسول الله إنه لئيم الخال ، حديث المال ، أحمق الوالد ، مضيع في العشيرة . والله يا رسول الله لقد صدقت في الأولى ، وما كذبت في الآخرة ، ولكني رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت ، وإذا غضبت قلت أقبح ما وجدت . فقال النبي ﷺ : إن من البيان سحرا)[1] .

السحر الحقيقـــــــــي

وهو الذي يعتمد فيه الساحر على الجن والشياطين ؛ فيتقرب الساحر إلى شيطان من الشياطين بما يرضيه من أقبح المحرمات ، وأغلظ الشركيات ؛ فيقوم الشيطان بخدمتة ، أو تسخير من يخدمه من الجن ، ويطيعه في تنفيذ أوامره . وقد يكون للساحر مجموعة كبيرة من شياطين الجـــن ؛ تخدمـــه وتنفذ أمره ، وتعاونه على الإثم والعدوان ، والإفساد في الأرض ، والإضرار بالعباد بأنواع مـــن

---

(١) فتح الباري ١٠ / ٢٣٧ .



الضرر والأذى ؛ ومن ذلك :-

١- التأثير في عقل المسحور ؛ بالشرود والذهول ، والنسيان الشديد ، والتخبط في الكلام ، وكثرة الوساوس ، وقد يصل التأثير إلى الجنون ! عياذا بالله !

٢- التأثير في عواطف المسحور بالصرف والعطف ؛ فيفرقون بين القلوب المتآلفة ، ويجمعون بين القلوب المتباغضة .

٣- التأثير في بدن المسحور حتى يمرض ، أو تتعطل بعض أعضائه ، وكثيرا ما يؤثر على نشاطه ؛ فتراه خاملا منعزلا ! أو على حواسه ؛ فيتخيل مالا حقيقة له من الأصوات والأشكال والأشخاص ، ويبدو أن السحرة وشياطينهم يعتمدون على هذا الجانب كثيرا ؛ ولعل ذلك من أسرار ذكر هذا الجانب في القرآن ؛ قال تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ طه: ٦٦ ، وقال : ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ الأعراف: ١١٦ ! وليس معنى هذا أن السحر كله تخييل لاحقيقة له ؛ فإن الله يقول : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ البقرة: ١٠٢ ، ويقول : ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾ الفلق: ٤ ، فأثبت له تأثيرا حقيقيا ، وأمر بالاستعاذة منه ، ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر بالاستعاذة منه ! ولكن يجب أن يعلم أن تأثير السحر مشروط بإذن الله الكوني ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ١٠٢ ؛ وكم حاول السحرة الإضرار بأناس فلم يبلغوا منهم ما يريدون ؛ لأن الله لم يأذن في ذلك قدرا . وهذا السحر من أعظم المنكرات ؛ لما يشتمل عليه من أقبح المحرمات ، وأغلظ الكفريات ، وأبشع التصرفات . وقد دلت النصوص وآثار الصحابة على التحذير من هذا المنكر بطرق متنوعة ؛ منها : -

١- أنه كفر وشرك أكبر ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ البقرة: ١٠٢ ؛ فسماه الله كفرا بقوله : إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ، وقوله : وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا . قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : في قوله : إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ؛ وذلك أنهما علما الخير والشر ، والكفر والإيمان ، فعرفا أن السحر من الكفر . وأثبت له حكم الكفر بقوله : ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ؛ أي من نصيب ؛ ونفي

النصيب بالكلية لا يكون إلا للكافر . ومن عرف واقع السحرة لم يتردد في القطـــع بكفـــرهم ؛ فشيطان الجن لا يخدم الساحر إلا بمقابل فعل المحرمات والشركيات ؛ وكلما كان الساحر أشـــد كفرا كان الشيطان أكثر طاعة له ؛ وقد يتمثل الشيطان للساحر فيسجد له من دون الله ،كما أن طرق تحضير الشيطان الموكل بالسحر تحتوي على الشرك والكفر ؛ كالذبح للجـــن ، والإقســـام عليهم بساداقم ، والاستغاثة بكبرائهم ، أو إهانة المصحف أبشع إهانة ، وتنكـــيس آياتـــه ، و كتابتها بالنجاسة ، أو مخاطبة الكواكب ، والسجود لها من دون الله ، وتلاوة طلسمات شـــركية يستترلون بها روحانية الكوكب بزعمهم[1] !!

٢- أن السحر من أعمال أهل الكتاب التي ذمهم الله بها ؛ قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ النساء: **٥١ - ٥٢** ، فذمهم الله ، ولعنهم على الإيمان بالجبت والطاغوت ؛ قال عمر : (الجبت السحر ، والطاغوت الشيطان) ، وقال جابر : (الطواغيت كهان كان يترل عليهم الشيطان في كل حي واحد) ؛ وهذان الأثران يدلان لقول المؤلـــف في المســـائل : (أن الطاغوت قد يكون من الجن وقد يكون من الإنس)[2] ؛ قال ابن عثيمين : (تؤخذ مـــن قـــول جابر الطواغيت كهان ، وكذلك قول عمر الطاغوت الشيطان)[3] . ولا تعارض بين التفسيرين ؛ لأن كلامهما من تفسير اللفظ بالمثال ؛ فالطاغوت يعم الكاهن والشيطان وغيرهمـــا ؛ وهكـــذا الجبت يعم السحر وغيره .

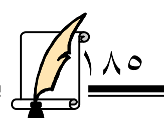
٣- أن السحر من الموبقات ؛ روى مسلم بسنده عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَـــالَ : (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ ! قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْـــلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَـــذْفُ الْمُحْصِنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ) ؛ والموبقات هي المهلكات ؛ لأنها تهلـــك فاعلـــها في الـــدنيا بالعقوبة وفي الآخرة بالعذاب ؛ قال صالح آل الشيخ : (هذه السبع أكبر الكبائر ، وعطف السحر

---

(١) انظر : فتح المجيد ، ص (٢٩٢) ، الصارم البتار ، ص (٢١ ، ٢٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٧٥- ٧٤) .

(٢) كتاب التوحيد ، مع القول السديد ، ص (٩٤) .

(٣) القول المفيد ٢ / ٢٦ .



على الشرك بالله ليس عطفا بين متغايرين في الحقيقة ، وإنما هو عطف بين خاص وعام ؛ فالشرك بالله يكون بالسحر ، ويكون بغيره ؛ فعطف السحر على الشرك للتنصيص عليه ، والسحر أحد أفراد الشرك بالله تعالى ، وعطف الخاص على العام أمثلته كثيرة منها قوله تعالى : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ؛ فعطف جبريل وميكال على الملائكة ، وهما منهم ، من باب عطف الخاص على العام)[١] .

٤- أن الساحر يقتل بلا استتابة ؛ وهذا ظاهر ما نقل عن الصحابة ؛ روى أبو داود بسند صحيح[٢] عن بجالة بن عبدة قال : (كنت كاتبا لجزء بن معاوية ؛ عم الأحنف بن قيس ، إذ جاءنا كتاب عمر قبل موته بسنة ؛ اقتلوا كل ساحر ، وفرقوا بين كل ذي محرم من المجوس ، وانهوهم عن الزمزمة ؛ فقتلنا في يوم ثلاثة سواحر) ، وقال المؤلف : (وصح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت ، وكذلك صح عن جندب . قال أحمد : عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ)[٣] ؛ قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن : (ظاهره أنه يقتل من غير استتابة ، وهو كذلك على المشهور عن أحمد ، وبه قال مالك ؛ لأن علم السحر لا يزول بالتوبة وعن أحمد : يستتاب ، فإن تاب قبلت توبته ، وبه قال الشافعي ؛ لأن ذنبه لا يزيد عن الشرك ، والمشرك يستتاب وتقبل توبته ؛ ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم)[٤] . واستثنى بعض أهل العلم من هذا الحكم ساحر أهل الكتاب ؛ لأن النبي ﷺ لم يقتل لبيد بن الأعصم ؛ وهو المنافق أو اليهودي الذي سحره ! ويمكن أن يقال إن النبي ﷺ ترك قتله ؛ لئلا يثور بذلك فتنة بين المسلمين وحلفائه من الأنصار ، أو لئلا ينفر الناس عن الإسلام ؛ كما ترك قتل المنافقين ؛ لئلا يتحدث الناس أن محمدا ﷺ يقتل أصحابه . والله أعلم[٥] .

---

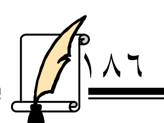
(١) التمهيد ، ص (٣٠٢) . (بتصرف يسير) .

(٢) انظر : النهج السديد ، ص (١٤٢) .

(٣) كتاب التوحيد ، مع القول السديد ، ص (٩٤) .

(٤) فتح المجيد ، ص (٢٩٨) .

(٥) فتح الباري ١٠ / ٢٣١ .



السحر والتنجيم

التنجيم وثيق الصلة بالسحر ؛ لما رواه أبو داود وابن ماجه وغيرهما بسند صحيح(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد) ؛ أي كلما زاد من تعلم النجوم زاد في السحر ؛ ولعل ذلك والله أعلم أن علم التنجيم من الطرق المؤدية للسحر ؛ فمن السحرة من إذا أراد عقد السحر ترصد نجما معينا ، وخاطبه بطلسمات شركية ؛ ليستنزل بها روحانية الكوكب بزعمه ، وعند ذلك يقوم شيطان الجن بتفيذ أمره ؛ فيظن أن ذلك من تأثير الكوكب ! ومنهم من يزعم أن الجمع بين الاستعانة بالشياطين ومخاطبة الكواكب أقوى في تأثير السحر ؛ فالسحر مرتبط بالتنجيم أوثق ارتباط ؛ قال ابن خلدون : (رياضة السحر كلها إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل ؛ فهي لذلك وجهة إلى غير الله ، وسجود له ، والوجهة إلى غير الله كفر ؛ فلهذا كان السحر كفرا ، والكفر من مواده وأسبابه)(٢) .

وهذا المعتقد ينافي أصل الإسلام ؛ فالنجوم خلق مسخر ؛ لا روحانية لها ، ولا تأثير في الخلق ؛ قال تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ الأعراف: ٥٤ ، وقال : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)﴾ النحل: ١٢ ؛ فالخلق والأمر لله وحده ؛ والنجوم والكواكب مسخرات بأمره ، وتسبح بحمده ؛ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)﴾ الإسراء: ٤٤ ؛ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ؛ فيزعمون في الكواكب ما يزعمون ، وإنما ذلك من إضلال الشياطين ؛ فينفذون أمر الساحر عند تلاوة طلسم شركي ؛ ليستنزل به روحانية الكوكب المزعومة ، فيظن أن ذلك من تأثير الكوكب ، فيتمكن الشرك في قلبه ، وفي قلب من يصدقه ! وبهذه الطريقة أضلت الشياطين عباد الأصنام ؛ فإذا خاطبوها ، أو دعوها من دون الله أجابتهم الشياطين من داخلها ؛ وقد تتراءى لهم في شكل من يخاطبون ؛ ليتمكن الشرك في قلوبهم ! ولهذا

(١) انظر : النهج السديد ، ص (١٤٤) .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، ص (٤٨٩) . وانظر : الصارم البتار ، ص (٦٨) .

جاء التغليظ الشديد فيمن صدق السحرة وأمثالهم في هذه المزاعم وأشباهها ؛ روى ابن حبان وغيره عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال : (ثلاثة لا يدخلون الجنة ؛ مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصدق بالسحر)[١] ؛ ويدخل في التصديق بالسحر التصديق بدعاوى السحرة والمنجمين في النجوم ؛ لأن التنجيم نوع من السحر ؛ روى أبو داود وابن ماجه وغيرهما بسند صحيح[٢] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد) . وقد كثر في النصوص ، وفي كلام السلف الزجر عن التنجيم ، وذمه ، والتحذير من طرقه ؛ فمن ذلك :-

١- روى ابن عساكر بسند صحيح[٣] عن أبي محجن ﷺ مرفوعا : (أخاف على أمتي من بعدي ثلاثا ؛ حيف الأئمة ، و إيمانا بالنجوم ، وتكذيبا بالقدر) .

٢- روى أحمد وغيره بسند صحيح[٤] عن أبي مالك الأشعري ﷺ مرفوعا : (أربع بقين في أمتي من أمر الجاهلية ليسوا بتاركيها ؛ الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة على الميت ، وإن النائحة إذا لم تتب قبل الموت جاءت يوم القيامة عليها سربال من قطران ، ودرع من لهب النار) . وقد ذكر الشارح[٥] أن المراد بالاستسقاء بالنجوم ؛ نسبة نزول المطر إلى النوء ؛ وهو سقوط النجم ؛ يدل لذلك ماروى أبو يعلى بسند صحيح[٦] عن أنس ﷺ مرفوعا : (ثلاث لم تزلن في أمتي ؛ التفاخر بالأحساب ، والنياحة ، والأنواء) ، وماروى أحمد وغيره بسند حسن[٧] عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لم يدعهن الناس ؛ الطعن في الأنساب ، والنياحة على الميت ، والأنواء ؛ مطرنا بنوء كذا و كذا ، والإعداء ؛ جرب بعير فأجرب مئة بعير فمن أجرب البعير الأول ؟ !) ، وما روى أحمد وغيره

---

(١) هذا الحديث رواه أيضا الطبراني والحاكم وقال : صحيح ، وأقره الذهبي . فتح المجيد ، ص (٣٣٣) .
(٢) انظر : النهج السديد ، ص (١٤٤) .
(٣) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٢١٤) .
(٤) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٨٧٥) .
(٥) انظر : فتح المجيد ، ص (٣٣٦) .
(٦) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٣٠٣٧) .
(٧) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٨٨٤) .

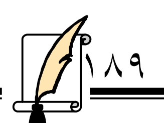
بسند صحيح[١] عن جابر بن سمرة ﷺ مرفوعا : (ثلاث أخاف على أمتي ؛ الاستسقاء بالأنواء ، وحيف السلطان ، وتكذيب بالقدر) . وقد ورد التصريح بكفر من استسقى بالنجوم أو الأنــواء فيما ثبت في الصحيح عن زيد بن خالد الجهنيﷺ قال : صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصــبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : (هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ؛ فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب) ؛ والأنواء منازل الشمس والقمر ؛ وهي ثمانية وعشرون منزلا ؛ كالسرطان ، والبطين ، والثريا ، ... الخ ؛ وكانت العرب تنسب المطر إليها ؛ وتزعم أنه مــع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر ، فيقولون : مطرنا بنوء كذا[٢] .

٣- وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (في قوم يكتبون أباجاد ، وينظرون في النجوم ، ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق)[٣] ؛ وهذا كالصريح في كفر المنجم ؛ لأن نفي النصيب عند عند الله بالكلية لا يكون إلا للكافر . والمراد بكتابة أبي جاد كتابتها وتعلمها لمن يدعي بها علــم الغيب ؛ وهو الذي يسمى علم الحروف ، وأما تعلمها للتهجي وحساب الجمل فلا بأس به .

٤- وقال قتادة : (إن الله إنما جعل هذه النجوم لثلاث خصال ؛ جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوما للشياطين ؛ فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به ، وإن ناسا جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة ؛ من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، وما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود ، والطويل والقصير ، والحسن والدميم ، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب ، ولو أن أحدا علم الغيب لعلمه آدم ؛ الذي خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء)[٤] .

---

(١) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٣٠٢٢) .
(٢) انظر : النهاية ٥/ ١٢٢ ، المطلع ، ص (٦٨) .
(٣) رواه عبدالرزاق وغيره بسند صحيح . انظر : النهج السديد ، ص (١٥٢) .
(٤) فتح المجيد ، ص (٣٣٠) .



ويتعلق بالتنجيم أمور مهمة :-

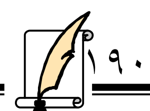
١- ذم التنجيم يقصد به علم التأثير ؛ وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية . وغالبا ما يصاحب ذلك اعتقاد أن للكواكب تأثيرا في الأرض وأهلها ؛ ولهذا يخاطب السحرة الكواكب بطلسمات شركية إذا أرادوا استنزال روحانية الكوكب بزعمهم !! ؛ فهذا العلم ينافي التوحيد ؛ لما فيه من نسبة الخلق لغير الله ، وادعاء علم الغيب الذي استأثر به الله وحده ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ فاطر: ٣ ، وقال : ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ النمل: ٦٥ .

٢- لايدخل في ذم التنجيم علم التسيير ؛ وهو الاستدلال بالنجوم على الأوقات والجهات ؛ لأنه يقوم على اعتبار النجوم علامات ودلالات لا أسباب مؤثرات ؛ وهذا حق ؛ قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ الأنعام: ٩٧ ، وقال : ﴿ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ النحل: ١٦ .

٣- الاستسقاء بالنجوم أو الأنواء يختلف حكمه بحسب حال قائله ؛ فإن كان يعتقد أن للنوء تأثيرا في إنزال المطر فهذا كفر أكبر ، وإن كان يعتقد أن المؤثر هو الله وحده ، ولكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم فهذا كفر أصغر ؛ لأنه نسب نعمة الله إلى غيره .

السحر والكهانة

الكهانة هي ادعاء علم الغيب اعتمادا على أسباب معينة ؛ كالخط ، وعلم الحرف ، والأخذ عن مسترق السمع ؛ وهو الأصل في الكهانة . قال ابن حجر : (وهي على أصناف ؛ منها ما يتلقونه من الجن ؛ فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء ، فيركب بعضهم بعضا ، إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام ، فيلقيه إلى الذي يليه ، إلى أن يتلقاه من يلقيه في أذن الكاهن ، فيزيد فيه . فلما جاء الإسلام ، ونزل القرآن ، حرست السماء من الشياطين ، وأرسلت عليهم الشهب ، فبقي من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : (إلا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب) ، وكانت إصابة الكهان قبل الاسلام كثيرة جدا ، كما جاء في أخبار شق وسطيح ونحوهما ، وأما في الإسلام فقد ندر ذلك جدا حتى كاد يضمحل ولله الحمد . ثانيها : ما يخبر الجني به من يواليه بما غاب عن غيره ؛ مما لا يطلع عليه الإنسان غالبا ، أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد . ثالثها : ما يستند إلى ظن



وتخمين وحدس ؛ وهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة ، مع كثرة الكذب فيه . رابعها : ما يستند إلى التجربة والعادة ؛ فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك ، ومن هذا القسم الأخير ما يضاهي السحر ، وقد يعتضد بعضهم في ذلك بالزجر والطرق والنجوم وكل ذلك مذموم شرعا)[١] . ويطلق على الكاهن أيضا اسم العراف ، ومن العلماء من يفرق بينهما ؛ فيخص العراف بمن يخبر عما وقع وغاب عن الناس ؛ كمكان المسروق والضالة ، والكاهن بمن يخبر عن المستقبل ، أو عما يضمره الإنسان في قلبه ؛ قال المؤلف : (قال البغوي : العراف : الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك ، وقيل : هو الكاهن ؛ والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل . وقيل : الذي يخبر عما في الضمير . وقال أبو العباس بن تيمية : العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق)[٢] . والكهانة وثيقة الصلة بالسحر ؛ يدل لذلك عدة أمور ؛ منها :-

١- أن السحر والكهانة كلاهما يعتمدان على الاستعانة بالشياطين ؛ ولهذا قال الحسن : الجبت رنة الشيطان ؛ أي صوت الشيطان ووحية ؛ فالسحر والكهانة من وحي الشيطان لمن يتصف بما يناسب تتزله من الصفات ؛ وهي كثرة الكذب في الأقوال ، وكثرة الفجور في الأفعال ؛ قال تعالى :﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ الشعراء: ٢٢١-٢٢٢ ؛ والأفاك الكذوب في قوله ، والأثيم الفاجر في فعله .

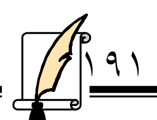
٢- أن وعيد الذهاب للسحرة كوعيد الذهاب للكهنة ؛ روى البزار وأبو يعلى بإسناد جيد عن ابن مسعود ﷺ موقوفا : (من أتى عرافا أو ساحرا أو كاهنا فسأله فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) ؛ قال ابن حجر (أخرجه ابو يعلى من حديث ابن مسعود بسند جيد ، لكن لم يصرح برفعه ، ومثله لا يقال بالرأي)[٣] . وعنه ﷺ قال : (من أتى عرافا أو ساحرا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد)[٤] . وقد ورد هذا الوعيد في الذهاب

(١) فتح الباري ١٠ / ٢١٧ .

(٢) كتاب التوحيد ، مع القول السديد ، ص (٩٨) .

(٣) فتح الباري ١٠ / ٢١٧ .

(٤) قال الهيثمي : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا هبيرة بن مريم ، وهو ثقة . مجمع الزوائد ٥ / ١٢١ .



للكهان مرفوعا ؛ روى أحمد بسند صحيح[١] عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) ، وروى البزار بإسناد جيد[٢] عن عمران بن حصين ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (ليس منا من تطير أو تطير له ، أو تكهن أو تكهن له ، أو سحر أو سحر له ، ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) . والظاهر أن المراد به الكفر الأصغر ؛ لما رواه مسلم بسنده عن بعض أزواج النبي ﷺ قال : (من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوما) ؛ فلو كان الذهاب من الكفر الأكبر لأبطل كل العمل ، و لم يقيد بأربعين يوما . ومن العلماء من فرق ؛ فحمل الحديثين على حالين ؛ فالوعيد بعدم قبول الصلاة أربعين يوما محمول على مجرد الذهاب للكهان ، والوعيد بالكفر محمول على الذهاب مع التصديق ؛ فمن أتى كاهنا وصدقه فيما يخبر من المغيبات فقد كفر ؛ ويشهد لهذا الفرق مارواه الطبراني عن أنس بن مالك ﷺ قال : (قال رسول الله ﷺ من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد برئ مما أنزل على محمد ﷺ ، ومن أتاه غير مصدق له لم يقبل له صلاة أربعين يوما) ، وما رواه عن واثلة بن الأسقع ﷺ مرفوعا : (من أتى كاهنا فسأله عن شيء حجبت عنه التوبة أربعين ليلة ، فإن صدقه بما قال كفر) . ولكنها أحاديث ضعيفة لاتقوم بها حجة[٣] ؛ فيكون حمل الوعيد على الكفر الأصغر أرجح ، ويقوي ذلك أن الحنابلة نصوا في المعتمد من المذهب أن الكاهن لا يكفر ؛ فإذا كان الكاهن لا يكفر فلأن لا يكفر من سأله من باب أولى . وهذا الإطلاق مقيد بما إذا لم يتلبس الكاهن بشيء مما يخرج من الملة ؛ كادعاء شيئ مما اختص به الله من علم الغيب ، أو التقرب إلى رئيه من الجن بشيء من العبادات ؛ وبهذا يتبين أن الساحر أخبث من الكاهن ؛ ولهذا يكفر ، ويقتل بلا استتابة !

٣- أن النبي ﷺ أدخل في مسمى السحر كثيرا من فروع الكهانة ؛ روى أحمد بإسناد جيد[٤] عن قبيصة بن مخارق ﷺ مرفوعا : (إن العيافة ، والطرق ، والطيرة ، من الجبت) ؛ ويجمع هذه

---

(١) صحيح الجامع الصغير ، ح (٥٩٣٩) .

(٢) كتاب التوحيد ، مع القول السديد ، ص (٩٧) .

(٣) انظر : مجمع الزوائد ٥ / ١٢١ .

(٤) انظر : فتح المجيد ، ص (٣٠٠) .

الأعمال الاستدلال على المغيبات ؛ بناء على حركة الطير ، أو الخط في الأرض ؛ فكل ذلك جبت ؛ أي سحر وكهانة ومالا خير فيه ؛ فالجبت فسر بذلك كله ، واللفظ المشترك يجوز أن يحمل على كل معانيه إذا لم تكن متنافية ! والعيافة ؛ زجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل ، والطرق يعني : الاستدلال على المغيبات بالخط على الأرض ؛ قال ابن عباس : هو الذي يخطه الحازر ؛ يأتي صاحب الحاجة فيعطيه حلوانا ، فيقول له : اقعد حتى أخط لك ، وبين يدي الحازر غلام له معه ميل ، ثم يأتي إلى أرض رخوة فيخط فيها خطوطا كثيرة بالعجلة ؛ لئلا يلحقها العدد ، ثم يرجع فيمحو منها على مهل خطين خطين ، وغلامه يقول للتفاؤل : أبن عيان أسرع البيان ، فإن بقي خطان فهو علامة النجاح ، وإن بقي خط واحد فهو علامة الخيبة[١] . فإن قيل كيف يكون علم الخط من الكهانة ؛ وقد روى مسلم عن معاوية بن الحكم رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ : (ومنا رجال يخطون ؛ فقال : كان نبي من الأنبياء يخط ؛ فمن وافق خطه فذاك) ؟ فالجواب بما قاله النووي : (اختلف العلماء في معناه ؛ فالصحيح أن معناه : من وافق خطه فهو مباح له ، ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة ، فلا يباح . والمقصود أنه حرام ؛ لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة ، وليس لنا يقين بها . وإنما قال النبي ﷺ فيمن وافق خطه فذاك ولم يقل هو حرام بغير تعليق على الموافقة ؛ لئلا يتوهم متوهم أن هذا النهي يدخل فيه ذاك النبي الذي كان يخط ؛ فحافظ النبي ﷺ على حرمة ذاك النبي مع بيان الحكم في حقنا ؛ فالمعنى أن ذلك النبي لا منع في حقه ، وكذا لو علمتم موافقته ، ولكن لا علم لكم بها . وقال الخطابي : هذا الحديث يحتمل النهي عن هذا الخط اذا كان علما لنبوة ذاك النبي عليه السلام ، وقد انقطعت ؛ فنهينا عن تعاطي ذلك . وقال القاضي عياض : المختار أن معناه أن من وافق خطه فذاك الذي يجدون إصابته فيما يقول لا أنه أباح ذلك لفاعله . قال : ويحتمل أن هذا نسخ في شرعنا ؛ فحصل من مجموع كلام العلماء فيه الاتفاق على النهي عنه الآن)[٢] .

---

(١) حاشية ابن قاسم ، ص (١٩٥) .

(٢) شرح صحيح مسلم ٥ / ٢٣ .

علاج السحر

يسمى علاج السحر بالنشرة ؛ والنشرة نوعان :-

١- نشرة شركية ؛ وهي التي تتم عن طريق السحرة ؛ فيتقرب الساحر والمريض أووليه إلى الشيطان بما يحب ؛ فيبطل أثره عن المسحور ؛ روى أحمد وغيره بسند جيد[1] عن جابر ﷺ : (أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة ؟ فقال : هي من عمل الشيطان) ؛ والألف واللام في النشرة للعهد ؛ أي النشرة المعهودة في الجاهلية من عمل الشيطان ؛ ولهذا كان ابن مسعود ﷺ يكره هذه النشرة بجميع أنواعها . وأما ما ورد عن قتادة : (قلت لابن المسيب : رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته ، أيحل عنه أو ينشر ؟ قال : لا بأس به ؛ إنما يريدون به الإصلاح ، فأما ما ينفع ، فلم ينه عنه) ؛ فمن العلماء من حمله على النشرة العربية ؛ وهي التي تكون بالأدوية المباحة ، ولو سلمنا أنه أراد خلاف ذلك فهو اجتهاد تابعي فاضل يعتذر له ، ولا يعمل بقوله ؛ لأنه يخالف ماصح[2] عن النبي ﷺ : (إن الله تعالى خلق الداء والدواء ، فتداووا ولا تتداووا بحرام)، وكذلك ماصح[3] عن ابن مسعود ﷺ موقوفا عليه : (إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم) . وأخرج الطبراني بإسناد صحيح[4] عن أبي الأحوص : (أن رجلا أتى عبد الله فقال : إن أخي مريض اشتكى بطنه ، وإنه نعت له الخمر أفأسقيه ؟ قال عبد الله : سبحان الله ! ما جعل الله شفاء في رجس ؛ إنما الشفاء في شيئين : العسل شفاء للناس ، والقرآن شفاء لما في الصدور) .

٢- نشرة شرعية ؛ وهي التي تكون عن طريق الدعوات ، والتعوذات ، والرقى الشرعية ، والأدوية المباحة ؛ وهي التي تعالج بها النبي ﷺ لما سحره لبيد بن الأعصم . وقد ذكر أهل العلم للنشرة الشرعية صفات كثيرة ؛ منها :-

أ- ما رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبي سليم قال : (بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله ، تقرأ في إناء فيه ماء ، ثم تصب على رأس المسحور ؛ الآية التي في يونس

---

(١) كتاب التوحيد ، مع القول السديد ، ص (١٠٠) .

(٢) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (١٧٦٢) .

(٣) انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح (١٦٣٣) .

(٤) المرجع السابق .

: (فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين) إلى قوله : (ولو كره المجرمون) ، وقوله : (فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون) إلى آخر أربع آيات ، وقوله : (إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) .

ب- وقال ابن بطال: في كتاب وهب بن منبه (أنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر ؛ فيدقه بين حجرين ، ثم يضربه بالماء ، ويقرأ فيه آية الكرسي ، والقواقل ، ثم يحسو منه ثلاث حسوات ، ثم يغتسل به ؛ فإنه يذهب عنه كل ما به ؛ وهو جيد للرجل اذا حبس عن أهله) .

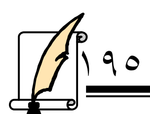
ت- وقال الشعبي : (لا بأس بالنشرة العربية ؛ التي إذا وطئت لا تضره ؛ وهي أن يخرج الإنسان في موضع عضاه ، فيأخذ عن يمينه وعن شماله من كل ، ثم يدقه ويقرأ فيه ، ثم يغتسل به) .

ث- وقال نصوح بن واصل سألني حماد بن شاكر ما الحل وما النشرة ؟ فلم أعرفهما فقال : هو الرجل إذا لم يقدر على مجامعة أهله وأطاق ما سواها ؛ فإن المبتلي بذلك يأخذ حزمة قضبان ، وفاسا ذا قطارين ، ويضعه في وسط تلك الحزمة ، ثم يؤجج نارا في تلك الحزمة ، حتى إذا ما حمى الفأس استخرجه من النار ، وبال على حره ؛ فإنه يبرأ بإذن الله تعالى . وأما النشرة فإنه يجمع أيام الربيع ما قدر عليه من ورد المفاره وورد البساتين ، ثم يلقيها في إناء نظيف ، ويجعل فيهما ماء عذبا ، ثم يغلي ذلك الورد في الماء غليا يسيرا ، ثم يمهل حتى إذا فتر الماء أفاضه عليه ؛ فإنه يبرأ بإذن الله تعالى(١) .

ج- ومن الكلام الجامع النافع كلام ابن القيم في هدي النبي ﷺ في علاج السحر ؛ فقال في ذلك : (روي عنه ﷺ فيه أنواع ؛ أحدها - وهو أبلغها - : استخراجه وإبطاله كما صح عنه ﷺ أنه سأل ربه سبحانه في ذلك ؛ فدل عليه فاستخرجه من بئر ؛ فكان في مشط ومشاطة ، وجف طلعة ذكر ، فلما استخرجه ذهب ما به ؛ حتى كأنما أنشط من عقال ؛ فهذا من أبلغ ما يعالج به المطبوب . وهذا بمنزلة إزالة المادة الخبيثة وقلعها من الجسد بالاستفراغ . والنوع الثاني : الاستفراغ في المحل الذي يصل إليه أذى السحر ؛ فإن للسحر تأثيرا في الطبيعة ، وهيجان أخلاطها ، وتشويش مزاجها ، فإذا ظهر أثره في عضو ، وأمكن استفراغ المادة الرديئة من ذلك العضو نفع جدا . وقد ذكر أبو عبيد في كتاب غريب الحديث له بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى (أن

---

(١) انظر : فتح الباري ١٠ / ٢٣٣ ، ٢٣٤ .



النبي ﷺ احتجم على رأسه بقرن حين طب) ؛ قال أبو عبيد : معنى طب : أي سحر . النـــوع الثالث : الأذكار والآيات والدعوات التي تبطل تأثير السحر ، وهي من أنفع الأدوية ، وأعظمها ، وكلما كانت أقوى وأشد كانت أبلغ في النشرة ؛ وذلك بمنزلة التقاء جيشين مع كل واحد منهما عدته وسلاحه فأيهما غلب الآخر قهره وكان الحكم له ؛ فالقلب إذا كان ممتلئا من الله ؛ مغمورا بذكره ، وله من التوجهات والدعوات والأذكار والتعوذات ورد لا يخل به ؛ يطابق فيه قلبه لسانه ، كان هذا من أعظم الأسباب التي تمنع إصابة السحر له ، ومن أعظم العلاجات له بعد ما يصيبه ؛ وبالجملة فسلطان تأثير السحر في القلوب الضعيفة ، والمسحور هو الذي يعين على نفسه ، فمن ضعف حظه من الدين ، والتوحيد ، والتوكل ، والأوراد ، والدعوات ، والأذكار ، والتعـــوذات النبوية ، وتعلق قلبه بالشهوات ، تسلطت الأرواح الخبيثة على قلبه ، وتمكن تأثيرها فيها بالسحر وغيره ، والله أعلم)[١] . وبهذا يتبين أن قول الحسن : (لا يحل السحر إلا ساحر) لـــيس علـــى ظاهره ، كما هو شائع ؛ قال ابن حجر : (الحصر المنقول عن الحسن ليس على ظاهره ؛ لأنه قد ينحل بالرقى والأدعية والتعويذ)[٢] .

******

(١) زاد المعاد ٤ / ١٢٤- ١٢٨ (بتصرف) .

(٢) فتح الباري ١٠ / ٢٣٣ . وانظر في السحر ومايتعلق به : فتح المجيد ، ص (٢٩١- ٣١٦ ، ٣٢٩- ٣٤٥) ، حاشية ابن قاسم ، ص (١٨٦- ٢١١ ، ٢٢٣- ٢٣٥) ، القول المفيد ٢ / ٥- ٧٦ ، ١٠٢- ١٣٩ .



تعظيم اللـــــه تعالى

تعظيم الله تعالى هو الأصل الذي يورث أهله الحرص البالغ على إفراد الله تعالى بالعبادة وتوقي الشرك بجميع أنواعه ومظاهره ؛ وكلما عظم في القلب كلما ازداد صاحبه تحقيقا للتوحيد واجتنابا للشرك ؛ وقد ذكر المؤلف رحمه الله طريقين مترابطين لتحقيق هذه الغاية العظمى :-

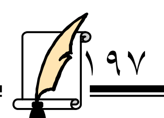
١- الحرص على كل ما يقوي هذا الأصل وينميه ، وسنسمي هذا الجانب بموجبات التعظيم .

٢- الحرص على توقي الأقوال والأفعال التي تنقض هذا الأصل أو تنقصه ؛ وسنسمي هذا الجانب بقوادح التعظيم .

موجبات التعظيم

من قدر الله حق قدره ، وعظمه حق تعظيمه حرص كل الحـــرص علـــى إفـــراد الله بالعبـــادة ، واجتناب الشرك ظاهرا وباطنا ! والنصوص الدالة على عظمة الله تعالى على أنواع ؛ منها :-

الأول : نصوص تصف عظمة الله تعالى ؛ قـــال تعـــالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ الزمر: ٦٧ ؛ روى البخاري بسنده عن ابن مسعود ﷺ قال : (جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يـــا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصـــبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلائق على إصبع ، فيقول : أنا الملك ! فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ؛ تصديقا لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : وما قدروا الله حق قـــدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عمـــا يشـــركون) ، وروى مسلم بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (يطوي الله عـــز وجل السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ! أين الجبارون أيـــن



المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضين بشماله[(١)] ، ثم يقول : أنا الملك ! أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (إن السموات السبع والأرضون وما فيهما في يد الله عز وجل إلا كخردلة في يد أحدكم !)[(٢)] ؛ قال ابن سعدي : (هذه النعوت العظيمة والأوصاف الكاملة أكبر الأدلة والبراهين على أنه المعبود وحده ، المحمود وحده ، الذي يجب أن يذل له غاية الذل والتعظيم ، وغاية الحب والتأله ، وأنه الحق وما سواه باطل . وهذه حقيقة التوحيد ولبه وروحه ، وسر الإخلاص)[(٣)] .

الثاني : نصوص تصف عظمة أكبر المخلوقات ؛ قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ النمل: ٢٦ ، وقال : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ البقرة: ٢٥٥ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : (الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى)[(٤)] ، وقال أبو ذر ﷺ : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين

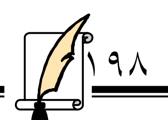
---

(١) قال ابن عثيمين : (كلمة (شمال) اختلف فيها الرواة ، فمنهم من أثبتها ، ومنهم من أسقطها ، وقد حكموا على من أثبتها بالشذوذ ، لأنه خالف ثقتين في روايتها عن ابن عمر. ومنهم من قال إن ناقلها ثقة ولكنه قالها من تصرفه . وأصل هذه التخطئة هو ما ثبت في صحيح مسلم أن الرسول ﷺ قال : المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، وهذا يقتضي أنه ليس هناك يد يمين ويد شمال . ولكن إذا كانت لفظة شمال محفوظة ، فهي عندي لا تنافي كلتا يديه يمين ، لأن المعني أن اليد الأخري ليست كيد الشمال بالنسبة للمخلوق ناقصة عن اليمني ، فقال : كلتا يديه يمين ، أي ليس فيها نقص ، ويؤيد هذا قوله في حديث آدم : اخترت يمين ربي وكلتا يديه يمين مباركة ، فلما كان الوهم يذهب إلى أن إثبات الشمال ، يعني النقص في هذه اليد دون الأخري ، قال : كلتا يديه يمين ، ويؤيده أيضاً قوله: المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن ، فإن المقصود بيان فضلهم ومرتبتهم ، وأنهم على يمين الرحمن سبحانه. وعلى كل ، فإن يديه سبحانه اثنتان بلا شك ، وكل واحدة غير الأخري ، وإذا وصفنا اليد الأخري بالشمال ، فليس المراد أنها أقل قوة من اليد اليمني ، بل كلتا يديه يمين) . القول المفيد ٣ / ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٢) ذكر الشارح أن إسناده صحيح . انظر : إبطال التنديد ، ص (٣٢٠) .

(٣) القول السديد ، ص (١٨٩ ، ١٩٠) .

(٤) قال الألباني : صحيح ، شرح الطحاوية ، ح (٢٢٩) .



ظهري فلاة من الأرض)[١] ، وعن جابر بن عبد الله ﷺ رفعه : (أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى ، حملة العرش ، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة)[٢] .

وقال ابن مسعود ﷺ : (بين السماء والتي تليها خمسمائة عام ، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام ، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام ، وبين الكرسي والماء خمس مئة عام ، والعرش فوق الماء ، والله فوق العرش ، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم)[٣] ؛ فهذه الأحاديث التي دلت على عظمة هذه المخلوقات تدل بطريق الأولى على أن خالقها أجل وأعظم وأكبر من كل شيء ، وأنه وحده المستحق للعبادة .

الثالث : نصوص تدل على حال المخلوقات العظيمة مع الله تعالى ؛ قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾ سبأ: ٢٣ ، روى البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ يبلغ به النبي ﷺ قال : (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كالسلسلة على صفوان ، ينفذهم ذلك ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا للذي قال : الحق وهو العلي الكبير) ؛ فالعظيم الذي تصعق الملائكة على قوتها من كلامه وتضرب بأجنحتها خضعانا لقوله ، لايجوز شرعا ولا عقلا أن يجعل له شريك من خلقه في شيء من كمالاته أو حقوقه[٤] !

قوادح التعظيم

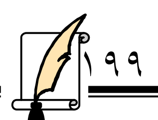
وهي الأمور التي تقدح في أصل التعظيم أو كماله ؛ وهي كثيرة ، عني المؤلف رحمه الله عناية فائقة بتتبعها ، وذكر من ذلك مايلي :-

(١) قال الألباني : صحيح ، شرح الطحاوية ، ح (٣٠٠) .

(٢) قال الألباني : صحيح ، شرح الطحاوية ، ح (٢٩٨) .

(٣) صححه ابن القيم والذهبي وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح . انظر : النهج السديد ، ص (٢٨٢) .

(٤) انظر في أدلة عظمة الله تعالى : فتح المجيد ، ص (٢٠٥ – ٢١٤ ، ٥٢٦ – ٥٣٥) ، قرة عيون الموحدين ، ص (٩٩ – ١٠٤ ، ٢٥٧ – ٢٦٣) ، القول السديد ، ص (٦٥ – ٦٩ ، ١٨٨ – ١٩١) ، القول المفيد ١ / ٣٠٧ –٣٣٠ ، ٣ / ٢٨٥ – ٣١٢ .

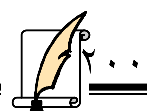


١– عدم القناعة بالحلف بالله تعالى ؛ روى ابن ماجة بسند صحيح[1] عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (سمع النبي ﷺ رجلا يحلف بأبيه ، فقال : لا تحلفوا بآبائكم ، من حلف بالله فليصدق ، ومن حلف له بالله فليرض ، ومن لم يرض بالله فليس من الله) ؛ فعدم القناعة بالحلف بالله تدل (على قلة تعظيمه لجناب الربوبية ، إذ القلب الممتلئ بمعرفة عظمة الله وجلاله وعزته وكبريائه لا يفعل ذلك)[2]. ومحل ذلك إذا كان الحالف ثقة في الظاهر ؛ لما رواه مسلم بسنده عن رافع بن خديج ﷺ قال : (خرج عبد الله بن سهل بن زيد ومحيصة بن مسعود بن زيد حتى إذا كانا بخيبر تفرقا ... الحديث ، وفيه : فتبرئكم يهود بخمسين يمينا . قالوا : وكيف نقبل أيمان قوم كفار ! فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ أعطى عقله) ؛ فأقرهم النبي ﷺ على عدم قبول أيمان يهود ، فعلم أن الحكم مختص بمن كان ثقة ظاهرا [3] .قال ابن سعدي : (ويراد بهذا إذا توجهت اليمين على خصمك وهو معروف بالصدق أو ظاهره الخير والعدالة فيحلف ، فإنه يتعين عليك الرضا والقناعة بيمينه ، لأنه ليس عندك يقين يعارض صدقه . وما كان عليه المسلمون من تعظيم ربهم وإجلاله يوجب عليك أن ترضى بالحلف بالله . وكذلك لو بذلت له اليمين بالله فلم يرض إلا بالحلف بالطلاق أو دعاء الخصم على نفسه بالعقوبات ، فهو داخل في الوعيد ؛ لأن ذلك سوء أدب وترك لتعظيم الله ، واستدراك على حكم الله ورسوله . وأما من عرف منه الفجور والكذب وحلف على ما تيقن كذبه فيه فإنه لا يدخل تكذيبه في الوعيد ؛ للعلم بكذبه ، وأنه ليس في قلبه من تعظيم الله ما يطمئن الناس إلى يمينه ، فتعين إخراج هذا النوع من الوعيد لأن حالته متيقنة والله أعلم)[4] .

٢– التسمي بأسماء التعظيم التي لا تليق إلا بالله تعالى ؛ روى مسلم بسنده عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : (إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله عز وجل) ؛ وقد ألحق العلماء بملك الأملاك كل ما كان بمعناه ؛ كشاهان شاه وقاضي القضاة ؛ قال ابن حجر

---

(١) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٧٢٤٧) .
(٢) تيسير العزيز الحميد ، ص (٥٩٦) .
(٣) انظر : القول المفيد ٢ / ٣٣٤ – ٣٣٧ .
(٤) القول السديد ، ص (١٤٢ ، ١٤٣) .



: (استدل بهذا الحديث على تحريم التسمي بهذا الاسم لورود الوعيد الشديد ، ويلتحق به ما في معناه مثل خالق الخلق وأحكم الحاكمين وسلطان السلاطين وأمير الأمراء ، وقيل : يلتحق به أيضا من تسمى بشيء من أسماء الله الخاصة به كالرحمن والقدوس والجبار . وهل يلتحق به من تسمى قاضي القضاة أو حاكم الحكام ؟ اختلف العلماء في ذلك فقال الزمخشري في قوله تعالى أحكم الحاكمين أي أعدل الحكام وأعلمهم ، إذ لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل ، قال : ورب غريق في الجهل والجور من مقلدي زماننا قد لقب أقضى القضاة ومعناه أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر ، وتعقبه ابن المنير بحديث أقضاكم علي قال : فيستفاد منه أن لا حرج على من أطلق على قاض يكون أعدل القضاة أو أعلمهم في زمانه أقضى القضاة ، أو يريد إقليمه أو بلده . وقد تعقب كلام ابن المنير علم الدين العراقي فصوب ما ذكره الزمخشري من المنع ورد ما احتج به من قضية علي بأن التفضيل في ذلك وقع في حق من خوطب به ومن يلتحق بهم فليس مساويا لإطلاق التفضيل بالألف واللام ، قال ولا يخفى ما في إطلاق ذلك من الجراءة وسوء الأدب . ومن النوادر أن القاضي عز الدين بن جماعة قال : إنه رأى أباه في المنام فسأله عن حاله فقال : ما كان علي أضر من هذا الاسم ، فأمر الموقعين أن لا يكتبوا له في السجلات قاضي القضاة بل قاضي المسلمين . وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة : يلتحق بملك الأملاك قاضي القضاة وإن كان اشتهر في بلاد الشرق من قديم الزمان إطلاق ذلك على كبير القضاة ، وقد سلم أهل المغرب من ذلك فاسم كبير القضاة عندهم قاضي الجماعة)[1]. ويتعلق بهذه المسألة أمران مهمان :-

أ- في قوله ﷺ (إن أخنع اسم عند الله) دلالة على معاملة هذا المتعاظم بنقيض قصده ؛ فتعظمه في نفسه وتعظيم الناس له بما ليس له أهل وضعه عند الله يوم القيامة فصار أبغض الخلق إلى الله وأحقرهم[2] . وفي المقابل فأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن ؛ لدلالتها على التذلل والخضوع[3] .

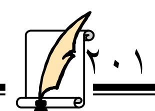
ب- يلي هذا الاسم في القبح اسم سيد الناس وسيد الكل ؛ لأن هذه الأسماء لا تصدق إلا على

---

(١) فتح الباري ١٠ / ٥٩٠ (باختصار) .

(٢) فتح المجيد ، ص (٤٤٧) .

(٣) انظر : القول المفيد ٣ / ٧ .



الرسول ﷺ ؛ فهو سيد ولد آدم ؛ فمن تسمى بواحد منها فقد ادعى ما ليس له ، واعتدى على ما هو من خصائص المصطفى ﷺ[(١)] .

٣- التكني بوصف[(٢)] ينافي احترام أسماء الله وتعظيمها ؛ كأبي الحكم ؛ روى أبو داود بسند صحيح[(٣)]عن أبي شريح ﷺ أنه لما وفد إلى رسول الله ﷺ مع قومه سمعهم يكنونه بأبي الحكم فدعاه رسول الله ﷺ فقال : إن الله هو الحكم وإليه الحكم ، فلم تكنى أبا الحكم ؟ فقال : إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين[(٤)] فقال رسول الله ﷺ ما أحسن هذا فما لك من الولد ؟ قال : لي شريح ومسلم وعبد الله قال فمن أكبرهم ؟ قلت : شريح ، قال فأنت أبو شريح) ؛ فغير النبي كنيته ، التي لوحظ فيها معنى الحكم والفصل بين الناس ؛ تعظيما لأسماء الله تعالى ؛ يوضح ذلك أن أسماء الله تعالى نوعان : -

أ- نوع يختص بالله وحده ؛ كاسم الله والرحمن ، ورب العالمين ، فهذا لا يسمى بها غيره ، وإن سمي بواحد منها وجب تغييره .

ب- ونوع لا يختص بالله ؛ كاسم الرحيم والسميع والبصير والحكم ؛ فإن لوحظ فيها معنى الصفة منع التسمي بها وإن لم تلاحظ جاز التسمي بها ؛ ولهذا منع النبي أبا شريح من اسم الحكم دون غيره ممن اسمه الحكم ؛ كالحكم بن العاص وغيره ؛ لأنه لوحظ في كنية أبي شريح معنى الصفة ؛ وهي الحكم بين الناس ، فصار بذلك مشاركا لله في أسمائه ، بخلاف الحكم بن العاص وغيره ؛ فأسماؤهم إنما كانت أعلاما محضة ، لم يلاحظ فيها الوصف ؛ ولهذا أقرها النبي و لم يغيرها ؛ لانتفاء المشاركة في الأسماء الحسنى . والله أعلم[(٥)] .

---

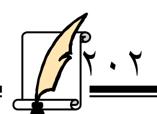
(١) انظر : تيسير العزيز الحميد ، ص (٦١٣) .

(٢) الكنية قد تكون بوصف ؛ كأبي الحكم ، وقد تكون بولد ، كأبي سلمة ، وقد تكون بملابس ، كأبي هريرة ، وقد تكون للعلمية الصرفة ، كأبي بكر . انظر : تيسير العزيز الحميد ، ص (٦١٥) .

(٣) انظر : النهج السديد ، ص (٢٣٤) .

(٤) في هذه الجملة دلالة على أن ما كان يفعله أبو شريح مع قومه صلحا لاحكما ؛ لأن مبنى الصلح على الرضا ، ومبنى الحكم على الإلزام ؛ ولهذا استحسن النبي فعله . أما من حكم بين الناس برأيه أو سلومه فإنه كفر إذا استقر وغلب على من تصدى لذلك . انظر : قرة عيون الموحدين ، ص (٢١٥) ، فتح المجيد ، ص (٤٥٠) .

(٥) انظر : القول المفيد ٣ / ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ .



٤- الدعاء بألفاظ تنافي كمال الله تعالى وعظمته ؛ لإيهامها بنقص أو حاجة أو فقر ؛ روى البخاري بسنده عن ابن مسعود ﷺ قال : (كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا السلام على الله من عباده ، السلام على فلان وفلان ، فقال النبي ﷺ : لا تقولوا السلام على الله ، فإن الله هو السلام ، ولكن قولوا : التحيات لله والصلوات والطيبات ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ؛ فإنكم إذا قلتم أصاب كل عبد في السماء أو بين السماء والأرض ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، ثم يتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو) ؛ فنهى عن قول : السلام على الله ؛ لأن السلام دعاء بالسلامة من كل نقص وعيب ، وهذا يوهم النقص في حق الله تعالى ؛ لأنه لا يدعى بالسلامة إلا لمن كان قابلا للنقص والعيب ! والله هو السلام ؛ أي السالم من كل نقص وعيب ، والسلام يطلب منه ولا يطلب له[1] .

ومما ينافي عظمة الله ويوهم بالنقص من الأدعية الدعاء المعلق على المشيئة ؛ روى البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : (لا يقل أحدكم : اللهم اغفر لي إن شئت ، ارحمني إن شئت ، ارزقني إن شئت ، وليعزم مسألته ؛ إنه يفعل ما يشاء لا مكره له) ، وروى مسلم بسنده عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (إذا دعا أحدكم فلا يقل : اللهم اغفر لي إن شئت ، ولكن ليعزم المسألة ، وليعظم الرغبة ؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه) ؛ فأمر بالجزم في الطلب وتعظيم الرغبة ، ونهى عن تعليق الدعاء على المشيئة ؛ لأنه يوهم بأن الله قد يعطي السائل وهو كاره ، وأن المطالب العظيمة قد تكرثه أو تثقله ؛ كما يكون من المخلوق الذي يكرثه كثير مما يعطيه ، ويجيب السائل وهو كاره ؛ لرغبة أو رهبة أو حاجة . وثمت أمر آخر أشار إليه الشراح ؛ وهو أن تعليق الدعاء على المشيئة يدل على فتور رغبة الداعي وقلة اهتمامه بالمطلوب ، ومن كان هذا حاله لم يتحقق له الاضطرار والافتقار ، وكان ذلك دليلا على قلة معرفته بذنوبه ، وعظمة رحمة ربه . والظاهر من سياق الحديث أن مناط النهي يرجع إلى الرب لا إلى العبد ، وأن العلة الأولى هي المقصودة في الحديث ، والله أعلم[2] .

---

(١) انظر : القول المفيد ٣ / ٨٣ .

(٢) انظر : تيسير العزيز الحميد ، ص (٦٥١ ، ٦٥٢) ، فتح المجيد ، ص (٤٧١) ، القول المفيد ٣ / ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ .

ومما ينافي تعظيم الله من الألفاظ أن يقول السيد عبدي أوأمتي وأن يقول العبـــد ربي ؛ لأن فيهـــا تعظيما لا يليق بالمخلوق ؛ روى البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : (لا يقل أحـــدكم أطعم ربك ، وضئ ربك ، اسق ربك ، وليقل : سيدي مولاي ، ولا يقل : أحدكم عبدي أمتي وليقل فتاي وفتاتي وغلامي) ؛ فنهى عن هذه الكلمات تعظيما للرب ، وحسما لمادة التشـــريك بين الخالق والمخلوق حتى في الألفاظ[1] ؛ قال النووي : (قال العلماء مقصود الحـــديث شـــيئان أحدهما نهى المملوك أن يقول لسيده ربي لأن الربوبية انما حقيقتها لله تعالى لأن الرب هو المالك أو القائم بالشيء ولا يوجد حقيقة هذا إلا في الله تعالى فان قيل فقد قال النبي ﷺ في أشراط الســـاعة أن تلد الامة ربتها أو ربها ؟ فالجواب من وجهين أحدهما : أن الحديث الثاني لبيان الجـــواز وأن النهي في الأول للأدب وكراهة التتريه لا للتحريم . والثاني : أن المراد النهي عـــن الاكثـــار مـــن استعمال هذه اللفظة واتخاذها عادة شائعة ولم ينه عن اطلاقها في نادر من الأحـــوال . واختـــار القاضي هذا الجواب ولا نهي في قول المملوك سيدي لقوله ﷺ : ليقل سيدي ؛ لأن لفظة الســـيد غير مختصة بالله تعالى اختصاص الرب ، ولا مستعملة فيه كاستعمالها حتى نقل القاضي عن مالك أنه كره الدعاء بسيدي ولم يأت تسمية الله تعالى بالسيد في القرآن ولا في حديث متواتر وقد قال النبي ﷺ : إن ابني هذا سيد ، وقوموا إلى سيدكم ، يعني سعد بن معاذ وفي الحديث الآخر اسمعوا ما يقول سيدكم ؛ يعني سعد بن عبادة ، فليس في قول العبد سيدي اشـــكال ولا لـــبس لأنـــه يستعمله غير العبد والأمة ، ولا بأس أيضا بقول العبد لسيده مولاي ؛ فان المولى وقع على ســـتة عشر معنى .. منها الناصر ، والمالك قال القاضي : وأما قوله في كتاب مسلم في رواية وكيع وأبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رفعه ولا يقل العبد لسيده مولاي فقد اختلـــف الرواة عن الأعمش في ذكر هذه اللفظة فلم يذكرها عنه آخرون وحذفها أصح والله أعلم . الثاني يكره للسيد أن يقول لمملوكه عبدي وأمتي بل يقول غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي لأن حقيقـــة العبودية انما يستحقها الله تعالى ولأن فيها تعظيما بما لا يليق بالمخلوق استعماله لنفسه وقد بـــين النبي ﷺ العلة في ذلك فقال :كلكم عبيد الله فنهى عن التطاول في اللفظ كما نهى عن التطاول في الأفعال وفي اسبال الازار وغيره وأما غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي فليست دالـــة علـــى الملـــك

(١) انظر : فتح المجيد ، ص (٤٣٧) .



كدلالة عبدي مع إنها تطلق على الحر والمملوك وإنما هي للاختصاص قال الله تعالى : واذ قال موسى لفتاه ، وقال لفتيانه ، وقال لفتيته ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم . وأما استعمال الجارية في الحرة الصغيرة فمشهور معروف في الجاهلية والإسلام والظاهر أن المراد بالنهي من استعمله على جهة التعاظم والارتفاع لا للوصف والتعريف والله أعلم)[١] .

٦- رد من سأل أو استجار بالله ؛ روى النسائي بسند صحيح[٢] عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سألكم بالله فأعطوه ، ومن استجار بالله فأجيروه ، ومن آتى إليكم معروفا فكافئوه ، فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه) ، وروى أبو داود بسند جيد[٣] عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا : (من استعاذ بالله ؛ فأعيذوه ومن سألكم بوجه الله فأعطوه) ، وروى النسائي بسند صحيح[٤] عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا : (ألا أخبركم بخير الناس منزلة ؟ قلنا : بلى . قال : رجل ممسك برأس فرسه ، أو قال : فرس في سبيل الله حتى يموت أو يقتل . قال : فأخبركم بالذي يليه ؟ فقلنا : نعم يا رسول الله ! قال : امرؤ معتزل في شعب ؛ يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعتزل الناس . قال : فأخبركم بشر الناس منزلة ؟ قلنا : نعم يا رسول الله ! قال : الذي يسأل بالله العظيم ولا يعطي به) .ويتعلق بهذا الأصل مسألتان :-

أ- في الحديث دلالة ظاهرة على وجوب إعطاء من سأل بالله ؛ إعظاما وإجلالا لله تعالى ؛ ويقوي ذلك ما روى الطبراني بإسناد حسن[٥] عن أبي موسى ﷺ مرفوعا : (ملعون من سأل بوجه الله ، وملعون من يسأل بوجه الله ثم منع سائله ما لم يسأله هجرا) ؛ والهجر بضم الهاء وسكون الجيم أي أمرا قبيحا لا يليق ؛ وكأن المراد بذلك الإثم ؛ فعلم من نص الحديث ، ومن عمومات الكتاب والسنة أن وجوب إعطاء من سأل بالله أو بوجهه مقيد بألا يكون المطلوب إثما ، وألا يلحق

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٥ / ٦ ، ٧ .
(٢) انظر : النهج السديد ، ص (٢٤٩) .
(٣) انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ٤٥٣ ، ح (٢٥٣) .
(٤) انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ٤٥٦ ، ح (٢٥٥) .
(٥) انظر : صحيح الجامع الصغير ٢ / ١٠٢٤ ، ح (٥٨٩٠) .

المسؤول بإجابته مشقة أو ضرر[١] .

ب- قد يفهم ﷺ من قوله : (ومن سألكم بوجه الله فأعطوه) جواز السؤال بوجه الله تعالى إلا أن هذا الفهم يعارضه ما روى الطبراني بإسناد حسن[٢] عن أبي موسى رضي الله عنه مرفوعا : (ملعون من سأل بوجه الله) ؛ فإنه دليل على تحريم السؤال بوجه الله تعالى ، وعلى أن هذا السؤال من الكبائر ! واستشكل على ذلك ما ثبت من استعاذة النبي ﷺ بوجه الله تعالى ! وقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة :-

منها أن النهي عن السؤال بوجه الله مختص بسؤال المخلوق دون الخالق ؛ ويقوي هذا المعنى سياق الحديث فإنه في حق السائل والمسؤول من المخلوقين ؛ فالسائل لا يحل له أن يسأل مخلوقا بوجه الله ، والمسؤول لا يحل له إذا سئل بوجه الله أن يمنع سائله ما لم يسأل هجرا .

ومنها أن النهي عن السؤال بوجه الله مختص بالأمور الدنيوية دون الأخروية ؛ فلا يحل لأحد أن يسأل بوجه الله شيئا من حطام الدنيا ؛ تعظيما وإجلالا لوجه الله ، وإنما يسأل به أمور الآخرة ، ويقوي هذا ما روى أبو داود بسنده عن جابر رضي الله عنه مرفوعا : (لا يسأل بوجه الله إلا الجنة) ؛ أي الجنة وما يقرب إليها ، فيكون ذكر الجنة تنبيها على المطالب الأخروية لا تقييدا وتخصيصا بالجنة ! إلا أن حديث جابر ضعيف الإسناد[٣]؛ فيبقى الاستدلال به محل نظر ، والله أعلم[٤].

٧- إساءة الظن بالله تعالى ؛ فمن قدر الله حق قدره ، وعرف عظمة الله وكمال صفاته ، أحسن الظن بربه ؛ قال سليمان بن عبد الله : (مبنى حسن الظن على العلم برحمة الله وعزته وإحسانه وقدرته وعلمه وحسن اختياره وقوة المتوكل عليه ، فإذا تم العلم بذلك أثمر له حسن الظن بالله)[٥] ؛ وهو ينبني أيضا على معرفة العبد بنقصه وعجزه وفقره ؛ وقد أشار المؤلف إلى

---

(١) انظر : سبل السلام ٤ / ٢٦٠ ، تيسير العزيز الحميد ، ص (٦٥٧ ، ٦٥٨) ، فتح المجيد ، (٤٧٤) ، قرة عيون الموحدين ، ص (٢٣٢) ، القول المفيد ، ص ٣ / ١٠٩ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ١ / ٤٥٧ .

(٢) انظر : صحيح الجامع الصغير ٢ / ١٠٢٤ ، ح (٥٨٩٠) .

(٣) انظر : ضعيف الجامع الصغير ٦/ ٩٢ ، ح (٦٣٦٦) .

(٤) انظر : فيض القدير ٦ / ٤ ، التيسير للمناوي ٢ / ٧٣٢ ، تيسير العزيز الحميد ، ص (٦٦٠) ، فتح المجيد ، ص (٤٧٧) ، قرة عيون الموحدين ، ص (٢٢٣) ، القول السديد ، ص (١٦٥) .

(٥) تيسير العزيز الحميد ، ص (٦٧١) .

ذلك في المسائل[(١)] ؛ فمن عرف كمال ربه ، وعرف نقص نفسه أحسن الظن بربه ، وأساء ظنه بنفسه ، ومن نقص علمه بربه أو نفسه أساء الظن بقدر ما فاته من هذا العلم ؛ وقد ذم الله تعالى من أساء الظن بربه ؛ وظن به سبحانه غير ما يليق بذاته المبرأة من كل نقص وعيب ، وما يليق بحكمته وحمده ، ووعده الصادق ، قال تعالى : ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ آل عمران: ١٥٤ ؛ وقال ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ الفتح: ٦ ؛ وظن الجاهلية هو المنسوب إلى أهل الجهل ، وظن غير الحق ؛ وقد ذكر أهل العلم له أمثلة كثيرة ، منها :-

أ- الظن بأن الله لا ينصر دينه ، وأنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة ، يضمحل معها الحق بالكلية .

ب- القنوط من رحمة الله تعالى ، واليأس من روحه ، والظن بأن الذنب قد يصل لدرجة لا تجدي معها توبة ، ولا تسعها رحمة .

ج- الظن بأن من صدق الرغبة والرهبة ، وتضرع لربه وتوكل عليه أنه يخيبه ولا يعطيه سؤله ، فإن هذا ظن غير ما يليق بأسماء الله وصفاته ووعده الصادق .

د- الظن بأن ما أخبر الله به عن نفسه من الأسماء والصفات ظاهره التشبيه والتمثيل ، وأنه إنما رمز للمراد منها بإشارات بعيدة لا يفهما إلا القليل من الناس ، فإن هذا ظن غير ما يليق بالله تعالى وبيان كتابه .

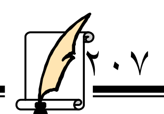
ه- إنكار القدر أو الحكمة ، أو سوء الظن في حكمة الرب ، وعدله في عطائه ومنعه . وهذا كثير غالب في الناس فعامتهم يعتقد أنه مبخوس الحظ ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله ! ولو فتشت من فتشت لوجدت عند تعنتا للقدر وملامة له ، فمستقل ومستكثر ، وفتش نفسك ، هل أنت سالم ، فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالك ناجيا[(٢)] !!

٨- كثرة الحلف بالله تعالى ؛ قال تعالى : ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ المائدة: ٨٩ ؛ أي لا تتركوها بغير كفارة ، أو لا تحلفوا ، أو لا تحنثوا . والآية تعم كل هذه المعاني ؛ فيكون من معنى حفظ اليمين

---

(١) انظر : كتاب التوحيد مع شرحه القول السديد ، ص (١٧٢) .

(٢) انظر : تيسير العزيز الحميد ، (٦٥٧ – ٦٨٢) .



عدم كثرة الحلف ؛ ومناط النهي يرجع إلى أن كثرة الحلف بالله تدل على أنه ليس في قلب الحالف من تعظيم الله ما يقتضي هيبة الحلف بالله[١] . والمراد بعدم كثرة الحلف ما كان معقودا ومقصودا[٢] ؛ لقوله تعالى :﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾ البقرة: ٢٢٥ . ومما استدل به المؤلف على النهي عن كثرة الحلف مع آية المائدة الأدلة التالية :-

أ- عن أبي هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة) رواه البخاري ومسلم . والحلف يحتمل أن يكون المراد به اليمين الكاذبة[٣] ؛ لما روى الإمام أحمد بإسناد صحيح[٤] عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : (اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ممحقة للكسب) . ويحتمل أن يكون المراد كثرته ، لما روى مسلم عن أبي قتادة الأنصاري ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (إياكم وكثرة الحلف في البيع فإنه ينفق ثم يمحق) ، ولما روى الطبراني بإسناد صحيح عن سلمان[٥] ﷺ (ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة و لا يزكيهم و لهم عذاب أليم ؛ أشيمط زان ، وعائل مستكبر ، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمنه) . وقد استدل المؤلف بحديث سلمان ﷺ على ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون (ولكن هذا ليس على إطلاقه ، بل النبي ﷺ حلف ولم يستحلف في مواضع عديدة ، بل أمره الله سبحانه أن يحلف بقوله : (ويستنبؤنك أحق هو قل إي وربي) ، وهو لم يستحلف ، وفي قوله : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلي وربي لتبعثن) ، وفي قوله : (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلي وربي لتأتينكم) ؛ وعليه فإن الحلف إذا دعت الحاجة إليه أو اقتضته المصلحة ، فإنه جائز بل قد يكون مندوباً إليه ، كحلف النبي ﷺ في قصة المخزومية ، حيث قال : (وأيم الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) ، فقد وقع موقعاً عظيماً ، من

---

(١) انظر : فتح المجيد ، ص (٥٠٦) ، قرة عيون الموحدين ، ص (٢٤٥) ، القول السديد ، ص (١٧٩) ، القول المفيد ٣ / ٢١٩ – ٢٢٢ .

(٢) انظر : القول المفيد ٣ / ٢٢٠ .

(٣) انظر : القول المفيد ٣ / ٢٢٢ .

(٤) انظر : تخريج أحاديث المسند ، ح (٧٢٠٧) .

(٥) لعله سلمان الفارسي ، ويحتمل أنه سلمان بن عامر الضبي . انظر : فتح المجيد ، (٥٠٧) .

هؤلاء القوم الذين أهمهم شأن المخزومية وممن يأتي بعدهم)[١] .

ب- عن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال : (خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته) رواه البخاري ومسلم . فذمهم على التسارع والتساهل في الشهادة واليمين ؛ قال ابن عثيمين : (قوله : تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته . اختلف في ذلك وجهين :

الأول : أنه لقلة الثقة بهم لا يشهدون إلا بيمين ، فتارة تسبق الشهادة وتارة تسبق اليمين .

الثاني : أنه كناية عن كون هؤلاء لا يبالون بالشهادة ولا باليمين ، حتى تكون الشهادة واليمين في حقهم كأنهما متسابقتان . والمعنيان لا يتنافيان ، فيحمل عليهما الحديث جميعاً)[٢] .

٩- نكث العهود والمواثيق ؛ والتأكيد على الوفاء بها ؛ تعظيما لاسم الله تعالى ؛ الذي وثقت بذكره ؛ قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ ﴿٩١﴾ ﴾ النحل: ٩١ ؛ أي شاهدا وحافظا وضامنا ومتكفلا بوفائكم بالعهد[٣] ؛ ويدخل في مسمى العهد كل عهد يقع من الإنسان من غير فرق بين عهد البيعة وغيره[٤] ؛ ولهذا كان الغدر ونكث العهد مما ينافي كمال الإيمان الواجب ؛ لدلالته على قلة تعظيم الناكث لربه . وقد جاء تحريم الغدر بطرق بليغة ، منها :-

أ- تقبيح حال الناكث ، وتشبيهه بما يدل على شدة حماقته وسفاهته ؛ قال تعالى :﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ النحل: ٩٢ ؛ قال ابن عطية : (شبهت هذه الآية الذي يحلف أو يعاهد أو يبرم عقدة بالمرأة التي تغزل غزلها وتفتله محكما ، وشبه الذي ينقض عهده بعد الإحكام بتلك الغازلة إذا نقضت قوى ذلك الغزل فحلته بعد إبرامه ، ويروى أن امرأة حمقاء كانت بمكة تسمى ريطة بنت سعد كانت تفعل ذلك فبها وقع التشبيه)[٥] . والمعنى ان هذه

---

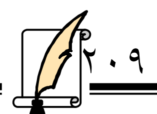
(١) القول المفيد ٣ / ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٢) القول المفيد ٣ / ٢٣٤ .

(٣) انظر : تفسير القرطبي ١٠ / ١٧٠ . تفسير الخازن ٤ / ١١١ ، تفسير ابن عطيه ٣ / ٤١٧

(٤) انظر : تفسير ابن عطية ٣ / ٤١٧ ، فتح القدير للشوكاني ٣ / ١٩٠ .

(٥) تفسير ابن عطية ٣ / ٤١٧ .



المراة لم تكف عن العمل ولا حين عملت كفت عن النقض فكذلك من نقض العهد لا تركه ولا حين عاهد وفى به"[١] .

ب- أن الغدر ونكث العهد يفضي إلى الصد عن دين الله ؛ فالكافر إذا رأى المؤمن عاهد بالله ثم غدر لم يبق له وثوق بدينه ، فا نصد بسببه عن الدخول في الإسلام"[٢] ؛ قال تعـالى : ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾﴾ النحل: ٩٤ ؛ والدخل المكر والخديعة ؛ وذلك أن المحلوف له مطمئن لأيمان العهد فيتمكن الحالف من ضره بما يريد"[٣] . وقيل إن الآية خاصة بنكث البيعة مع الرسول ﷺ ؛ لأن الوعيد الذي في الاية لا يليق بغيرها ؛ قال الواحدي : قال المفسرون : وهذا في نهي الذين بايعوا رسول الله ﷺ عن نقض العهد على الإسلام ونصرة الدين واستدلوا على هذا التخصيص بما في قوله : فتزل قدم بعد ثبوتها من المبالغة وبما في قوله : وتذوقوا السوء بما صددتم ؛ لأنهم إذا نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ صدوا غيرهم عن الدخول في الإسلام ، وعلى تسليم أن هذه الأيمان مع رسول الله ﷺ هي سبب نزول هذه الآية فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)[٤] .

ج- النهي عن الغدر في الحرب ؛ روى مسلم بسنده عن بريدة ﷺ قال كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال : (اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا) ؛ قال ابن عثيمين : (لنا مع المشركين ثلاث حالات . الحال الأول : أن لا يكون بيننا وبينهم عهد ، فيجب قتالهم بعد دعوتهم إلى الإسلام وإبائهم عنه وعن بذل الجزية ، بشرط قدرتنا على ذلك .

الحال الثانية : أن يكون بيننا وبينهم عهد محفوظ يستقيمون فيه ، فهنا يجب الوفاء لهم بعدهم ، لقوله تعالى : فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ، وقوله : فأتموا إليهم عهدهم

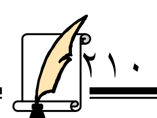
---

(١) تفسير الخازن ٤ / ١١٢ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٢ / ٥٨٥ .

(٣) انظر : تفسير ابن عطية ٣ / ٤١٨ ، فتح القدير ٣ / ١٩٠ .

(٤) نقلا عن فتح القدير ٣ / ١٩١ ، وانظر : تفسير الخازن ٤ / ١١٢ .



إلى مدهم.

الحالة الثالثة : أن يكون بيننا وبينهم عهد نخاف خيانتهم فيه ، فهنا يجب أن ننبذ إليهم العهد ونخبرهم أنه لا عهد بيننا ، لقوله تعالى : وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين)[1] .

د- تحريم إعطاء عهد الله ورسوله ، وإنما يعطى عهد القائد وعهد أصحابه ؛ تعظيما لعهد الله ورسوله ؛ فلو نكث جاهل أو معتد كان نقض عهد الجيش أهون من نقض عهد الله ورسوله ؛ روى مسلم بسنده عن بريدة ﷺ قال كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال اغزوا باسم الله في سبيل الله ... الحديث ، وفيه وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ؛ فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله) ؛ قال عبدالرحمن بن حسن :(الذمة : العهد ، وتخفر: تنقض . يقال : أخفرت الرجل : إذا نقضت عهده ، وخفرته : أجرته ، ومعناه : أنه خاف من نقض من لم يعرف حق الوفاء بالعهد ، كجملة الأعراب ، فكأنه يقول : إن وقع نقض من متعد معتد ، كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد اللّه تعالى . واللّه أعلم)[2] .

ه- عظم وعيد الناكث يوم القيامة ؛ روى البخاري بسنده عن نافع قال لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر رضي الله عنهما حشمه وولده فقال إني سمعت النبي ﷺ يقول : (ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة ، وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله ، وإني لا أعلم غدرا أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم ينصب له القتال ، وإني لا أعلم أحدا منكم خلعه ولا بايع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه) . وهذا مثال من أمثلة كثيرة لتعظيم السلف للعهد ، ومن ذلك ما ذكره ابن كثير من قصة معاوية ﷺ لما كان بينه وبين ملك الروم أَمَدٌ ، فسار معاوية ﷺ إليهم في آخر الأجل ، حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم ، أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون ، فقال له عمرو بن عَبسَة : الله أكبر يا معاوية ، وفاء لا

---

(١) القول المفيد ٣ / ٢٤٤ .

(٢) فتح المجيد ، ص (٥١٥ ، ٥١٦) .

غدرًا ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عُقدة حتى ينقضي أمَدها) . فرجع معاوية بالجيش، رضي الله عنه وأرضاه[1] .

١٠- تحريم الإقسام على الله أو الاستشفاع به عند أحد من خلقه ؛ روى مسلم بسنده عن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حدث : (أن رجلا قال : والله لا يغفر الله لفلان ! وإن الله تعالى قال : من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان ؛ فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك) ؛ والتألي الحلف ، يقال آلى يولي إيلاء ، وتألى يتألى تأليا ، والاسم الألية[2] . يفسر مقصود الحديث ما رواه أبو داود بسند حسن[3] عن أبو هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول : (كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول أقصر فوجده يوما على ذنب فقال له أقصر فقال خلني وربي أبعثت علي رقيبا فقال والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الله الجنة فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد أكنت بي عالما أو كنت على ما في يدي قادرا وقال للمذنب اذهب فادخل الجنة برحمتي وقال للآخر اذهبوا به إلى النار قال أبو هريرة والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته) ؛ فكأن التغليظ في الإقسام على الله خاص بما إذا كان على وجه الحكم على الله فيما يفعله بعباده من ثواب أو عقاب[4] ، أو كان على وجه استعظام ذنب من الذنوب على سعة المغفرة ! وأما إن كان على وجه الثقة بالله تعالى فإنه جائز لمن كان من أهل هذه الثقة[5] ؛ روى البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه (أن الربيع وهي ابنة النضر كسرت ثنية جارية فطلبوا الأرش وطلبوا العفو فأبوا فأتوا النبي ﷺ فأمرهم بالقصاص فقال أنس بن النضر أتكسر ثنية الربيع يا رسول الله لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها فقال يا أنس كتاب الله القصاص فرضي القوم

---

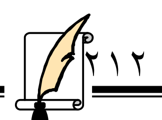
(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٥٨٤ .

(٢) انظر : النهاية ، لابن الأثير ١ / ٦٢ .

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية بتخريج الألباني ، ص (٣١٩) ، ح (٣٦٤) .

(٤) لهذا المعنى شدد علماء السلف في تكفير المعين ؛ وقالوا : لا نشهد على معين بالكفر إلا إذا تمت فيه شروط التكفير وانتفت موانع ؛ لأن الشهادة على معين بالكفر تعني القطع بأن الله لا يغفر له ولا يرحمه ، وهو يشبه فعل هذا المجتهد من بني إسرائيل مع أخيه المذنب . انظر : شرح الطحاوية ، ص (٣١٨ ، ٣١٩) .

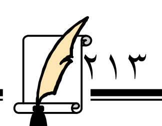
(٥) انظر : النهاية لابن الأثير ١ / ٦٢ ، القول المفيد ٣ / ٢٦١ ، ٢٦٢ .



وعفوا فقال النبي ﷺ : إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره) ، وروى مسلم بسنده عن أسير بن جابر قال كان عمر بن الخطاب ؓ إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم أفيكم أويس بن عامر حتى أتى على أويس فقال أنت أويس بن عامر قال نعم قال من مراد ثم من قرن قال نعم قال فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم قال نعم قال لك والدة قال نعم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل فاستغفر لي فاستغفر له) ، وروى الترمذي بسند صحيح[1] عن أنس بن مالك ؓ قال قال رسول الله ﷺ : (كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك)[2] .قال ابن تيمية : (البراء بن مالك قتل مائة رجل مبارزة غير من شرك في دمه ، وكانو يقولون في المغازى للبراء بن مالك يا براء أقسم على ربك فيقسم على ربه فيهزم الكفار ثم في اخر غزوة غزاها قال أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد فاستشهد رضي الله عنه)[3] ؛ فهؤلاء وأمثالهم هم الذين يقسمون على الله ؛ ولا ينبغي أن يتجرأ على هذا المقام من ليس من أهله ، والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم !

وأما الاستشفاع بالله عند أحد من خلقه فقد ذكر المؤلف في النهي عنه حديث جبير بن مطعم ؓ قال : (جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله نهكت الأنفس ، وجاع العيال ، وهلكت الأموال ، فاستسق لنا ربك ، فإنا نستشفع بالله عليك وبك على الله ، فقال النبي ﷺ : سبحان الله ، سبحان الله !! فما زال يسبح ، حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، ثم قال النبي : ويحك أتدري ما الله ؟ إن شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع بالله على أحد) . رواه أبوداود وغيره ، وفي إسناده ضعف[4] ، إلا أن معناه صحيح ؛ فإن الله تعالى أعظم شأنا من أن

(١) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٤٥٧٢) .
(٢) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٤٥٧٣) .
(٣) منهاج السنة ٤ / ٤٨١ ، ٤٨٢ (باختصار) .
(٤) انظر : ظلال الجنة في تخريج السنة ١ / ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ح (٥٧٥ ، ٥٧٦) .



يتوسل به إلى خلقه ؛ لأن رتبة المتوسل به غالبا دون رتبة المتوسل إليه[١] . والله أعلم .

السب والاستهزاء

من أعظم ما ينافي تعظيم الله تعالى سب الله تعالى . وهو يقع على وجوه :-

١- أن يقع تدينا واعتقادا ؛ كقول بعض الكفرة : إن لله صاحبة أو ولدا .

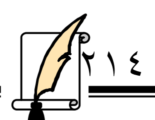
٢- أن يقع استخفافا وانتقاصا ؛ فهذا يستلزم الردة المغلظة ، ويقتل صاحبه بلا استتابة .

٣- أن يقع على وجه غير مقصود ؛ كسب الدهر أو الريح ، لأنهما خلق مسخر ، وسبهما إنما يؤول إلى سب من خلقهما وسخرهما بأمره ! وهذا المآل يخفى على كثير من المسلمين ؛ ولهذا أفرد المؤلف بابين للتحذير منهما ، وبيان مآلهما ؛ ففي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ مرفوعـــا : (قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل و النهار) ، وروى الترمذي بسند صحيح[٢] عن أبي بن كعب ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : (لا تسبوا الريح ، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به) .

وهكذا الاستهزاء بشيء من دين الله تعالى أو ثوابه أو عقابه فإنه من أشد الأمور منافاة لتعظيم الله تعالى ؛ إذ لو كان في قلب صاحبه شيء من تعظيم الله لحال دونه ودون الاستهزاء ؛ قال تعالى :﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ التوبة: ٦٥ ؛ يفسرها ما ذكره المؤلف عن ابن عمر ﷺ وغيره قال : (قال رجل في غزوة تبوك : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء ، أرغب بطونا ، ولا أكذب ألسنا ، ولا أجبن عند اللقاء ، يعني : رسول الله ﷺ وأصحابه القراء فقال له عوف بن مالك : كذبت ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ﷺ ، فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته فقال : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب ، نقطع به عناء الطريق ، قال ابن عمر : كأني أنظر إليه متعلقا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ ، وإن الحجارة تنكب رجليه وهو يقول : إنما كنا نخوض ونلعب ، فيقول له رسول الله ﷺ : أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ

(١) انظر : القول السديد ، ص (١٨٤) ، القول المفيد ٣ / ٢٧٣ .

(٢) انظر : صحيح الجامع الصغير ، ح (٧٣١٥) .



وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ! ما يلتفت إليه وما يزيده عليه)[١] ؛ فدل على أن الاستهزاء بالدين كفر أكبر ؛ إذ لو كان في قلب صاحبه شيء من تعظيم الله لحال دون استهزائه بدين الله تعالى ؛ قال ابن تيمية : (الإيمان قول و عمل فمن اعتقد الوحدانية في الألوهية لله سبحانه و تعالى و الرسالة لعبده و رسوله ثم لم يتبع هذا الاعتقاد موجبة من الإجلال و الإكرام الذي هو حال في القلب يظهر أثره على الجوارح بل قارنه الاستخفاف و التسفيه و الازدراء بالقول أو بالفعل كان وجود ذلك الاعتقاد كعدمه ، وكان ذلك موجبا لفساد ذلك الاعتقاد و مزيلا لما فيه من المنفعة و الصلاح إذ الاعتقادات الإيمانية تزكي النفوس وتصلحها فمتى لم توجب زكاة النفس و لا صلاحها فما ذاك إلا لأنها لم ترسخ في القلب و لم تصر صفة و نعتا للنفس و لا صلاحا و إذا لم يكن علم الإيمان المفروض صفة لقلب الإنسان لازمة له لم ينفعه فإنه يكون بمنزلة حديث النفس و خواطر القلب و النجاة لا تحصل إلا بيقين في القلب و لو أنه مثقال ذرة)[٢] . ولهذه القصة دلالات مهمة ؛ منها :-

أ- الخوف من النفاق الأكبر ؛ فإن الله أثبت لهؤلاء إيمانا قبل أن يقولوا ما قالوه ؛ ولهذا كان هذا الخوف من هدي السلف ؛ قال ابن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه[٣] .

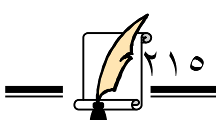
ب- الفرق بين النميمة والنصيحة ؛ فذكر أفعال المنافقين والفساق لولاة الأمر ليزجروهم ليس من النميمة ، بل من النصيحة لله ولرسوله[٤] .

ج- أن الافتراء والكذب من سنة المنافقين ؛ فقد نسبوا رسول الله ﷺ وأصحابه إلى كثرة الأكل والكذب والجبن ! وكذبوا في ذلك ؛ فهم أقنع الناس ، وأصدقهم ، وأشجعهم[٥] !

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين

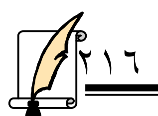
---

(١) كتاب التوحيد مع شرحه القول السديد ، ص (١٥٠) .
(٢) الصارم المسلول ، ص (٣٦٩ ، ٣٧٠) .
(٣) انظر : تيسير العزيز الحميد ، ص (٦٢٣) .
(٤) انظر : تيسير العزيز الحميد ، ص (٦٢٢) .
(٥) انظر : حاشية ابن قاسم ، ص (٣٢٠ ، ٣٢١) .



أهمّ المراجع

- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول ، لمحمّد بن عليّ الشّوكانيّ . دارالمعرفة ، بيروت .
- الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ، للدكتور صالح الفوزان ، مكتبة ابن تيمية ، ١٤١١ هـ .
- أعلام الموقّعين عن ربّ العالمين ، لأبي عبد اللّه محمَّد بن أبي بكر ابن قيّم الجوزيّة . مكتبة الكليّات الأزهريّة ، طبعة ١٣٨٨ هـ، بمراجعة طه سعيد .
- إغاثة اللّهفان من مصايد الشّيطان ، للإمام ابن القيّم . دار المعرفة ، تحقيق / محمد الفقي .
- الاعتصام ، لإبراهيم بن موسى الشاطبي . مكتبة الرِّياض ، عناية مُحَمَّد رشيد رضا .
- اقتضاء الصّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، لأحمد بن عبد الحليم بن تَيْمِيَّة ، تحقيق / ناصر العقل . بيروت ، الطّبعة الأولى ، ١٤٠٤ هـ .
- البداية والنّهاية ، للحافظ / عماد الدِّين إسماعيل بن كثير الدِّمشقيّ . مكتبة المعارف ، بيروت ، الطّبعة السّابعة ، ١٤٠٨ هـ .
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، للحافظ محمَّد المباركفوري . المكتبة السلفية بالمدينة ، مطبعة المدني ، الطبعة الثّانية ١٣٨٣ هـ .
- تخريج مسند الشاميين من مسند الإمام أحمد ، للدكتور / عليّ محمَّد جماز . الشؤون الإسلاميّة ، قطر الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ .
- التبرك أنواعه وأحكامه ، للدكتور ناصر الجديع ، مكتبة الرشد ، الطبعة الخامسة .
- الترغيب واترهيب ، للمنذري ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى .
- تفسير القرآن العظيم ، لإسماعيل بن كثير القرشي . مكتبة دار التراث بالقاهرة ، مطابع المختار الإسلامي .
- تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ؛ لمحمد بن إسماعيل الصنعاني ، مطبعة دار نشر الثقافة في الإسكندرية ، ١٣٩٧هـ.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والآسانيد ، للحافظ يوسف بن عبد اللّه بن عبد البر . مطبعة فضالة ، المحمدية .
- التمهيد لشرح كتاب التوحيد ، للشيخ صالح آل الشيخ ، دار التوحيد ، الطبعة الأولى .
- تيسير العزيز الحميد ، لسليمان بن عبد اللّه بن محمَّد بن عبد الوهاب . الطبعة الخامسة ١٤٠٢ هـ ، المكتب الإسلاميّ .
- تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان (تفسير السعدي) ، لعبد الرّحمن بن ناصر السّعدي . المؤسّسة السعيدية بالرّياض .
- جامع العلوم والحكم ، لعبد الرّحمن بن أحمد بن رجب . دار المعرفة ، بيروت .
- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ، لأبي عبد اللّه محمَّد بن أحمد القرطبي ، تصحيح / أحمد البردوني . الطبعة الثّانية .
- الجواب الصّحيح لمن بدّل دين المسيح ، لأبي العبّاس أحمد بن عبد الحليم بن تَيْمِيَّة ، تحقيق الدكتور / سفر الحوالي . الطبعة الأولى .
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدّواء الشّافي ، لمحمّد بن أبي بكر بن القيّم . دار الكتب العلميّة ، بيروت



– حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين ، لأحمد الصّاوي المالكي . طبعة ١٤١٤ هـــ ، دار الفكر .
– حاشية كتاب التّوحيد ، لعبد الرّحمن بن محمَّد بن قاسم . مؤسّسة قرطبة للنّشر والتّوزيع بمصر ، مطبعة الإيمان بمصر .
– حقيقة المثل الأعلى وآثاره ، لعيسى السعدي . الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـــ ، دار ابن الجوزي .
– درء تعارض العقل والنّقل ، لشيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة ، تحقيق د/ محمَّد رشاد سالم . مطابع جامعة الإمام محمَّد بن سعود ، الرياض ، الطّبعة الأولى ، ١٣٩٩ هـــ .
– دراسات في دلالات المثلات ، لعيسى السعدي ، دار الدراسات العلمية .
– الدرر السنية في الأجوبة النّجديّة ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم . دار العربية ، بيروت ، الطّبعة الثّانية ، ١٣٩٨ هـــ .
– دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، لعبد العزيز آل عبد اللطيف ، دار طيبة بالرياض ، ١٤٠٩ هـــ .
– روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لشهاب الدِّين محمود الآلوسي . طبعة ١٤٠٨ هـــ ، دار الفكر
– روضة المحبين ونزهة المشتاقين ؛ لابن القيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٣٩٧ هـــ .
– زاد المعاد في هدي خير العباد ، للإمام محمَّد بن أبي بكر الزّرعيّ (ابن القيّم) ، تحقيق وتخريج / شعيب وعبد القادر الأرنؤوط . مؤسّسة الرِّسالة ، الطّبعة الخامسة عشر ، ١٤٠٧ هـــ .
– سبل السلام ، للصنعاني ، دار المعرفة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥ .
– سلسلة الأحاديث الصّحيحة ، لمحمّد ناصر الدِّين الألباني . الطبعة الثّانية ١٤٠٧ هـــ ، مكتبة المعارف بالرّياض .
– السنّة ، للحافظ أبي بكر بن أبي عاصم الشيباني ، تخريج محمَّد ناصر الدِّين الألباني . الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـــ ، المكتب الإسلامي .
– سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة السابعة .
– شرح صحيح مسلم ، للحافظ يحيى بن شرف النّووي . دار الكتب العلميّة ببيروت .
– شرح العقيدة الطحاوية ، لعليّ بن عليّ بن أبي العزّ الحنفي ، تحقيق وتخريج / شعيب الأرنؤوط . الطبعة الأولى ١٤٠١ هـــ ، مكتبة دار البيان بدمشق .
– شرح القصيدة النونيّة ، للدّكتور / محمَّد خليل هرّاس . دار الكتب العلميّة ، ببيرت .
– شرح الكوكب المنير ، لمحمّد بن أحمد الفتوحي ، تحقيق الدكتور / محمَّد الزحيلي ونزيه حمّاد . مركز البحث العلميّ بجامعة أمّ القرى ، مطبعة دار الفكر بدمشق ١٤٠٠ هـــ .
– الصارم البتار في التصدي للسحرة الأشرار ، لوحيد بالي ، دار العاصمة ، الطبعة العاشرة .
– الصارم المنكي في الرد على ابن السبكي ، لابن عبد الهادي ، طبع وتوزيع رئاسة الافتاء بالسعودية ، ١٤٠٣ هـــ .
– صحيح الجامع الصّغير وزيادته ، لمحمّد ناصر الدِّين الألباني . الطبعة الثّانية ١٤٠٦ هـــ ، المكتب الإسلاميّ .
– صفة الصفوة ، لابن الجوزي ، دار المعرفة ، الطبعة الثالثة .
– الصّواعق المرسلة على الجهميّة والمعطّلة ، لمحمّد بن أبي بكر بن قيّم الجوزيّة ، تحقيق د / عليّ بن محمَّد بن دخيل اللّه

. دار العاصمة ، الرِّياض ، الطّبعة الثّانية ، ١٤١٨ هـــ .

– عدّة الصابرين وذخيرة الشّاكرين ، للإمام محمَّد بن أبي بكر بن القيّم ، تحقيق / محمَّد عثمان الخشت . دار الكتاب العربي ، الطّبعة الثّانية ، ١٤٠٦ هـــ

– عمارة القبور في الإسلام ، للمعلمي ، دار عالم الفوائد ، الطبعة الأولى .

– عقيدة التوحيد ، للدكتور صالح الفوزان ، دار العاصمة ، الطبعة الأولى .

– فتح الباري بشرح صحيح البخاريّ ، للحافظ / أحمد بن عليّ بن حجر ، ترقيم / محمَّد فؤاد عبد الباقي ، وتحقيق الشّيخ / عبد العزيز بن باز . دار المعرفة ببيروت .

– فتح القدير ، لمحمّد بن عليّ الشوكاني . دار المعرفة ، بيروت .

– فتح المجيد شرح كتاب التّوحيد ، لعبد الرّحمن بن حسن آل الشّيخ ، إصدار المكتب التعليمي السعودي بالمغرب .

– فيض القدير شرح الجامع الصّغير ، لعبد الرؤوف المناوي . دار المعرفة ، بيروت .

– قرة عيون الموحدين ، لعبد الرّحمن بن حسن آل الشّيخ ، طبعة دار الإفتاء الثالثة .

– القول السّديد في مقاصد التوحيد ، لعبد الرّحمن بن ناصر السّعدي . الرئاسة العامّة للبحوث بالرّياض ١٤٠٤ هـــ .

– القول المفيد ، لمحمّد بن صالح العثيمين ، تحقيق / سليمان أبا الخيل ، وخالد المشيقح . دار العاصمة بالرِّياض ، الطّبعة الأولى ، ١٤١٥ هـــ .

– كتاب القدر ، للحافظ أبي بكر جعفر بن محمَّد الفريابي ، تحقيق / عبد اللّه المنصور . الطبعة الأولى ١٤١٨ هـــ ، أضواء السّلف .

– كتاب النبوّات ، للإمام تقيّ الدِّين ابن تَيْمِيَّة ، تحقيق الدّكتور / عبد العزيز الطويان . أضواء السّلف ، الطّبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـــ .

– كتب الألباني في الموسوعة الشاملة (http://www.islamport.com/) .

– لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن) ، لعليّ بن محمَّد بن إبراهيم البغدادي . طبعة ١٣٩٩ هـــ ، دار الفكر .

– لسان العرب ، لمحمّد بن مكرم بن منظور . ط: دار إحياء التراث الإسلامي ، بيروت .

– مجمع الزوائد ، للحافظ عليّ بن أبي بكر الهيثميّ . مؤسّسة المعارف ، بيروت ، طبعة ١٤٠٦ هـــ

– المجموع الثمين ، لمحمَّد بن صالح العثيمين . دار الوطن بالرِّياض ، الطّبعة الأُولَى ، ١٤١٠ هـــ .

– مجموع الفتاوى ، لشيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة ، جمع وترتيب عبد الرّحمن بن محمَّد بن قاسم . مطبعة المساحة العسكريّة بالقاهرة ١٤٠٤ هـــ .

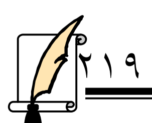
– المحرّر الوجيز (تفسير ابن عطيّة) ، للقاضي أبي محمَّد عبد الحقّ بن غالب بن عطيّة ، تحقيق / عبد السّلام عبد الشافي . الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـــ ، دار الكتب العلميّة ببيروت .

– مختصر الاستغاثة (الرد على البكري) ، الطبعة الأولى ، مكتبة الغرباء .

– مختصر الصواعق المرسلة ، للموصلي ، أضواء السلف ، الطبعة الأولى .

– مدارج السّالكين ، للإمام ابن قيّم الجوزيّة ، تحقيق محمَّد الفقي . دار الرشاد بالمغرب

– معجم مقاييس اللّغة ، لأبي الحسين أحمد بن فارس ، تحقيق عبد السّلام هارون . طبعة ١٣٩٩ هـ ، دار الفكر .
– مفتاح دار السّعادة ، للإمام ابن القيّم . دار الكتب العلميّة بلبنان .
– المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ؛ لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي ، دار ابن كثير ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٦ هـ .
– منهاج السنّة النّبويّة ، لشيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة ، تحقيق محمَّد رشاد سالم . الطّبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ .
– النّهاية في غريب الحديث والأثر ، لمجد الدِّين المبارك بن محمَّد الجزري ، تحقيق / طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي . مكتبة الباز بمكّة .
– النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد ، لجاسم الدوسري ، دار الخلفاء ، الطبعة الأولى .
– نيل الأوطار ، لمحمّد بن عليّ الشّوكاني . دار القلم ، بيروت .
– الوعد الأخروي ، لعيسى عبد اللّه السّعدي . دار عالم الفوائد بمكّة الطّبعةالأولى ، ١٤٢٢ هـ .



فهرس الموضوعات